



ابراهيم الحكيم



اهداءات ٢٠٠٣

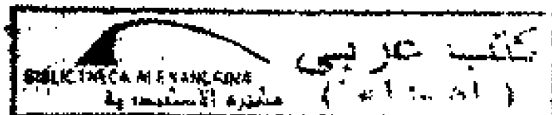
أميرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسوي
الاستاذية

الهيئة العامة لقصور الثقافة



إبراهيم الحكيم

بمقدم
إبراهيم عبد الغفار المازني



خاتمة الكفاية (١٨)

رئيس مجلس الإدارة

علي أبو شادي

رئيس التحرير

د. عبد القادر القط

مدير التحرير

محمود شومان

أمين عام النشر

محمد كشيح

الإشراف الفني

د. محمود عبد العاطي

المراسلات : باسم مدير التحرير

على العنوان التالي ١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني

رقم بريد : ١١٥٩١

مستشارو التحرير

د. جمال مصطفى

أ. محمود أمين العالم

د. محمود علي مكي

- الكتاب: إبراهيم الكاتب
- المؤلف: إبراهيم عبد القادر المازني
- الطبعة: الشعب - ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م
- الطبعة الثانية: الهيئة العامة لقصور الثقافة / ٢٠٠٠ م

الامتياز

إلى التي لها أحيا ، وفي سبيلها أسعى
وبها وحدها أعنى طائعا أو كارها ...
إلى نفسي ...

« ابراهيم عبد القادر المازني »

القسم الأول

• كل الأنهار تجري إلى البحر
والبحر ليس بملآن ... •

الفصل الأول

((وكان مساء ...))

- ١ -

شوشو فتاة يقول لك جسمها أنها ناهزت التاسعة عشرة ويشهد حديثها وحركاتها أنها لم تجاوز السابعة عشرة . وهي ذات قامة معتدلة وجسم نحس ووجه صبيح مثالي ، ترتاح العين إلى النظر إلى معارفه جملة ، وتشغل بوقعها مجتمعية عن التعلق بواحد منها على الخصوص . وقد قضت هذا الشطر الأول من عمرها في عزلة ، قلما أتبع لها فيها أن تتخالط الرجال الا أن يكونوا من ذوي قرابتها الأدينين ، فلم تألف أذن عبارات الإعجاب بحسنها ، وبقيت نفسها مرسله على سجيبتها ، ونحلا كل ما فيها ولها من ذلك العمل الذي يدرب الفتاة عليه تنبيه الشعور بنفسها وتوقعها من الجليس أن تأخذها عينه من فرعها إلى قدمها وأن تجس محاسنها وتنقدها . وقد انفردت حينها بمزية : هي أن من يراها لا يحتاج أن يعدوها أو ينقل لحظه إلى سواهما ، ففيهما يحتل نفسها وروحها وطبيعتها وجمالها ، مركزا . وهما سوداوان غير أنه سواد فيه من العمق أكثر مما فيه من الالتصاع . يتحدث « فيه » يتحدثك « في » بئر ، ولا ترونوه إليه ، كما ترونوه إلى « رسم » .

ومن الفتيات من لا يفطن المرء إليها على فرط حسنها ، لأول وهلة ، ولكن صاحبتنا هذه كانت من قوة الجذب بحيث لا يسمعك إلا أن تحس وجودها وتشعر بما تفيضه حولها ، ولا تكاد تجلس إليها تحس دقائق حتى تلم بما فطرت عليه من جرأة الجنان الذي لا يدري أن في الدنيا ما يتقى ، ومن حرارة النفس الغريزة التي لم يصدمها من التجارب ما يطفئها ، ومن خفة الروح التي لا يتقلها إلحاح المحم . ويعرف من يعرفها أن لها أحيانا تبدل فيها كالظلماء إلى مجهول ، أو كالتى تعتلج في صدرها خواطر واحساسات هي أغمنض من أن تتولى الكشف عنها عبارة ، أو أوجع من أن ترفه عنها دمة . ولم تكن كذلك الآن في هذه الفترة التي زهرت فيها تيارات حياتها ، والتي نخصها بالذكر .

كانت الشمس قد غابت وراء الأفق ولقت الحقول في شملة من الظلام لا رقيقة ولا شفافة ، وكان اثنان يدنفان في الطريق بين المزارع على حمارين ، أحدهما مسرج ملجم ، يعاني الفتي الحضري الذي يمتطيه أشد البرح من تخطره ونزاعه إلى الانطلاق في العدو ، وهو لا يكاد يمسك نفسه فوقه من فرط التقلقل . وثانيهما — أى ثانی الحمارين — يخطو وأدعا ، ورأسه مدلى وأذناه مسترخيتان وليس على ظهره سوى لبدة عتيقة استقر عليها الراكب ولصق بها حتى لا تكاد رجلاه تتحركان ، كأنما هما خشبتان مشدودتان إلى جانبي الحمار ، وكان الفتي في شاكل من متاعبه ، فقطعا أكثر الطريق في صمت إلى أن ألقت الفتى إلى رقيقه وقال :

— لم أعرف أسمك إلى الآن فهل تسمح لي به ؟

— اسمي ؟ آه ! أحمد الميت .

— الميت ؟ ولماذا يدعونك الميت ؟

فقال القروي وهو مطرق كما كان ، وعيناه إلى أذني حماره :

— لأنني مت .

فابتسم فتانا سائرا وقال :

— سبحان من يحيى العظام وهي رميم ، ولكنني أحسب يوم التشور لا يزال بعيدا ، فكيف عدت إلى الحياة قبل الأوان ؟

فرفع القروي رأسه فجأة والتفت إلى الفتى التفاتة المغضب وقال :

— لقد قلت لك أنني مت وانتهى الأمر .

فاسترسل فتانا في سخره وقال ولم تزايله ابتسامته :

— إذن من الراكب على حمارك يارقيقى ؟ أهو عفريتك ؟

فقهقه القروي وقال يعطمثه :

— عفريتي ، لا لا ! لا تخف ! أنا أحمد الميت .

— ولكن ألا تحدثني كيف حيت كرة أخرى ؟ ومن الذي رذك إلى الحياة ؟

--لم يردنى إلى الحياة أحد . لقد مت وانتهى الأمر .
فحملني القتي في وجهه وهو مبهور وكف عن الكلام ، وقد دار في
نفسه خاطر لم يرتج معه إلى صحبة هذا الرفيق .
وبعد قليل قال أحمد الميتم :
— ليست هذه أول مرة جئنا فيها ؟
— بل هي الأولى . . (ثم بعد قليل) لوددت أني ماجئت !
رسكننا برهة ثم عاد القروي يصل ما انقطع :
— لقد حسبتك عرفت الدار من طول تحديقك إلى ناحيتها .
— وأنى لي برؤيتها وهذا الظلام أكثف من جلد الغيل ؟
فضحك القروي ضحكة خفلة بالترقعة ثم أمسك فجأة وقال :
— إنكم يا أبناء المدن لم تألفوا النظر في الظلام .
فقال القتي وفي صوته مرارة ثم على ما يكتم من الألم الذي جره عليه
نشاط دابته :

— كلا ! لم يرزقنا الله مثلكم عيون القطة .
ثم ساد السكوت لحظة أخرى قال القروي بعدها :
— أحسبك تعرف قصة الباشا المرحوم مع أفندينا ؟
— كلا !
— أنها قصة ممتعة . لقد شرف أفندينا يومئذ . .
— من تعنى بأفندينا هذا ؟
— أفندينا اسماعيل ! لقد شرف يومئذ بلدتنا ولم يكن الباشا قد نال هذه
الرتبة ، ففرش له الطريق كله بالرمل ، ونصب على جانبيه الزينات التي لم
نرها لا قبلها ولا بعدها إلى الآن وأقام الأفراح أربعين يوما فسر أفند ينال هذا
وقال له ساعة هم بالركوب عائدا : إني جعلتك من بيكراتي وبمكنتك بعد أن
أرجع إلى مصر أن تزورني في أي وقت تشاء لأكافئك على تكرم ضيافتك
وسخايلك في استقبالنا . ومضت سنون بعد ذلك لا أذكر عدها ، وفي يوم
تذكر البيلك كلمة أفندينا فنهض وقال : أنى ذاهب إليه من توى . فلما

صار في مصر مضى إلى سراى أفندينا وقرع الباب ، فقال الخادم : ماذا تبني ؟
« فحكى له ما كان ، فقال له : « أن اسماعيل مضى وجاء غيره ، فماد
وأخبر القرية أن اسماعيل الثاني . . »

— اسماعيل الثاني ؟ أظن يا صاحبي أن في تاريخك خطأ .
— كلا ! لا خطأ على الإطلاق ! لأنها حكاية مشهورة ! وليس مثل
من تخطئ في الرواية ، أمن أجل أن كتبكم لا تحوى هذه القصة تكون
خطأ ؟ وأنا بعد لم أتمها لك ولم أخبرك بما وقع له مع اسماعيل الثالث . .
— إن هذا لا يطاق . كلا ! لن أحتمل اسماعيل الثالث . ووثب إلى
الأرض من ظهر الدابة وتركها وسط الطريق ، ومال إلى حافته اليمنى
كأنما أراد أن يجعل بينه وبين رفيقه أطول بعد ممكن . ورأى القروى ذلك
فكف عن محادثته ، وجعل يقول لنفسه : ما أغرب هؤلاء الأفندية الذين
يجيئون من الأمصار ! أما والله لولا أنه عت بالقرابة إلى الباشا رحمه الله . .
وبلغا البيت فنهراهما الكلاب ، وأفرغ الفتي نباحها وهيئها
الوحشية ، فدنأ من رفيقه بكرهه ، حتى كاد يدخل في ثيابه فزجرها القروى
عنه ، وصعد به السلم .

— ٣ —

قالت شوشو لقريبها بعد أن أصاب حذاء من الراحة :
— تعال بنا إلى بهو السلم ، فإن الجو بديع في هذه الليلة .
— ولكن السلم يؤدي إلى الفيط مباشرة بلا حاجز ، و . . . والكلاب . .
— آه الكلاب ! أتخافها ؟ إنها لن تؤذيك . . تعال . . تعال . . أصبح
أن تكون أضعف مني قلبا ؟
فمضيا إلى البهو وجلسا ، ثم شرعت فتاتنا تنادى : « مرجان ، بخيت .
مرزوق ، فعجب الفتى وقال : « وما تصنعين بهؤلاء كلهم ؟ لا تنمي الخدم
يا شوشو بلا داع ،
والتفت فإذا ثلاثة كلاب تصعد بسرعة على السلم وتقبل عليها وتتوثب .

حولها وتمسح بثوبها وتحرك أذنانها وتلعق حلماتها ، فأشارت إليها فريض
واحد إلى يمين القتي ، وثان أمامه ، والثالث إلى يساره ، وعادت هي
تحدث قريبها حتى عرضت مناسبة ، فنهضت وأخبرته أنها مستغيبة عنه برهة
قصيرة ، ولم تنتظر أن تسمع ما هم أن يقوله إذا صح أنه فتح فله ليتكلم !
وتركته .

فأسلم أمره لحظه ولهاتيك الكلاب ، وجعل يلاحظها خلسة ، وشامت
بعوضه أن تلدعه في جيبيته ، فرفع يده ليذبها ، فرغمت الكلاب الثلاثة
رموسها وزامت !
فحط ذراعاه .

وأراد الحظ أن تألم ساقه الوضع الذي كانت فيه ، فهم بتحريكها
لعادت الكلاب ترفع رموسها وتزوم ، فتركها مكانها .
وكثر البعوض فجأة ، وتوالى الإحساس باللدغ في الوجه واليدين والرجلين ،
وهو يتجعد إشفاقاً من هذه الكلاب الضارية ، حتى جاوز الأمر الطاقة ،
وكاد يذهب رشده فصاح - وهو سمر في مكانه ، ومن غير أن تتحرك
شعرة في جسمه : « ابعادوا عني هذه الكلاب ، والا قمت وتركها !
تمزقني » .

وفي هذه اللحظة فحت نافذة مطلة على البهو ، وظهرت منها شوشو
مستغرقة في الضحك .

الفصل الثانى

« وكان صباح ، يوما واحدا »

قضى فتانا إبراهيم — وهذا اسمه — ليلة هادئة عميقة النوم إذا استثنينا حلما قصيرا ركب فيه جوادا بلا لجام جمع به فى طريق وعر ، ينحدر على أحد جانبيه نهر جاش ، وتعرضه فى بعض المواضع أقنية تختلف ضيقا وسعة ، عليها ألواح من الخشب ، وقف الجواد الخبيث فجأة ، فوق واحدة منها وأهوى برأسه وقادميته إلى الماء ليشرب !

وبدا الصبح بأصوات العصافير ، ثم نهض ولبس حذاءه ومعطفه وطرבוشه ، وخرج متسللا كاللص . وكانت السماء خائمة ، والجو مطلولا لا تخلص معه الأنفاس . وكان هو يكره الرطوبة ويتجنبها ويشفق من عواقب التعرض لها ، وكثيرا ما تنته عما يقصد إليه ، ولكن منظر الحقول فى هذه الساعة قبل طلوع الشمس ، والضيباب يسترها على مسافة متر ، ويشف شيئا فشيئا عنها — وهو منظر لا عهد له به — أضره بالمضى فانطلق على غير هدى ، حتى وقف على ترعة صغيرة نزره الماء ، تكسوا الحشائش جانبي مجراها ، ويفترش الماء فى قاعها بساطا منسجيا ليناً . وجعل ينظر إليها تارة ، ويدبر عينه فى الحقول المستوية تارة أخرى . وكان المنظر من حوله مؤلفاً من عناصر إذا اجتمعت ، كما هى الآن ، أحالت الحب فى النفس الحساسة قلقا ، وهوت بالامل إلى الشك ، وهبطت باليقين إلى مرتبة الرجاء ، ومنعت الذكرى أن تحرك الأسف على فائت ، أو الرغبة أن تدفع إلى سعى . ذلك أنه كان أمامه — على قدر ما وسعه أن يرى — هذه التربة السوداء ومن ورائها مثل الجدار القائم . ومن خلفه هو أرض بعضها مرعى فيما يعلم ، وبعضها زرع لا يدرى أى شئ هو . ثم فضاء غير مستو يقوم من بعده البيت الذى زايه منذ لحظة . وكل

ما حوله أشكال ليس لها معارف - كالدهرم المسيح - توحى إلى النفس أى شئ ، ولا تنطق بشئ ، إذ كان الضباب لا يزال يكسوها ثوباً يزيد بها فى رأى العين والقلب حرياً وتجرداً . وكانت السماء دانية مسفة بحس المرء أنها تهيم بالانطباق على الأرض . ثم بدأت الشمس تطلع حمراء قانية كبيرة القرص ، وأخذت تطلق أشعتها الطويلة المتوهجة من الشرق فتتلقاها فى الغرب السحب ، فأطراف المنازل ، والأكراخ والتوافذ ورموس الاشجار ، فالأغصان النابتة على وجه الأرض فصارت الأنفاس كأنها خارجة من فوهة مدخنة ، لا من فم آدمى .

وأحسن لطول ما وقف ، بالبرد يسرى من قدميه إلى سائر بدنه ، فثنى خطواته إلى الدار ، وما كاد يفتح الباب المؤدى إلى الجناح الذى أفرد له ، حتى طالعه زنجية لامعة الجلد ، متفخخة الأوداج ، كأنما حشيت أشداقها قطناً ، براقه الأسنان ، واسعة العينين حمراؤهما ، قد غرز رأسها المغطى بين كتفها غرزاً ، واتصل بهما بلا واسطة . أما صدرها فعريض جداً ، وأما خصرها - إذا تجاوز أن يسمى هذا خصرأ - فهضيم جداً ، حتى كأن ما نقص من هذا زيد فى ذلك ، وبلى الخصر ردفان ثقلان تحتها ساقان قصيرتان كالقمعين فكأنهما زير عليه أبريق مقلوب فوقه كرة ذات ثقب ، والمرء يأيسر عهود من الخيال يستطيع أن يتصورها متككة .

فابتدرته الزنجية بقولها :

— أين كنت يا سيدى ؟

فلم يرتج إبراهيم إلى هذه المفاجأة ، ولم يسره لونها الأسود البراق بعد ذلك الضباب الذى ثبت فيه . وكان من أثقل الأشياء على نفسه أن يمتاز عن زوجاته وغدواته ، فقال لها :

— أين كنت ؟ وكيف يعينك هذا ؟

— لقد أزعجتنا نجداً يا سيدى ، ولم نخطر لنا قط أنك قد أخرجت على مثل هذه البكرة المطلولة ، فنخرج ماذا نصنع ؟

— لعلك لم تفتق أحداً من أجلى ؟

— نعم ، أيقظتهم جميعاً .

— أيقظتهم جميعاً ؟ ولماذا بالله ؟ أترينى طفلاً أم أنا هنا سجين ؟

ولم تكن المسكينة تتوقع أن يفضيه سؤالها وإشفاقها عليه ،
وأفزعها نظرتة أكثر مما أفزعها لهجته ، فرمت بعينها إلى الأرض
وأخذت تنتم :

— لا .. لا ياسيدى . عفوك ! إن هذا بيتك ..

— من قال لك أنى فى بيتى يضرب على نطاق من الخدم ؟

— أنا .. أنا .. لا ذنب لى . لقد أمرتنى سيدتى شوشو قبل أن تنام
أن أخبرها ..

فلم يمهلهما حتى تم كلامها ، وصاح بها وقد تملكه غضب شر ما فيه أنه
يعلم أن لا داعى له :

— إذا كانت سيدتك هى التى شاعت أن تسد فى وجهى الأبواب ،
فسأرحل هذا النهار . نعم لا بد من السفر ، فليست أنوى أن أعصب رأسى
وأسدل على وجهى قناعاً !

ودفع باب غرفته بعنف ، ودخل وهو يتمتم بصوت يزيده تهديجاً شعوره
بأنه مخطئ فى غضبه ، وأنه تهور بلامسوخ . وشرع يعد حقيته
ويفكر فى القيود التى تحيط بالمرء فى الريف ، ونسى أن للسجن أيضاً
قيودها ..

ولم يكن صاحبنا إبراهيم قد بلغ من الفلسفة ، أو إن شئت فقل من
التيلد أو الحزم أو ما تحب غيرها ، وأن كان بطبعه لا طباشراً ولا قليل التؤدة
وكان من ذلك الطراز الذى نستطيع أن نقول أن الله وجهه كل شيء ،
إلا القدرة على الانتفاع بالحياة والتوفيق فى الدنيا ، وأن يكن أشبه بالنساء
فى المرونة وسرعة التكيف . وكان عظيم الاعتداد بنفسه شديد الاعتماد

عليها ، ولكن من غير أن يشوب ذلك الكبرياء والفتحم على الناس . وفيه أنفة
كثيراً ما كانت تبلغ درجة البلاهة . وقد غلب عليه « الكاتب » وصار لقباً له
وعلماً عليه ، كما حدث لعبد الحميد من قبله بقرون طويلات المدد . ولم تكن
مزيته الابتكار أو العمق بل أنه ما من فكرة يتناولها إلا وسعه أن يحلوها في
أحسن معرض ، ولا استطاع — إذ لم تكن مما ابتكر — أن يضيف إليها ويزيد
عليها ما ليس دونها . على أن أبرز مزاياه كانت أن أسلوبه صورة لنفسه الحية
الحساسة المتوقدة . وكان دأبه أن يدور بعينه في بنفسه ليطلع على كل ما فيها ،
وأن يحيلها فيما هو خارج عنها ليحيط بكل ما وراءها ، ولكنه قلما رأى
شيئاً خارجها إلا من خلالها . وكان على قوة طبعه شديد الحياء كثير الخذر
ولا سيما مع النساء اللواتي لم يألف من مجالسهن إلا العائلية ، ولم يكن احترامه لمن
كبيراً وإن كان على ذلك لا يحتقرهن . وعنده أن المرأة أداة لبقاء النوع ، وأن
جمالها ليس إلا شركاً تنصبه الحياة ويحسن كثير أن يتجنب ، وأن الرجل أجل
من المرأة على العموم ، لأن جمال الرجل الجميل لا يستمد أكثر فتنه — كجمال
المرأة — من الفريضة النوعية . وكان سلوكه إزاء المرأة مظهراً لرأيه فيها
ونعني أنه كان يعدها مخلوقاً جديراً بالمعطف والمداعبة في غير ضعف وبدون
أن يمنع ذلك أن تحكمها دائماً وتلزمها طاعتك .

ومن سخر الأقدار أن هذه الطبيعة القوية المتمردة إلى حد كبير تكون
في جسم ضئيل هزيل لا يحتمل شيئاً فقد كان صاحبنا قصيراً ضامراً الجسم دقيق
العظام واهى التركيب ، وليس فيه شيء ينم على هذه القوة التي انطوى
عليها إلا وجهه ، أو بعبارة أدق جبهته الواسعة العريضة المتألقة ، وعينه
الواسعتان الحادتان ، وهامته المستطيلة القوية ، وأنفه الكبير الأقنى ، وشفته
المقوسة الغليظة بعض الغلظ . على أن قوته تنحصر على الأكثر في جبهته
وعينه . ولم يكن يخفى عليه هذا السر فكان يبلغ بنظرة يسدها
ما لا يبلغه الرجل الضخم بالعصى في يده . ولكنه كان
على ذلك رضى الطباع ، دمث الأخلاق ، سريع الفهم إلى الرضى .
ودخلت عليه شوشو وهو لا يحسها ، ووقفت خلفه وهو مشغل

بنزع غطاء حقييته ، ووضعت كفها على عينيه ، فأمسك بهما ونزعهما عنه برفق وقال :

- آه . شوشو !

- نعم أنا شوشو . من كنت تحسبني ؟
فاحمر وجهه الأسمر قليلا وابتمسم .

وكانت لآخر عهدهما قبل عام طفلة ألفاها في هذه اللقطة امرأة بارعة الشكل
ممشوقة القد ، تغترف العين بشارتها وترتاح النفس إلى نضارتها : سوداء
العينين عميقتهما ذهبية الشعر ترسله أمواجاً على كتفها ، بيضاء مشرقة ،
حمرء الخدين قرمزية الشفتين ليلتهما . عينها نار ، وسلظها حب ، وصوتها
تغريد ، وقوامها أتم ما يكون استواء وصحة وعزماً ونشاطاً ، وحركتها
مملوءة ظرفاً ورشاقة ، رقيقة كأنها النسيم ، جليلة كأنها ملكة ، ذاتية حيناً ،
متدلة متجبرة أحياناً ، ساحرة طورا ، وطورا ساذجة خريزة ، جميلة
في كل حال . وقالت وهي تتعمد أن تتجاهل معنى ما يفعل :

- دعني أخرج لك ما تريد من الثياب . أن هسلنا عمل النساء
لا الرجال . أصعد أنت إلى « فوق » فأنهم ينتظرونك ليفطروا معك
وساعد لك كل شيء .

- ولكنك لا تعرفين ماذا أبني ؟

- أعرف كل شيء ! وماذا تستطيع أنت أن تعرف أكثر مني ؟ أنك

كالطفل الصغير يحتاج حتى إلى من يلبسه الحورب !

فلم يدر أعرفت وتجاهلت أم هي لا تعلم شيئاً مما يحدث ، وكانت نفسه
قد سكنت فأمر أن يطوى الأمر ، وبدأ له أن هذا خير ما يمكن أن يصنع ،
وقال مغالطاً : « ولكني لا أعرف من أين أصعد » .

- إذن لنبدأ بالصعود وبعد ذلك نعود إلى هذه الحقيبة : أليس كذلك ؟

- نعم .

- هيا . أذن .

ووضعت كفها على كتفه اليماني وجعلت تطفر إلى جانبه وتترائب
كالفراشة .

الفصل الثالث

« كل لتكون فيك قوة . اذ تسير في الطريق . »

صعد إبراهيم وشوشو — أم ترى ينبغي أن نقول شوشو وإبراهيم ؟ — إلى غرفة الطعام فألفيا حول المائدة « نجية » كبرى اخوات شوشو ، وابنيها . وهي سيدة جميلة الوجه ، ولكنها ضخمة الجسم مترهلة اللحم ، ذات معدة — وما لنا لا نقول « كرشا » ؟ — تمشي أمامها . ولها إيمان راسخ بالمشائين في الظلام ، ونعني بهم الشياطين والنفاريت والأرواح ، وبأولياء الله الصالحين ، غير أن إيمانها بأولئك أقوى وأعمق منه بهؤلاء ، وأكثر ما تدور أحاديثها وقصصها بالليل عليهم ، وما أقل من لم تقل له « لاشك أنك رأيت حضريتنا . لقد رأيتهم أنا بعيني هذه مرات عديدة في البيت وحوله . ولكنهم لا يؤذونك إلا إذا كلمتهم أو تعرضت لهم »

والنفاريت معها حادثة لا تكف عن ذكرها كلما عرضت مناسبة . وثلك أنها فيما مضى من الزمن وفي مفتتح حياتها مع زوجها ، قامت بالليل إلى حاجتها واستصحبته معها خادمتها فاطمة الزنجية التي عرفتها في الفصل السابق ، فلم تكذب تبلغ الحمام حتى سمعت وقع حوافر المعيز صاعدة ونازلة على السلم ، وعابثة في المطبخ ، فصرخت وعادت تعدو إلى غرفتها ولكن زوجها أبى أن يصدق أو يلتفت إلى سبب فرحها « فلما أصبحنا وجدنا كل الأطباق التي كانت في المطبخ مكسرة ، ووجدنا ثلاثة من الغنم ميتة . فهل كسرت الأطباق نفسها ؟ ومع ذلك يأبي ابن عمي (أي زوجها) أن يصدق ! » .

وتضرب بطن يسراها على ظهر يمانها فوق كرشها الكروية ومن أجل هذا تعني قبل الذهاب إلى مخدعها بأن تمر بغرفة بنينا ، ومن

تكون في ضيافتها من أخوانها ، وأن تمسح رءوسهم وتتلو آية الكرسي ثم
تستودعهم الله وتمضي .

وهي من الطراز المحافظ الذي يستنكر كل جديد ويعده بدعة يجب أن
يستغفر الله منها ويعاذ به من شرها . ولزوجها بيت في رمل الأسكندرية
مد إليه أسلاك الكهرباء فاعترضت وقاومت ما استطاعت ، فلما أحياها
الأمر وأصر زوجها على الكهرباء أبت كل الأباء أن تدخلها غرفة نومها !
فرأى زوجها أن يرضيها بهذه التضحية الصغيرة . ولا يزال البيت تضيئه
الكهرباء إلا هذه الغرفة التي بقيت كأنها قطعة متلكئة من الزمن الغابر . وجهاز
زوجها الحمام بالأدوات الحديثة فأغضبها منه هذا ، وأصرت على الاستحمام
في « الطشت » وأهمال الخوض !

• أما التليفون فله في بيتها بالرمل عشر سنوات ومع ذلك لا تعرف كيف
تستعمله ، وتقول شوشو عنها أنها تطلب الرقم هكذا « ٩ الرمل ١٥ » بدلا
من الرمل ١٥٩ مثلا !

• ومقياس الصحة عندها مقدار ما يصيبه المرء من الطعام ، فأصبح الناس
من يلتهم التهاما ويأتى على ما أمامه كأنه لن يصيب رزقه غدا . بل قيمة
المرء رهن بذلك ، فأحق الناس بالإكثار الأكل البطين أما من يأكل بقدر
أو لا يأكل حتى يجوع فهو طفل لم يكبر ولم يشب عن الطوق ولو جله الشيب
وقومت قناته السنون أو الحادثات . وأثنى ما تهديه من النصائح إلى المريض
أو الضعيف أو الحزين أن « كل ثم كل ثم كل » هذا عندها الدواء من الحمى
والنقص والصداع الخ . ولا تصلق الأطباء فلأنهم يميثون الناس قبل أن تفرغ
آجالهم ! وما بعجيب بعد ذلك أن يصغر في عينها صاحبنا إبراهيم وإن كان قد
قد ناهز الثامنة والعشرين ومات له زوجة وبنون لم يعيش منهم إلا واحد .
وجعلت تسأله على الطعام عن صحته ، وعن العملية الجراحية التي أجريت
له وكيف احتمل الكلوروفورم — أو البنج كما تعرفه — وعن المستشفى الذي
أقام به حتى شفى وتقول : « يا ابن خالتي ! كيف رضيت بالبنج ؟ » .

فيقول : « وهل كان من الممكن أن أحتمل العملية بغير ذلك ؟ »
فنهز رأسها غير مصدقة ، وتسال : « وهل كانت العملية ضرورية ؟ »
لقد لبثت لا أنام منذ علمت بغيرها ، حتى طمأنني ابن عمي وأنبأني أنك
خرجت من المستشفى ، ومع ذلك لم أطمئن تماما إلا بعد أن علمت أنك
أت الينا . وكيف صحتك الآن ؟ »
— كما ترين ، حسنة .

— لقد كان دخولك المستشفى حماقة ، فكر .. أن المستشفى كالهجرة
ولا بد أنه مملوء بالعفاريت .

— لا . لا . لا . لا عفاريت ولا ..

— كيف يمكن ؟ الدم .. والذين يموتون فيه . أن بيتنا هذا جديد ،
ومع ذلك فيه عفاريت . ولو كان زوجي هنا لقص عليك كيف تطامع وتنزل
كالعيز على السلم الخشبي .
فقاطعتها شوشو قائلة :

— إن ابن خالتي ينام وحده في ذلك الجناح ، ولا يحسن أن يعرف
هذه الحكاية التي سمعناها مائة مرة .

فقال ابراهيم : « دعها يا شوشو تقصها ، فلإن سير العفاريت لا تفزعني
ولكم تمنيت أن يظهر لي عفريت ! ولكم سرت عمدا بين المقابر في الظلام
الحالك ، آملا أن أرى واحدا . »

فصاحت به نجيبة : « ماذا تقول ؟ أجهنون أنت ؟ » .

فلم يغضب إبراهيم لأنه كان أعرف بها من أن يثيره كلامها ولم يزد على
أن قال لها :

— وما الضرر ؟

— الضرر ؟ أحذر أن تصنع هذا هنا ! لقد كان أحمد خادمتنا عائدا
على حماره من المحطة في بعض الليالي ، فلما دنا من البيت وقف الحمار

— لأنها ذكرى . : تؤلمنى .

— هذا صحيح ! ولكنك جدير بأن تحمد الله على شفائك مع ذلك؟

فصمت قليلا وقال وهو مطرق : « لأحدى ! »

فاحتدلت ونظرت اليه بعينها العميقتين ، ووضعت يمينها على جبينه ،

ورفعت رأسه وسألته : « كيف لاتدرى ؟ لست أفهم ! »

فقال وجفنه مرنحى ، ونظرته الى الأرض ، وأصبعه ينفض السيجارة

شوشوا اسمعى ! انك لاتزالين صغيرة .

كلا ! لست صغيرة ! أنا أطول منك . أما ترى .

ونفضت ورفعت أطراف كفيها الى كتفيها ، وعيناها الى صدرها

ثم هوت بيديها الى ركبتيها ووضعتهما عليهما ، وانحنت اليه ، وحدقت

فى وجهه باسمه ، وهمت بالكلام ولكن هيئته صلدتها ، فأسرعت الى

مكانها بجانبه وجذبته من كتفه وقالت :

— مالك ؟ قل لى !

— فقال وهو منحن الى الأرض :

لاشىء اطمئنى ! كل شىء . . .

— كل ماذا ؟

فنهض ومضى الى النافذة وبداء فى جوبى معطفه ، وجعل ينظر

من خلال الزجاج دون أن يرى شيئا ، ولحقت به ووقفت الى يساره

هنيهة ، فلما لم يلتفت اليها طوقته بذراعيها وقالت وهى تجذبه جذبة

بعد كل كلمة :

— ابراهيم ، ابن خالتى ! مالك ؟ ما تتكلم ! لست أفهم !

— ربما كان خيرا لك ألا تفهمى .

— فأدارت إليه وجهها وقالت :

— ولكنى لا أستطيع أن أراك هكذا ! ألسنت بنت خالتك ؟ أم أنت

تستصغرنى ؟

— كلا يا شوشو .

— قل لى إذن ولا تدعنى أنألم من أسجلك هكذا بسبب جهلى ما يؤلك .

— ماذا أقول ؟ لقد دخلت المستشفى لأتداوى من مرض فشيت

ولكنى تخرجت بمرض جديد شر ما فيه أنه لا طبيب له إلا . . .

— إلا من ؟ قل أسرع !

— لا أقوى على أكثر من هذا يا شوشو . بل أقول أنى ما أتيت إلى

هنا إلا لأتداوى ولكن بلا جدوى على ما يظهر .

فجربى ببال شوشو نحاطر نحت إليه ومنعها الحياء والأدب والمحافظة

على كرامة ابن خالتها أن تفصح عنه وجعلت تتمم :

— أ . . . ساعنى ولكن أنت فى حاجة إلى . . . ما ..

فالتفت إليها بسرعة وقبل أدرك عرضها ولم يلعبها تم الكلمة وصاح

وقد فاضت نفسه بالإحساس المكتوم :

— يا بلهاء !

وانطلق هاربا من الغرفة . وخلفها واقفة مبهوطة واجمة تحملق فى أثره

وفها مفتوح من الدهشة حتى كأنما أحاطها بصيحته هذه تمثالا للبلاهة .

الفصل الرابع

« الى ان يفيح النهار وتنهزم الظلال
اذهب الى جبل المروالى تل اللبان . »

قبل أن نتقدم خطوة أخرى في هذا التاريخ — أو في هذه الفترة من حياة صاحبنا ابراهيم — نذكر راجعين بالقارىء بضعة أسابيع لنجمل ما عساه يكون مشكلا مما أسلفنا قصه في الفصل السابق . وهى أوبة تردنا إلى أيام عشرة قضاها في مستشفى لا حاجة بنا إلى اسمه إذ كنا لن نعود إليه مرة ثانية ، وكانت طلبتنا عنده قد زابلت . وكان كبير الأطباء صديقا لابراهيم فأوصى به الخدم والمرضات ، وأطلق له الحرية في استقبال الزوار ، وأمرهم أن يتوخوا في ذلك مرضاته . وكان هذا شرط ابراهيم لما ألح عليه الطبيب أن يجرى له العملية ، فقبله واكتفى بأن ينهه إلى وجوب الاقلال من تقبل الزيارات في الأيام الأولى على الأقل .

وفي صباح اليوم المضروب للعملية ذهب ابراهيم وحده إلى المستشفى دون أن يخبر أمه أو ابنة .. وهما كل أهل بيته إذا أسقطنا الخدم — كأنه ماض إلى عمله . وتقدم إلى غرفة الجراحة بجاش رابط ونفس — لا نقول مطمئنة — ولكننا نقول غير مكترثة لما عساه أن يكون . ومع أن الطبيب احتاج أن ينشقه مقدارا كبيرا من الكلوروفورم ، فإنه لم يكده يغسل يديه حتى كان ابراهيم قد فتح عينيه وأفاق إلى حد كبير ، فحملوه وهو متنبه ووضعوه في سريره وتركوا إلى جانبه ممرضة تعنى به ، فلبث نحو ساعة لا يتحرك ولا يتكلم ولا يصنع أكثر من أن يدير عينيه في السقف والجدران أو يرفع يديه من حين إلى حين ويمسح بجبينه لغرض واحد هو أن يثبت لمرضته أنه مفيق . وهى تحدجه بنظرها ولا تكاد تحول لحظها عنه كأنما تعجب لجلده ، ثم لفت وجهه فجأة وقال : « ما أسمك ؟ » ولم يكن ذلك منه التفات سائل عادى بل كان أشبه بحركة متوجع .

ويظهر أن هذا آخر ما كانت تنتظر أن يسألها عنه ، فلم تجد الجواب حاضرا وتلعتنت وهي تخبره أن اسمها « ماري » وحول وجهه عنها قبل أن تنطق وعاد إلى صمته ، وكأنما توهمت أنه لم يسمع ونخشت أن يسره حساباته أنها لم تجب أو كأنما ملت طول الصمت الذي ألزمها إياه . والصمت أشق على النساء منه على الرجال . قالت إليه وحت عليه وكفاها على السرير لتعتمد عليه وقالت :
— أقول إن اسمي ماري .

فتصلبت عضلات وجهه والزوى ما بين عينيه وتضاغطت شفتاه هنيئة قبل أن يقول لها : « نعم سمعت .. أرجو ألا تضعي يدك على الفراش فيتحرك .. » مؤقتا على الأقل .. » .

فرفعت يديها بسرعة عن السرير وقد أدركت أن صمته تجلد وأنه يكابد من الألم ما يود أن يكتمه لسبب ما . ونهضت وقد حدثتها نفسها أن خير ما تحسن به إليه هو أن تدعه وحده . وفطن هو أيضا إلى ما يخطر لها فأومأ إليها بعينه فعادت إلى كرسيتها فقال :

— هل تعلمين أن أهلي يجهلون أني هنا ؟

— كلا !

وبدا عليها شيء من الدهشة فلم تدر ماذا تقول أكثر من « كلا » ومضى هو في كلامه فقال :

— أرجو أن تعتفري لي ما أنا قائل . إن وجودك معي الآن على الأقل لا يكاد يجديني . وأنت في الخارج أنفع لي منك هنا . كم الساعة الآن ؟
— التاسعة والرابع .

— لا يزال إذن في الوقت فسحة . إن أخى علي موعد معي هنا . وهو لا يعرف شيئا مما حدث ولا يتوقعه . وكل ما أطلعت عليه هو أنني سأعرض نفسي على الدكتور .. وأني أحب أن يكون معي . وسيحضر بعد قليل .

والآن افتحى الدولاب وناولنى الورقة التى فى الجيب الايمن من ستري ..
أشكرك .. متى جاء أخى فأطعمه على الحقيقة وهونى عليه الأمر ما استطعت،
وإذا طلب أن يرانى فقول له إني نائم - فلانى أخشى أن يكثر من الأسئلة
الفارغة البلهاء .. وأكدى له أنى كذبت هذه الورقة بعد أن أفقت من العملية
وزال حى ألمها وذلك ليطمئن قلبه - إنها كذبة ولكن الكذب يكون فى بعض
الأوقات ضروريا واطلبى منه أن يعمل بما فى الورقة حرفيا .. أحسبني
تكلمت أكثر مما يلزم فهل أستطيع أن أعتد على ذكائك وحسن تصرفك ؟
فطمأنته وأكدت له أنها ستؤدى الرسالة كما يجب أن تؤدى وسألته قبل
أن تتصرف حاجة أخرى ؟

- نعم أن تعودى قبل خروجه وتخبرينى بما فعلت . ويمكنك أن تقولى
له إنك آتية لترى أنا أم مستيقظ . وهذا من قبيل الاحتياط حتى أستطيع
أن أصلح ما عساه يقع من الخطأ وحتى أتوفى مالا أود حدوثه .

- ٢ -

وجرى كل شيء على ما رسم : زيارات قليلة قصيرة يؤديها له أهله
وخاصة خلصاته ، ووحدة طويلة تنخللها فترات جعلت تطول شيئا فشيئا
تؤنس فيها ماري بمحضرها وحديثها . فنشأت بينهما ألفة وعلم منها أنها سورية
الأصل وأنها تعلمت فى إحدى مدارس الراهبات فى سوريا ثم تزوجت
شابا إيطاليا جاء بها إلى الإسكندرية ولبثت معه ثلاث سنين قضى نحيبه بعدها
ونحلف لها طفلا ، فزاولت الحياكة أولا ثم التمريض وما هى ذى إلى
جانبه .

ومن العسير أن يصف المرء « ماري » هذه وصفاً دقيقاً . ولعل من
المستحيل أن يستطيع المرء وصف إنسان ما على وجه الدقة . ولكن من
الممكن أن نقول - ومن الممكن أن يصدق القارىء - أن ماري كانت

تبدو في بعض الأحيان جميلة وفي البعض الآخر غير جميلة تبعاً لآمالها
الصحية والنفسية . وندع هذا مع ذلك ونقول عن مظهرها الجمالي أنها
ذات وجه ناطق دقيق المعارف ، وأن لونها أقرب إلى الشحوب ، وأنها
ضامرة الجسم ، وأن من يراها يخيل إليه أنها ظمأى كالعود من الزهر
انقطع عنه الماء ، وأنها لو سقيت هذا الشراب ، الذي تقرأ في عينيها
ولونها الياحها إليه لربت واهتزت . والمرء يستشف في وجهها النزوع
إلى انتظار رأيك قبل أن تفضي إليك برأيها — وإلى انتظار عمالك أيضاً
على الأرجح قبل أن تقدم هي على عمل . وما أكد هذه النزعة فيها ،
مزاوتها مهنة التمريض . والمستشفى كما يسهل أن يدرك القارئ — أشبه
ببقعة ممزولة عن العالم أو منتزعة من أحشائه ، يكون فيه التفكير أكثر
من العمل والقلق والملال أكثر من التفكير ، ولا يجرى التفكير فيه ، حين
يجرى ، إلا في دائرة ضيقة ، وقلما يؤدي إلى نتائج خيالية . ولكنه على
ذلك مسرح تمثل عليه روايات تداني في جلالها واتساقها ووحدة أحيانا ،
خارجيات سفوكليس وشكسبير ، ويساعد على إكسابها هذه المزايا ،
تركز العواطف وشدة توقف بعض الحيوانات على بعض .

وقد خلق إبراهيم عطوفا أليفا ، سريع الإحساس بالجمال ، ليس
أقوى من نفسه من عواطف الأدب والحب ، وخلقت ماري سمحة النفس
رضية الطباع ، حساسة كالوتر المشدود . وشاءت المقادير أن يشابهها
فيما وقع لهما ، فهو فقد زوجته وهي فقدت بعلمها . وكل من الفقيد
خلفا وراءه طفلا ، وفي كلتا النفسين ذلك الحنين الممزوق الذي خلفه
موت الفقيد ، ولم تجد الحياة بما يطفئه أو يسكن لأعجه . وكان
إبراهيم على حياته ، لا يكاد يألف إنسانا حتى يفتح له قلبه ، ويرسل
معه نفسه على سجيته ، وقل أن يتبسط لأول وهلة ولكنه كان
صاحب فكاهة وحبث ، وما عرفته امرأة إلا أعجبها منه ما فيه من
الدعابة ، والفكاهة من أقصر الطرق إلى قلوب النساء ، فلم تمض إلا

خمسة أيام حتى كان إبراهيم قد تعلق بمارى ، ومارى قد شغفت بإبراهيم ، وحتى صارت غرفة المستشفى فردوس عاشقين ، — إذا صدقت الظواهر — وما أكثر ما تلاقت شفاهما فى قبلات فرحة فى ذلك الفردوس المتزوى ، الذى يحسبه الناس مستشفى فحسب !

واستمرت العلاقة بينهما بعد أن أخرج المستشفى إلى بيته ، وكثرت المحادثات بينهما بالتليفون والمقابلات . غير أن الإرادة التى وهنت مع المرض ، عادت مع الصحة ، ففطن إبراهيم إلى مافى علاقتهما من الجبرج وأدرك أن الأمر يوشك أن يقلب مشكلا . ورأى أنه لا يستطيع أن يرضأها زوجة ، وأنها تطمع فيما هو أسى من مرتبة الخليفة ، وهبها لم تطمع فإن ذلك لا يجعل مشكل حياته ، ولا يفيله مأربه ولا يبلغه ما يمتنى من السكون إلى الحب المنزلى الذى لا يعدل به شيئا ، فخطر له أن ينأى عن القاهرة زمنا حتى أن تطيب نفسه عنها ، وأن تروض هي نفسها على بعده . ولما لم يهديه التذكير إلى خير من ذلك ، صمم عليه وشرع فى إمضاء هذا العزم من قوه . والتفيا ليلة سفره وتترها قليلا ولما آن أن يفرقا سأله :

— متى نلتقى غدا ؟

— ليس غدا .

فقالت وهى تبسم ولا تدرى ما عقد النية عليه : «ماذا يشغلك حتى يا إبراهيم ؟ » وكان إبراهيم ، اسمه عندها تناديه به حين تداعبه . فأجابها وهو يتكلف الابتسام :

— يشغلنى أنى مسافر .

— مسافر ؟؟ كيف هذا ؟ وإلى أين ؟

— أوه ! لا إلى مكان معين . سأنتقل من بلدة إلى بلدة . ومن

قرية إلى أخرى ثم أعود فيما أرجو .

— وما داعى ذلك ؟ متى عزمته عليه ؟

— لا داعى له إلا أن دكتورك أمرنى به وألح على فيه .

فزاد لونها شحوبا وأظلم وجهها وأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها وحلقت في عينيه وقالت :

— إنها إرادتك أنت لامشورة الدكتور ! لا تمار ! إلى أحرفك ! !
فلم يزد على أنه ابتسم ابتسامة من يستنكف أن يكابر ولا يكثرث
لما لظن به ، فسأل ما تجمد في نظرها ولانت عضلات وجهها وبدأ فيه
الضعف ، وأمسكت يكتفه وقالت وهي تهزه ولا تعباً بمن عسى أن
يراهما من الناس :

— لا لا ! لا تذهب ! قل إنك باق !

— فرفع كفيها عنه في رفق وقال بلهجة من يريد أن يطمئنها ، وإن لم
يكن في كلامه ما يعين على ذلك :
— ولكن هذا مستحيل يا ماري ! لقد أبرقت إلى بعض أقارب أنبيهم
باعتزاي السفر خدا وأطلب أن يرسلوا من ينتظرنى .
— أبرق إليهم مرة أخرى بعكس ذلك .
فهز كتفيه وقال :

— وما الفائدة ؟ سأسافر بعد غد إن لم أسافر خدا ! فالرحلة لا بد
منها على كل حال .

وهم أن يدعوها إلى التمشي قليلا ليسرى عنها ، غير أنه عاد فرأى
أنه من الأحزم والأجدي أن ينتهى الوداع حيث هما . فاكتفى بأن يهون
الأمر عليهما — وعلى نفسه أيضا — بوضع كلمات ، ثم ربت لها ذقنها
بأطراف أصابعه وسلم ، فقالت بعد أن تلقت يمينا ويساراً كأنما
كانت تحدثها نفسها باختلاس ضمة : « ياله من حلم قصير » .
وكان قد نخل يدها ونأى خطوة فقال :

— لا لا ! لا تقرلى هذا يا ماري ! لو كنت ممن يتشاءمون لما حسن وقع ذلك
في نفسى قبيل سفرى ! !

فنبهها ذلك فدفنت منه وأقبلت عليه تؤكد له أنهما سيلتقيان .
أما هو فسلم مرة أخرى وشررها بيده وهو يتسم ولم يجب !

الفصل الخامس

« قلت اكون حكيما اما هي فبغيدة عني »

رجع بنا الحديث إلى الريف ::

بعد أن انطلق إبراهيم من الغرفة التي كان فيها مع شوشو وخرج منها مارفا كالسهم ، انحدر مسرعا إلى غرفة نومه واستلقى برهة على « كنبه » فيها وأغمض عينيه كالذي يريد أن ينام ، وما به من نوم ، فكر أمامه تخيلته كل ما وقع له مع « ماري » مما قصصناه وما لم ننقصه في الفصل السابق ، فعاوده الحنين إليها والأسف على فراقها والألم لما خلفه لها ، ولم يكن إبراهيم ممن يحبون أن يخدعوا نفوسهم وينحلوها من المزايا ما عطلت منه ، وكان يؤثر أن يغمط نفسه وأن يعدها مجردة من كل ما يجعله حبيبا إلى النساء مرموقا منهن ، ولعل سبب ذلك أنه كان أحسن بالجمال ، وأحسن تقديرا له ، وأشد شعورا بمواطن الضعف في نفسه ، وأفطن لعيوبه من أن يتأق له أن يغض عن هذه العيوب ألا يكثر لها ، أو أن ينحيا عن عينيه ولا يدعها تبرز وتجب مزاياه ، ولذلك لم يلبث أن راح يتصور « ماري » مثلية عنه بكل ما يعدها صباها وجالها له ، ومن هو إبراهيم حتى تشغل نفسها به ونشيع بوجهها عن الدنيا من أجله ؟ أن صباها الذي ألفت بها حرارته بين ذراعية خليق أن يلتقي بها بين ذراعي سواه ، ولن تعدم رجلا يكون أفق منه وأوفى أيضا ! وأي حق له عليها بعد أن آثر أن يطرحها ويقر منها على هذه الصورة ولا يترك لها حتى عنوانه ؟ وهكذا ظل يحمل على نفسه حتى آلمها فنهض وقد ضاق صدره وفتح النافذة لتخلص أنفاسه قليلا ، وكانت نافذته تطل على فناء خلقي رحيب ، بعضه — وأكثره — بستان زهر وشجر باسق ، وبعضه بيوت للدجاج والأوز والحمام والأرانب وغيرها ، وحوله سور أسفله مبني بالآجر وأعلاه مصنوع من قوائم من الحديد مغطاة من الداخل بالخصير ، ليحجب من يكون في الداخل

من عيون المارة . وفي الجنوب باب للمخدم وقد يدخل منه الزوار من النساء أحياناً إذا شئن ، وكذلك من الرجال الذين يمتنون إلى أهل هذا البيت بصلة من قرابة أو مصاهرة . ورأى إبراهيم الخدم يدخلون ويخرجون ، وحديد الباب يلعب في ضوء الشمس فأدرك أن دهانه جديد ، وراقه أن يراقب الداخلين والخارجين وما يصنعون إذ يفتحون الباب أو يغلقونه ، ومبلغ التفاتهم إلى الدهان ، وعنايتهم باتقاء تلويشه لأيديهم أو ثيابهم . فلم يجد الرجال - وكانوا قائلين على كل حال - يتفاوتون تفاوتاً يذكر ، وكان كل منهم يدفع الباب برجله فيفتحه ويدخل ثم يعود فيدفعه من الداخل أيضاً أما النساء فكان أكثر اختلافاً : جاءت أولاهن - أو أولى من أبصر منهن - في ثوبها الأسود الذي يكتسب الأرض وراعاها وذراعاها مثلثتان إلى صدرها وعموديتان عليه ، وكفاها مفتوحتان كأنما تريد لتتقي بهما شيئاً ، فلما بلغت الباب دفعته براحتيها ودخلت وكأنما أحست أن شيئاً لضيق بهما فنظرت إليهما وصاحت : « يوه » ووقفت مكانها حائرة ، ثم كأنها لم تدرك ماذا تصنع فجعلت تتلفت يمنة ويسرة ومضت إلى أقرب رجل أخذته عينها لتستشير على الأرجح ، ولم تصوب نظرها مرة واحدة إلى ثوبها ترى ماذا أصابه ! وبعد قليل جاءت أخرى وعلى رأسها سلة مغطاة فلما بلغت الباب منحنه جنبها ودفعته بكتفها ، ودخلت مطمئنة غافلة عن الخطوط وأنصاف الدوائر التي ارتسمت على ذراعاها مما يلي الكتف ! فرفعت هذه المناظر وأمثالها عن نفس إبراهيم ، وانبسطلت أسارير وجهه ولعبت في عينيه ابتسامة خفيفة ، وإنه لمشرف على هذه الصور وإذا بصوت من ورائه يقول : « خالي ! شوشو تسأل عنك ! » وكان المتكلم محمد ابن نجية . وهو وأخته يدعوانه خالهما اختصاراً ، فالتفت إليه كالمففق من حلم أو كأنما كان قد تروهم وهو مظل من النافذة أنه مشرف من السحاب ، فلما سمع الصوت الذي يناديه أحس كأنما هبط إلى الأرض . ولكنه إحساس لم يطل ، فتناول الصبي ورفعته إليه وطبع على فمه قبلة أبوية ومأله : « أين هي ؟ » فقال الغلام : « في خرفة الاستقبال »

ويظهر أن إبراهيم استغرب هذا فصمت قليلاً كأنه يفكر ثم قال :
« حسن قل لها إنى هذا لا أصنع شيئاً ، فلنأت إذا شأمت » .

فخرج الغلام يعدو ، ومشى إبراهيم إلى السرير ووقف معتمداً بظهره عليه . وكان دقيق الملاحظة كثير التفكير في كل ما يرى أو يسمع ، ومن عادته إذا خلا بنفسه ولم يرغب في المطالعة أن يدع خياله يرسم له مناظر ومواقف وينشئ محاورات وأحاديث . فجعل يفكر في قول الصبي أن شوشو في غرفة الاستقبال : في غرفة الاستقبال ؟ لقد تركها هناك ! فهل تراها لم لم تبارحها . وكم دقيقة أو ساعة مضت عليها منذ غادرها ، وامتدت يده إلى جيبه مدفوعة بحركة لمنية وأخرجت الساعة ، وتأملها وأكد لم يقرأ فيها شيئاً بل ابتسم إذ تذكر أنه لم ينظر إلى الساعة حين غادر شوشو فلا يستطيع أن يعرف كم لبثت في هذه الغرفة . ولكن لماذا تبقى في الغرفة وحدها ولا تزيّلها ؟ ما أغرب أمر هذه الفتاة ! أتراها ساءها ما بدر منه ؟ ربما ! بل لا شك في ذلك فإنها فتاة متعلمة مهذبة ولا بد أن يكون قوله لها « بابلها » قد حز في نفسها ، وانطلق يلوم نفسه ويعتفها ويستهنجن شكاسة طبعه .

ودخلت شوشو تنساب كالماء فتقدم إليها باسماً كلنا يديه وقال :
— أعتذر إليك يا شوشو ! ساعيني ! لقد أسأدت إليك وكان ذلك سوء أدب مني بلا ريب ، فهلا تغفرين ؟

فتناولت كفيه في كفيها وجذبتهما إليها وفي عينيها نور البشر وحول وجهها كالهالة ، وقالت وأمالت رأسها إلى كتفها اليسرى : « تعتذر إلى ؟ مم بالله ؟ هيه ؟ تعالى هنا » ومضت به إلى الكنية : « قل لي ماذا كنت تصنع وحدك هنا ! أترأك جئت لتقضي الوقت كاه في هذه الغرفة ؟ اسمع ! سأغلقها بيدي بعد أن تستيقظ من النوم واحفظ مفتاحها معي ولا أسمع لك بدخولاً إلا وقت النوم أفهمت ؟ » .

فأعدها بشرها وقال وقد شاع في كيانه السرور : « فهمت وصبر » .

وأطعت ! والآن ماذا كنت تصنعين أنت في غرفة الاستقبال وحده ؟ :
فدفعت رأسها إلى الوراء قليلا وهزتها كما يفعل المصفور بعد أن
يشرب وقالت : « أنا ؟ أوه ! لا شيء ! وماذا حساني أفعل وأنتي تأتي إلا
أن تعدني ضيفة ولو أقمت معها العمر كله ! » :

وفي هذه اللحظة سمعا صوت عجلات ووقع حوافر خيل ، فأصغى
إبراهيم أما شوشو فنهضت إلى النافذة وأطلت منها ثم التفت إلى إبراهيم وهي
تقول : « الدكتور ! » .

فوقف إبراهيم وقد غاض البشر من وجهه وسألها بلهفة وهو لا يفهم :
— « دكتور ؟ هل مرض أحد ؟ » .

فبادرت إليه وقالت : « لا لا ! إنه الدكتور محمود : » ، قريب ابن حمى
(زوج اختها) ألا تعرفه ؟ له عيادة في البندر ويزورنا من حين إلى حين ،
وكلما جاء قريبنا يعود مريضاً ، والآن سأذهب لاستقبله وأجيب به : » .

— ليس إلى هنا وأنا في هذه الثياب أيضاً ؟

فضحكت وقالت : « لا تخف ! بل في الغرفة التي أمام غرفتك . . هذه
(وأشارت إليها) أما ثيابك فما لها ؟ إنك في قرية ولا حاجة بك إلى تغييرها ،
ومضت تعدو . . .

الفصل السادس

« ارجعى ، ارجعى ، يا شوليت ! ارجعى ارجعى ، فننظر إليك » :

لم يسمع إبراهيم إلا أن يطل من النافذة . ولم يكن يعرف هذا الدكتور ولا سمع به ، أو على الاصح لا يذكر أنه سمع به ، فقد كانت ذاكرته أشبه بالغريال الواسع الخروق ، وكانت الأسماء أول ما ينسى إذا طال غياب أصحابها عنه ، وكثيرا ما كان ذلك يحضله ، وكان ربما التقى باثنين من معارفه لا يعرف أحدهما الآخر فيمنعه نسيان اسم أحدهما ، أو أسميهما جميعا ، أن يقوم بواجب التعريف . وكان إذا تخرج الموقف ولم يجد بلدا من أداء هذا الواجب ، يلجأ إلى المداعبة ويقول لهما : « إذا شئنا أن نتعارفا فلا اعتراض لى ولكن لا تنتظرا منى معونة ا » . فيتقدم كل منهما للآخر باسمه فى حياء واضطراب ويخرج هو بذكر ما كان ناسيا ا :

ولم يفارقه الوجوم منذ سمع كلمة « الدكتور » تند عن شفتى شوشو ، إما لما تركه توهمه حين نظقت باسمه أن أحدا قد مرض فجأة ، وإن كانت شوشو قد بادرت إلى نفى ذلك وطمأنته ، وإما لأنه لم يرتع على العموم لما ظهر ا . من أن شوشو تقابل بهذا الدكتور وإن كان قريب ابن عمها ، وكان هو — إبراهيم — ليس من دعاة الحجاب ، أو لأنه لم يجد فى الساعات القليلة التى أقامها فى الريف ما كان يتوقع من الإيناس والشواغل ، أو لعله كان لكل من ذلك تأثيره . ومهما يكن من تعليل سهومه فإن الذى حدث هو أنه لم يكذب يخرج وجهه من النافذة حتى تراجع وأغلق مصراعها الزجاجيين كأنما كان هذا ما قصد إليه ، ثم عاد إلى الكنبه ووضع رجلا فوق رجل وأشعل سيجارة .

وفى أثناء ذلك كان الدكتور قد ترك المركبة فى حراسة أحد الخدم

وجعل البيت فاستقبلته شوشو في وسط السلم وصعدت به إلى الغرفة المواجهة لغرفة إبراهيم .

وبعد هنية دخلت على إبراهيم فاطمة الزنجية التي كره وجهها وكلامها في الصباح ، وقالت وهي مطرقة بها شيء من الوجع :
— تفضل يا سيدى ..

فتحى السيجارة عن فمها وأرسل نفخة من دخانها ، وأمال رأسه إلى قاضية السيجارة — وكانت في يدها — وقال لها بلهجة مبهطنة بالمرارة :

— إلى أين يا ستي إن شاء الله ؟

فأحست المسكينة أن حادثة الصباح ستكرر ، فقالت وهي مضطربة :
— عند ستي شوشو والدكتور .

— ما أسرع ما نسيتى ستك شوشو بدكتورها . أنا أيضا ضيف كالدكتور ولم أسبقه إلا بساعات .

قال هذا بصوت خفيض وعينه إلى الأرض كأنما كان يحدث نفسه . ثم رفع رأسه إلى الخادمة التي كانت تحالسه النظر وقال :

— ألم تجد ستك شوشو من ترسله غيرك ؟ لماذا لم تحضر بنفسها ؟

— أنا .. أنا .. يا سيدى ..

— أذت تخرجين من هنا .. (بصوت عال) .

فخرجت المسكينة تتعثر وبودها لو استطاعت أن تحلف ألا تراه وجهها .

أما هو فكان يود أن ينهض ويتمشى في الغرفة ، ولكن الباب مفتوح وفي وسع من يكون في الغرفة المقابلة أن يراه ، فظل قاعدا وجعل يتمتم :
« قبح الله الريف وساكنيه ! .. لو أنها كانت فتاة من أجلاف الريف لعلمتها .. ولكنها تعلمت . في المدارس الفرنسية أيضا .. وليست الصغيرة على كل حال حتى يفتخر لها ذلك .. الواقع أن مجيئى إلى هنا كان خطأ .. يجب أن أعود أدراجى أو أن أرحل إلى الإسكندرية فهي من

هنا قرية .. إن أعصابى ضعيفة ولا قبل لى باحتمال هذه الفصول الباردة ..
وأنا لم أحتك بأهل الريف الحقيقيين بل لم أر منهم غير رفيقى من المحطة
إلى هنا .. ذاك الميت الحى الذى لم يكفه إسماعيل واحدا ، ولم يرض
بأقل من ثلاثة !! وهو مع ذلك وكيل مضيفى ! كيف يمكن أن أطيق
كل هذا الجهل والخلافة ؟؟ » .

وكرر به الفكر إلى ماري .. ماري السمحة المؤدبة الوديدة ، التى
كانت تقرأ فى وجهه كل ما يدور فى نفسه ، وتسبقه إلى ما يطلب قبل
أن يتحرك لسأله ، ماري التى فر منها بلا سبب ، وحرمت نفسها متعة
حديثها ، وأنس محضرها ولذاذة حبها ، ماري التى كان إذا خلا بها
يجلس على ركبتيها كالطفل ويسند رأسه إلى صدرها ، ويمسح لها وجهها
براحته ، وهى تحنو عليه وتقبله ، وهو مغمض العينين ! فنهض فجأة وقال
وهو يشير بأصبعه : « كلا ! لا بد أن أكتب إليها لتلحق بى فى الإسكندرية .. » .
— من هى ؟

فالتفت فإذا شوش واقفة فى مدخل الباب ، وذراعاها ممدودتان وكفاها
على المصراعين ، وقدما المشوق بادية معاله كلها بفضل وقفتها ، وثوبها
الصوفى المبهوك ، فبهت إبراهيم كما بهت الذى كفر فيما حدثنا الكتاب الكريم ،
ولم يدر ماذا يقول أو يفعل . ولم يكن أسهل من التخلص ، ولكن
خياله النشيط جسم له الأمر فارتبك ، وبدا ذلك كأجلى ما يكون فى
جموده مكانه ، رفى ثبات حملاقه ، وذهول نظرتة ، وانفراج
شفتيه ، وتصلب يمناه المثنية على صدره .

فزايلت شوش ابتسامتها وتقدمت إليه وردت مصراعى الباب وراءها
حتى تلامساء ووقفت إلى جانبه تحملجه بنظرها ، ثم قالت له وتكلفت الابتسام
وإن كان لونها ممتقما :

— ستحرق السيجارة أصابعك إذا لم تنتبه !

وكأنما رد صوتها بعض رشده إليه ، فحنى رأسه وصوب عينيه ،
إلى يده وقال : « نعم أشكرك » وبدأ منه مثل حركة من يهم بالعودة ،
وإن لم يكن وراءه شيء ، فسندته شوشو بذراعيها فأفاق تماماً والتفت وراءه
ثم رفع إليها وجهه الشاحب المتهضم وقال : « أشكرك . ثانية » فقالت
وهي تفسر نفسها على الابتسام ولا تدري ماذا تهدي إليه :

— من حسن الحظ أن الدكتور هنا ، وإني أستطيع أن أكون
مرضبة عند الحاجة !

فندت عن صدره « آه » قصيرة مثقلة ، كأنها خارجة من صدر
رجل طعن وهم نائم .

— « يجب أن تجلس . إنك مريض » وتناولت يده تجسها .

— كلا ! كلا ! لست مريضاً . دعيني .

ولكنه أطاعها وجلس وهو يتألف ، ويمر يده على وجهه

— إن الدكتور وحده .. اذهبي إليه .. حقيقة لا يلقى أن تدعيه
وحده .

— لا أستطيع أن أتركك وحدك ولكن أنتظر .

وخرجت مسرعة .

وبعد دقائق عادت وأخبرته أنها صعدت بالدكتور إلى أختها .

ثم قالت :

— والآن أراك أحسن مما كنت حين تركتك . ألسنتك كذلك ؟

— نعم أحسن كثيراً .

— إذن قم والبس بذلتك ، فقد كلفتنى حيلتي كذبة . فعليك

أن تبفض وجهي .

— أي كذبة ؟

— لقد قلت لهما إنك مصر على عدم مقابلة الدكتور إلا في بذلتك ،

كذبة قتلها كسبا للوقت لأنى نخت أن تطول هذه الحالة التي رأيتك

عليها . وكلفتنى غير الكذبة شيئاً آخر ، ولكني سأحاسبك فيما بعد .

أما الآن فالبس ثيابك وسأبقيك .

الفصل السابع

« أيتها الجليلة في الجنات . الأصحاب
يسمعون صوتك فاسمعي » ..

— ٢ —

صعد إبراهيم إلى غرفة الاستقبال العائلية التي جلس فيها بعد الإفطار مع شوشو برهة ، فألقى الأسرة مجتمعة فيها : محمد الصغير ابن نجية يبكي — أو على الأصح تبكي حنجرته الجديدة دون عينيه — لسبب لاشك يدعو إلى بكاء مثله ، وفي كفه مرآة صغيرة ينظر فيها ويظهر أن الغرض من ذلك أن يرى في صقلها كيف يبدو الوجه الإنساني حين يبكي حامله ! وكان يكف عن التشيج كلما استوقفه المنظر العام أولفته منه شيء خاص ، ثم يستأنف الأحوال ! وكانت زينب أخته — أو زوزو كما ألفوا أن يسموها على عادة هذه الأمرة — معتمدة بذراعيها على كرسي ، ومنحنية عليه وناظرة إلى مقعده ، ومشتغلة بتحريكه إلى الأمام وإلى الوراء ، وأما نجية تلتفت إليها من حين إلى حين وتزجرها عن هذه الحركة ، خوفاً على الكرسي ، بمثل هذه الأصوات : تو .. تو .. تو .. ثم تعود وتحول وجهها إلى الدكتور إلى جانبها ولا تنتظر نتيجة زجرها أما شوشو فلم تكن في الغرفة ساعة دخلها إبراهيم .

ووقف الدكتور وتقدم خطوات ، ومد يده إلى إبراهيم وتصافحا ورفع محمد عينه عن المرأة ونظر بمؤخرها إلى القادم في سكون ، ثم أكب عليها ومضى في عويله الذي يظهر أنه كان يجد فيه نوعاً من الامتاع ، ولكنه لأمر ما هبط بطريقة هذه النغمات أوطأ ما يستطيع . وتخلت زوزو عن الكرسي ونضت إلى إبراهيم وتمسحت به وهو يسلم على الدكتور ، كما تسمح القطط بأصحابها . فاحتلمها وجلس وأجلسها

على ركبته ، فأهوت على عنقه تطوقه وتقبله في صمت تام وابتسام لم تكده تفوز بمثله من موضع عطفها وحبا حتى انقلب ضحكا عاليا .

ودخات شوشو في إثر إبراهيم — كأنما كانت مختبئة تنتظره — فأنارها الدكتور بنظره وتعلقت عينه بمرونة حركتها إذ تبدو كأن أوصالها ساكنة وهي تنساب كالجدول الرقراق ، وكان قوسا حاجبيها الدقيقين الحادين يختلجان ، وعينها تومض فيها نظرة عجيبة جمعت بين عدم الاكتراث والحب والدلال والسداجة ، وكانت شفاتها الرقيقتان تقلدان حاجبيها وتختلجان مثلهما ، وكذلك جانبها أنفها الجميل . وإذا قلنا أنفها الجميل فقلنا قلنا كثيرا فما أندر الأنوف الجميلة وإن كثرت العيون الفاتنة والشفاه المغرية . وإذا أضفت إلى هذا وذلك خصالا متموجة من الشعر الأصفر ، وثوبا من الصوف داكن الحمرة منسجما على قوامها ، أمكنك أن تكون لنفسك فكرة ولو ضئيلة عن هذه الفتاة التي صارت في هذه الغرفة كالزهرة بين الخضر ! وتحلى لها الدكتور عن مقعده ، ومضى إلى آخر الغرفة ليأتي بكرسي لنفسه ، فابتسم إبراهيم الذي تظاهر بالتشاغل بمداعبة زوزو — إذ رآه يمشي وأحد كتفيه إلى الأمام ورأسه مائل إلى اليسار وذراعاها تضطربان في الهواء كأنما خلتا من الأعصاب أو كأنهما كانا فارغان .

وبعد تبادل التحيات وما هو منها بسبيل ، قالت شوشو وهي تنظر عن عرض إلى إبراهيم ، وكان مطرقا يهمس في أذن زوزو ، وإن لم يفت عينه ولا أذنه شيء :

— ما قولك يا دكتور ! اليوم الجمعة وهو يوم راحتك ، فأقضه معنا

فإن ابن خالتي يمل مجالستنا ويهرب منا دائما إلى غرفته .

فلم يبد على الدكتور كأن هذا بضايقه جدا وقال :

— ولكن . . .

— قل إنك موافق . . . أسرع .

قالتا بלהجة لم يسع الدكتور معها أن يظل لسانه معترضا على ما يوافق عليه قلبه فقال :

— إذا كان الامتاذ (فرغ إبراهيم وجهه ونظر إليه نظرة بلهاء جوفاء)
لا يرى في وجودي ما يزيد ميله إلى الهرب فأني على أتم استعداد . .
— معلرة ياسيدى الدكتور إذا قاطعتك . يظهر انك لا تعرف أساليب
شوشو المهرجة (ضحك مكتوم من شوشو) أوكد لك أنها لا تعنى ما تقول . .
أنا أعرف بها منك .

— بل أعرف كل حرف .

— نعم تعنين أنك تطلبين إلى الدكتور أن يقضى اليوم معنا — أعنى هنا —
ولكن الباقى الذى يخصنى ليس سوى عبث منك بي وحدى .
— سله يادكتور بلمته أليس في عزمه أن يطير إلى الإسكندرية حالا
لو أنه يستطيع ؟

فالت نجية إلى الأمام وحملت في وجهه ثم في وجودهم وقالت :

— يسافر ؟ كيف ؟ وهل أقام شيئا حتى يفكر في السفر ؟

— سليه يا أنحتى ! (بنحيت) .

فقالت نجية بلهجة من كاديتهدى إلى السر . « أترك رأيت . . . »
ولكن شوشو قاطعتها ضاحكة :

— لا لا ، إنك لا تنسين عفاريتك قط ! أنا أعرف السبب !

ورمت إلى إبراهيم نظرة .

فقال إبراهيم بصوت اليائس : « ربما واضطجع في كرسيه وأطبق شفتيه
إطباق من لا ينوى أن يفتحهما مرة ثانية .

وفتر الحديث لأن الدكتور لم يسهه أن يشترك في هذه المناقشة العائلية ،
ولم أن إبراهيم لا يحب أن يتوسع فيها . ورأت شوشو أن إشارتها إلى ما سمعته
عفا من إبراهيم وهو يحدث نفسه في غرفته قد أعادت إليه الاكتئاب ،
فقدمت وصار الكلام متكلفا متقطعا .

وكان الالاق قد غام وانتشرت سحابة كثيفة واحدة في مجاليه ، وبدأت تهيم وترسل صفحات متعوجة من المطر ترق حيناً وتكثف حيناً آخر . وجعلت الأشجار المفروسة وراء البيت تتوجع كالبؤساء من الرياح التي تعصف بها وتصفر بينها ، ثم طغت الرياح حتى صارت الجذوع الوطيدة تهتز وتروع الناظر إليها بهذه الحركة التي لم تعهد منها ، كما يروعك الرجل القوى حين يبكى ، وراحت الغصون المتدللة تنعبد وتنصوب ، والفروع العالية المستقيمة تتلوى وتترنح وتبدو كأنها توشك أن تنقصف ، واضطربت مهاب الرياح وتعددت تياراتها وتعارضت ، حتى صارت الأغصان المتقاربة في الشجرة الواحدة من هذه الأشجار تميل كل مميل وتتضارب وقد تشبك ، وجعلت الأوراق — ما بين خضراء وصفراء تتطاير عن أعوادها وتتقاذف ثم تسقط فروع الزروع . وأظلمت الدنيا وصار وقع الماء على زجاج النافذة كنقر العصي ، وكانت روعة هذه الثورة قد تركت القوم صامتين برهة ، ثم قالت شوشو وفي وجهها أمارات الفوز وفي صوتها نبرات السرور :

— الآن يادكتور لم يبق لك مفر من البقاء !
ونظرت إلى إبراهيم تبتغي تأييده . ولم ينتظر الدكتور هذا التأييد ، فأرسلها ضحكة عالية لم يفهم إبراهيم لها معنى ، ولم يعرف لها داعياً ! وبدأ له أن من سوء التقدير أن يضحك المرء وهو محبوس من جراء هذا ايلو العاصف ، فأخذ يراقب الدكتور ويحصى عليه حركاته وأنفاسه ، فخيّل له — ولعله غير مخطيء — أن الدكتور يتغفله ويلاحظ شوشو باسمها حتى وهو يكلم غيرها ، ولم يزل حتى أقنع نفسه بذلك ، ثم صارت المسألة التي تتطلب الجواب : هل وجه شوشو يزداد احمراراً أو يشحب أو يثبت ولا يتغير على كثرة هذا اللحظان وتكرره ؟ وهل هي ترامقه أيضاً أم هذه الاختلاجات التي يراها في نجفوتها عفو لا عمد فيه ؟ وعلى كثرة

ما فكر في ذلك وطول ما شغل به نفسه لم يستطع أن يطمئن إلى جواب يسكن به إليه .

ولما أعياه جواب هذه الأسئلة وأمثالها نفّض يده من معالجتها كالسأمان واعتاض منها سؤالاً آخر عني به نفسه برهة أخرى في خلال هذه الجلسة التي طالت بفعل الجو الفاسد : ماله يتعب نفسه بالتفكير في ذلك ؟ ليترامقا ما شاءا ! وهل يعنيه من أمرها شيء ؟ وكان الجواب الذي لم يسترح إليه أنه حب الاستطلاع المركوز في طبيعته ، وأنه مفطور على دقة الملاحظة ، وليس يسعه إلا ذلك ولا حيلة له فيه ، وليس من الضروري دائماً أن يكون وراء هذا سبب آخر . أو علة خفية . وأى شيء هناك يمكن أن يكون خفياً ؟ لا شيء على التحقيق ! فهز كتفيه ومط شفتيه واعتدل فوق كرسيه ووطن نفسه على الضرب في زحمة الحديث . وإذا به يرى شوشو تكاد تسقط عن كرسيها من شدة الضحك ، والدكتور يبتسم — ابتساماً هو أقرب إلى الضحك المكتوم فيما يرى — ويسألها مالها ؟ ونجبة مرتجة الأنحاء مما أصابها من علوى الضحك ، وكفها على ذلك الجانب من فها الذي يواجه إبراهيم ، فلم يفهم ، وهم — تنفيلاً لعزمه — أن يضحك مثلهم ، ولكنه أطبق شفتيه بعد أن فتحهما لما لمح من حركات شوشو ونظراتها وإشارات أن شيئاً فيه هو الذي يضحكها ، فأسرع فأدار عينيه في ثيابه ، فلم تأخذ شيئاً غريباً ، فعاد فرفعهما إليها وهز رأسه هزة خفيفة كالمتفسر فلم يلق جواباً سوى هذا الضحك ، فشر بالدم يصعد إلى رأسه ويتجمع فيها وراء عينيه ولكنه ضبط نفسه وردّها بجهد ، ونجبة تضحك قليلاً ثم تسألها : « مالك ؟ » والدكتور يتلفت متظاهراً بالاستغراب ، ويضرب كفّاً بكف ، ومحمد وزوزو يقهقهان وينحنيان وتحذلهما أرجلهما فيقعان على البساط ، وأخيراً خرجت شوشو تعدو منحنية وكفها على شفتيها وفيها يقول « بف بف ! » .

ومضت دقائق خيلت أطول مما هي ، ولم تعد شوشو تنفّض

الدكتور ، وكان أظهر الجميع قلقاً وتلفتاً ، ومشى إلى النافذة حيث وقف
هنية يتأمل السماء المربدة والمطر المنهمر ولا يكاد يرى شيئاً ، ثم عاد ويسراه
في جيبه ويخناه تبعث بسلسلة الساعة الذهبية وقال : « سأنظر أين ذهبت شوشو »
ويخرج فالتقاها أخيراً واقفة على رأس السلم مستظلة من المطر بدورته
المؤدية إلى السطوح ، ومتكئة على حاجزه ، وسمعها وهو يدنو منها تغنى
بصوت خفيض فأقرب منها على أطراف أصابعه ووقف على مسافة متر
منها معلقاً أنفاسه ، مخافة أن تنتبه إلى وجوده فتحرمه المنظر والمسمع
جميعاً . والفارغ لا بد يعلم أن الرجل إذا وقعت من نفسه امرأة فهو
يخضرها إلى ذهنه في صورة هي أحب إليه مما عداها ، لأن هذه الصورة
تكون أعلى بذكريته وتكون هي المظهر الذى تبدو فيه لخياله حين يتمثلها .
وقد اختارت صورة شوشو هذه الهيئة التى رآها الدكتور عليها فى ذلك
المكان ، وصارت تزوره فيها فى كلا نومه . ويقظته . والمنظر عبارة عن
فتاة أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، فى ثوب من الصوف قرمزي
لاصق بالبدن بحيث لا يفلت شئ بينها هي منحنية بجانبها الأيمن على حاجز
السلم ، ومعتمدة بخدها الأيمن على كفها ، وبكوعها على هذا الحاجز .
أما راحتها اليسرى فمطبقة فى خصرها الذى يبرز من تحته ردفها مرتفعين
مائلين إلى اليسار قليلاً ، وجيدها الأتلع الضخيم قد انثنى عليه القروط تحت
شعرها الذهبى المقصوص . وهذا ما كان بادياً منها لعين الدكتور حيث
وقف يرجو أن تظل كما هي لا تشعر به ولا تتحرك ولا تكف عن الغناء .
ولكنها تحركت ! أما لأنها أحست به وإما لأن الوقفة أتعبتها أو أملتها
فرأته فصبغ الدم وجهها وارتدت ، ولكنها لم تنجهم له وقالت وفى عينيها
نظرة صتب ورضى فى آن :

— آه ! ألك هنا كثير ؟

فدنا منها خطوة : « لا ! مع الأسف ! » .

فلم ترده عن الدنو ولم تحاول أن تتحول عن مكانها لتحفظ المسافة

الأولى بين
بشدييه المستديرين بارز.

— أكنت تسمع ؟

نقال برقة ، ومد رجله الخطوة أخرى لم يخطها :

— ربما كنت أشد التفافاً إلى مصدر الصوت .

فقالت بلهجة من يستزيده مما يحرم عليه :

— لا تقل هذا يا دكتور !

— ولماذا ؟ إنك تعرفين إعجابي بك .

فلم يبد عليها ما يدل على الارتياح إلى إعرابه عن هذا « الإعجاب »
وودت لو أنه استخدم في وصف شعوره لفظاً أقوى من « الإعجاب »
وقالت بلهجة أقسى مما كان ينتظر إذا اعتبرنا ما مر إلى الآن :

— كلا هذا لا يليق . وأنت تعلم أنى محقة !

فدهش — وهل كان ياترى من حقه أن يدهش ؟ — ولم يدر ماذا أخضها
فجأة وقال :

— ولكن يا عزيزتى . .

فقاطعت بلهجة أشد قسوة :

— لست عزيزة أحد من فضلك !

وكأنما آلمها أن تكون عزيزة أحد ، وإن كانت هي التي حرمت نفسها
هذه المزية ، فحل الاكتئاب محل الغضب في أسارير وجهها الذي بدا كأنه
طال فجأة ، واحمرت عيناها أيضاً حتى ليظن من يراها أنها حديثة عهد
بالبكاء ، أو أنها مشفية عليه ، فلم يسعه إلا أن ينقل رجله الأخرى
ويخطو الخطوة التي كان هم بها وصده عنها ما لا تعلم ، وتقدم منها وكاد يلصق
بها فتجبت عنه وجهها ومنحته كتفاً ، فتناول يسراها بين راحتيه فلم تسحبها
وقال وفي صوته نبرات الأسف والام الصادقين :

— ولكنى لا أفهم ! بأى شيء أسأت إليك يا عزيزتى ؟

— قلت لك لست عزيزة .. عزيزتك !

فلم يفهم أيضا ! وأنى له أن يطلع على ما تطوى عليه أضلاعها وهو لم يرزقة الله تلك الفطرة التى تهديه إلى اللفظ الذى يكون أوقع فى نفس المرأة وأعذب فى سمعها وأشد موافقة لمواها ؟ وأراد أن يصلح ما فسد فزاد الطين بلة :

— حسن ! لن تسمعى منى هذه الكلمة التى تكرهينها ، فلا داعى

للفتور . ولكن قولى لى كيف أدعوك ؟

فسحبت يدها التى كانت قد تركتها له وقالت :

— أدعنى باسمى ! لماذا تدعونى بغيره ؟

— اتفقنا إذن ...

وابتسم ، وأبى له سوء الحظ وعماء فى هذه اللحظة الدقيقة التى كان يمكن

أن تنعكس فيها الآية ، إلا أن يزيد « ياشوشو » .

فرفعت عينها فى وجهه ساخطة زارية وخرجت دون أن تجيبه .

وتخلف هو برهة ثم سلق بها وهو يقول :

— ما أعجب أطوار النساء !

ولو أنه كان تبعها حين خرجت لسمعها تقول لنفسها :

— ما أشد غباوته !

الفصل الثامن

« يفتن بعينيه ، يقول برجليه ، يشير بأصابعه ، في قلبه أكاذيب »

١

جاء وقت الطعام فجلسوا إليه في غرفته ، أو على الأصح في الردهة
الفسيحة التي تحيط بها الحجرات ، ولم يكن ثم سوى مائدة مربعة وبضعة
كرامى من الخيزران . وكان إبراهيم قد سبقهم ولكنه نكأ عند باب
السلم ووقف . حيث كانت شوشو منذ برهة ! — يتأمل الجو ويمد ذراعه
لينتقى بكفه المطر الذي كان لا يزال ينهر ، ويحاول أن يرفع وجهه ليرى
السماء وهل رقت السحب فيها أم لا تزال كثيفة حالكة ، فنظرت شوشو
إلى الدكتور ، ونظر الدكتور إلى شوشو وقد طاف برأسها خاطر واحد .
وقال كل منهما لنفسه : « أترأه رأنا أو سمعنا ؟ » وزادت شوشو فعجبت
للأقدار التي جعلتها هي تسمعه في الصباح وجعلته هو — فيما تظن — يراها
أو يسمعها بعد ساعات !

وقالت نجية : « يظهر أنه لم يجمع » .

فقالت شوشو ، ونهضت عن المائدة :

— بلى يظهر أنه ينتظر المن من السماء :

ومضت إليه وأمسكت بذراعه وجرفته معها وهي تقول :

— هكذا يجب أن تعامل ، اجلس هنا !

وكان الدكتور محسن الحظ فقد جلست شوشو إلى جانبه .

وكان من بواعث سروره الحقيق أو المتكلف أنه أصر على اتخاذ كوب

سهت شوشو فشربت منه وإن لم يكن كوبها ١ ، وأن القطعة التي لبثت
هنيئاً في حجر شوشو انتقلت إلى حجره وألمسته شعرها الذي لمس
شوشو من قبل . يضاف إلى ذلك أنه هم أن يساعدها ، وحمل إلى طبقها
شيئاً من الخضر رفضته فنقله إلى طبقه بعد أن كاد يلمس طبقها ! وكان من
حين إلى حين يختلس نظرة إلى جانب وجهها وإلى جيبها وغير ذلك من بدائع
هذه الفتاة التي ظلت أكثر الوقت تلتقي الحديث إلى إبراهيم الجالس أمامها .
وكانت فاطمة تتوعد أن تقف وراء إبراهيم مخافة أن يراها ، وستأشوشو
لا تفتأ تدعوها أن تنحى عنه لئلا تلوث له ثيابه وهي تضع الصحاف أو
ترفعها عن المائدة ، فتشير المسكينة إلى شوشو بيدها وتمض شفتها السفلى
وتوميء بعينها إلى إبراهيم فيضحك منظرها شوشو ، ويدبر إبراهيم وجهه
إلى فاطمة فتجمد وتنقطع حركاتها وإشاراتها وتقول نجية :

— دعها يا أختي فلإنها مستحبة .

وفرغوا من الطعام فأشعل إبراهيم سيجارة ، وكان الدكتور يهم بالقيام
عن المائدة ، فلما رأى السيجارة عاد فوطن نفسه على البقاء ، ولمح إبراهيم
ذلك فقال :

— لا تكلف نفسك هذه العادات الأفريقية يا دكتور إننا هنا — على رأى
شوشو — في الريف وعلى أننا معاشر المصريين لا نتحرى هذه العادات حتى
في العاصمة ، وبممكنك أن تسبقنا إذا شئت فقلنا باقى هنا مع بنت خالتي وأشار
بعينه إلى نجية : اذهبي يا شوشو معه .

— ٢ —

قالت شوشو للدكتور لما صاروا وحدهما في غرفة الجلوس :

— إن هذا حسن جداً بلا شك ؟

— ماذا ؟

— أظنه يسرك جداً ؟

— ولكن ماذا ؟

— ألا تستطيع أن ترى أن ابن خالتي رآك واقفاً معي وسمع ما تفضلت على به .

— ولكن كيف يمكن ؟ وهبني رأي وسمع فإذا إذن ؟ وهل فيما قلت شيء لا ينبغي أن يقال ؟
— بلا شك .

— يظهر أن قلبي لن يستطيع أن يصلح ما أفسده لساني ! فيأله من زمن يتعقّب سوء الحظ فيه الرجل من أجل أنه لم يقدر أن يغمط امرأة ؟ لأنه أعرب لها عن إعجابه بجمالها ؟ أو كان على أن أكابر وأن أزعج أني أكره دمايتك ؟ يجب أن تعترفني أنه ما كان ينبغي أقل مما قلت .

فقضت شوشو إلى النافذة لتخفي أمارات السرور الطبيعي الذي لمع في عينيها ورجفت له شفاتها ، وقالت وهي سائرة :

— أحسب أن من واجبي أن أشكرك يا دكتور ؟

فتبعها وهو يعيث بسلسلة ساعته وقال :

— إن من الثناء ما هو إساءة أدب ، وقد يكون هذا من ذنوبي . ولكن من المعاملة ما هو ظلم ، وقد تكون معاملتك إيأي من هذا القبيل . رجل صريح لم يألف المكاتمة يجهر برأيه فيعد من أجل ذلك سيء الأدب !

فالت ووجهها إلى النافذة :

— لست أسمع للأغراب أن يحترفوا على حتى بالمدح .

فقال بلهجة الظافر :

— آه ! إنه ليس المدح الذي تستحقين أضغافه هو الذي يغضبك بل صدروه عنى ! ولو أن غيري — إبراهيم مثلاً — كان محلي .
فتجهت له وقاطعته :

- إلى أمتك ! إله ابن خالتي ، بل أخى وأعز أهلنا علينا ، وهو لا يحلم بأن يفعل ما فعلت .

فلم ينهزم أمام هذه التعميسة وضاعف الحملة :

- أن من بواعث اغتباطى على كل حال أن أعلم أنى صادق فى وصفى لك رضىت أم سخطت . وهل كنت تريد أن أراك ثم أذهب أتحدث عن دمايتك لا لسبب يسوغ هذا الكذب الشنيع سوى أن أعفبك من الارتباك والحجل حين تسمعين أنك جميلة ؟

فزادت تعميسا وقالت بصوت مرتفع قليلا :

- إن هذا كله تكلف . وأنت تعلم ، كما أعلم ، أنك لم تقل إلى ..

- لقد قلت أنك جميلة .

- كلا ! هذا كذب .

- وأقول ذلك الآن . . . وإنك لكذلك . بل أنت أجمل من رأيت . . . وعينا . . .

- لا تحلف قلن أصغى إليك . إنك فظيع .

ووقفت مضطربة بين الحجل من سماع ذلك والرغبة فى الاستزادة منه . أما هو فلم يعبأ شيئا بمقاطعتها ومضى يشد عليها ويقول :

- أكرر أنك من أفن النساء ، فهل فى هذا كذب ؟ إن الأمر واضح لا خفاء به . وقد يكون فى قولى هذا اجترأ ، ولكن الاخلاص شفعى .

- كلا . لأنك غير صادق .

- مهلا مهلا يا شوشو ! واسمعى لى أن أكبر هذا الأدب وأعجب به لصجابى بجمالك . ولا أحسبى أول من وصفك بهذا . ويجب أن تصدق الناس إذا لم تصدقينى .

فلم تستطع أن ترد نفسها عن مسابرتة إلى حيث يجرها فقالت :

... إن الناس لا يقولون عني ذلك .
... بل لا بد أنهم يفعلون وإلا كانوا عبياً .
... أعني أني لا أسمعهم فإنك تعلم أني لا أقابل غير أهلي ، ولعل
مخطئة في السماح لك برؤيتي .
فلم يلتفت إلى الشطر الأخير من كلامها ، ولم يسمح لها أن ترحل
عن موقفه وقال :

... ولكنك تعرفين أنهم يقرأون هذا ؟
فأغررتها حلاوة الإعراف بالموافقة ، وصدها التأدب والحياء فاضطربت
« لا - أعني - سمعت فاطمة تقول إنهم يدكروني بذلك . . غير أن . . »
ولحت أختها وابن خالتها مقبلين ، فنبه ذلك في نفسها طبيعتها العابثة ،
وأمسكت عما كانت فيه وقالت بصوت عال :
... إذن تحكم ابن خالتي . تعال أفصل في الأمر .

فريم الدكتور واصفر وجهه ودارت الأرض به ، ولم يعد يدري أواقف
هو على رجليه أم رأسه ، وتلفت كالذي يبحث عن نافذة يثب منها ولم يستطع
أن يمنعهما أو يقول لها شيئاً لأنها باغتته بما لم يكن له في حساب ، ولم تزد على
أن ألقت إليه نظرة خبيثة ثم تقدمت إلى الباب .

وقال إبراهيم : « ماذا ؟ فم مختلفان ؟ » .
وكان الدكتور لا يزال واجهاً ممتنع اللون مسمرأ في مكانه ، وقد بدا
لنفسه سيئاً جداً لا يدري بأية قوة يواجه الموقف المخجل الذي تهم شوشو
بأن تضعه فيه .

فقالت شوشو - وهي ترمي إلى الدكتور بالنظرة ، وتمتع عينيها بمنظره
وبما يكابد من ألم وحيرة وخوف :

... إنه يقول لي .. ويكرر .. ويؤكد .. ويقسم .. أني
... أنه ..

فعيل صبر الدكتور وصاح بها : « شوشو » .

— لا تقاطعنى من فضلك . يجب أن يعرف ابن خالتي هذه الحماسة .

فقال إبراهيم عابسا :

... حماسة ؟ ماذا تعنين يا شوشو ؟

أعنى أنها حماسة وجرأة وجنون . ولا بد أن أبسط لك الأمر ليتأتى لك أن تحكم ، فأمسك أنت أيضا عن المقاطعة من فضلك . .

ثم كأنها رثت للدكتور المسكين ، فكفت عن تعليمه وقالت :

— يقول إنه لا يستطيع البقاء معنا ، وأنه لابد له من العود إلى المركز لأن عليه أن يعود أحد المرضى مهما كانت المشقات . وأنا أقول له إن العود مستحيل فى مثل هذا الجو المطير ، فاقض بيننا بالحق .

وجلست ، فجلس الدكتور كأنما كان قد انقلب آلة حاسبة ، ولم يسر منه ما قالت لأنه — على فرط ذهوله — أدرك أنها تبينه صمتها بثمن معين هو أن يجلو عن البيت حالا . فبالها من عتوبة تنزلها به جزاء له على ما أجتأ به عليها من المغازلة البريئة ؟ أفترأها كانت ، وهى تعاطيه الحديث ، تفكر ..
... فى هذه الوثبة التى قصمت ظهره ، وأطارت لبه ، وشردت عقله ؟ وباليست من يدري أجادة هى أم هازلة ؟ وعلى أنه لم يطل التفكير فى تلك اللحظة ، ولم يسعه إلا أن ينزل على حكم المقادير التى جعلته رهن مشيئة شوشو ، على الأقل فى هذا الموقف ، فهز رأسه لنجية وإبراهيم أن « نعم » وبلغ ريقه ومد يده إلى جيبه ثم أخرجها وقال : « لقد كنت ناسيا فاذا كرتنى المفكرة وأنا أنظر فيها عرضا . وأنا أعلم أن الخروج فى مثل هذا الجو حماسة ، ولكن واجب الطبيب فوق راحته » .

وأظهر الإصرار وراح يدفع « بالواجب » و « بحالة الما »
اعتراض حتى أذنوا له بكرههم .

الفصل التاسع

« من صعد الى السموات ونزل ؟ من جمع
الريح في حفتيه ؟ من صر المياه في ثوب ؟ »

انقطع المطر وسكنت الريح ، وكان إبراهيم واقفا الى نافذة غرفته يطل على الحديقة التي مر بك الكلام عليها ، أو على الأصح يحديق في الظلام الدامس والسكون الرهيب اللذين لفت بهما الكون ، حين دخلت عليه شوشو ودنت منه ووقفت تتأمله ، وهو لاه عنها بمنسا يرسمه له خياله النشيط . وكان البرد قارصا والليل صامتا لا حركة فيه ولا حس ، كأنما استحال كل شيء في السماء والأرض صورة مرسومة ، وقد خيل إلى إبراهيم وهو يرى هذا السواد بعينه كأن هاوية من الخرس قد ابتلعت كل صوت ونأمة ، وأنه لو أرسل في ظللمتها صيحة لما ارتد منها إلى الأذن رجع ولا كان لها صدى ، وأنه أو ألقى فيها بحجر لما سمع له وقعا ولا بلغ الحجر قاع الهاوية ، وبدا له كأن الأرض قد ضرب عليها السحر شيطان وألزمها حالة غير إنسانية يعي الإنسان نعتها ، أو كأنها في غيبوبة أفقدتها وعيا أو كأنما هو ينظر إلى الدنيا الذاهلة عنه من خلفها ويتأملها وهي مدبرة عنه أو يسترق السمع من وراء أستار الكون .

وعالج إبراهيم ، وهو ثابت الحماق ، أن يصور لنفسه وقع هذا المشهد الرهيب وما انطوى عليه من الجمال والجلال والموت في آن ، وأن يتبين نوع إحساسه به ، وأن يهتدى إلى العبارة عنه فأعياء الناس ذلك ، وماذا عسى أن يبلغ من طاقة المرء على تصوير هذا المتنظر المسحور . هذه الدنيا التي أنامتها عين غير مرئية ؟

وطال الأمر على شوشو أو لعلها نخشيت أن تعديه الطبيعة فيجمد وينقلب تمثالا ، فقد جعلت تمر كفها على ذراعه وتمسح له شعره

براحتها ، وهو في شغل عنها ، فلما رأت أن ذلك لم يرده إلى الحياة ولا أشعره وجودها أدارته إليها وربت له خده فاختلفت شفتاه ولكنه لم ينطق ، فافترت له عن أعذب ابتساماتها وقالت له وهي تجره إلى الكنية :
— قل لي مالك ؟

فقال وهو يقعد أو يلتقي على الأصح بنفسه على الكنية :

— تسأليني ما بي ؟ ؟ بي هذه الطبيعة التي كانت منذ ساعة تبرى وترعد وتمطر وتصخب كأنما يعول فيها مائة ألف شيطان ثم آضت كما ترين ، الآن فقط فهمت ما كنت أقرأ في صباى عن مسخو حجارة !
— هل تريد أن تقول أن هذا أول عهدك بمثل ذلك ؟

— نعم . ولشد ما أتمنى أن أجرب ذلك في نفسى لحظة واحدة !
لحظة واحدة تسكن فيها نفسى هذا السكون فتخرس السنة الهواتف وتمحى صور الحوادث ، ويفيض ذلك العباب الجائش هنا في صدرى هذا .
فقاطعت شوشو قائلة :

— ما أعجب أمرك والله ! تكون معنا كأن لا شيء على وجه الأرض يعنيك ثم لا تكاد تخلو بنفسك حتى تنقلب إنسانا غيرك ، كأن في جوفك بركانا يريد أن ينفجر ، أفلا تفضى إلى بما يكربك ؟ قل لي ! هات ما عندك ! أطلعنى على دنخة نفسك ! ائتمنى على شرك .

فوقع من نفسه عطفها وجنوها ، وهم أن يبثا شكواه ويقول لها بشجوه ولكنسه ضعف لم يساوره إلا ريثما التفت إليها ، ثم ملك نفسه وكبحها ، وقال وعلى فمه ابتسامة سرور وشكر لم تخل من ذلك السخر :

— يا فتاتى الصغيرة أتقدرين أن ..

فحزت هذه الابتسامة في نفس شوشو ووثبت إلى قدميها وهي

تقول :

— بودى أن لا تتكلم كأنك شيخ هرم وأنا طفلة أحيو ؟
— لا تغضبى ! (ومديده فتناول ذراعها) عودى إلى مكانك
بجانبي . دعى بدوائى هذه . لا تلتفتى إليها . إنها مرارة النفس يقطر
بها اللسان وينضج بها الوجه وتفيض بها العين ، وبكرهى أن ترى ذلك
أنت أوسواك من خلق الله — آه يا شوشو لو تعلمين ! إذن لعذرتنى .
— وماذا يمنعك أن تخبرنى فتطرح عن صدرك هذا الحجر ؟
— يمنعنى كبرياء نفسى وعلمى أن الشكوى عبث وباطل ومحال
ليس بجدى .

— أدام الله عليك الكبرياء التى أفاضها عليك !
ونظرت إلى ساعتها على معصمها وقالت :
— الساعة الآن الحادية عشرة فقم إلى سريرك وإلتحف بها !
فضحك وقال :
— وأنت ؟ هل أثقل رأسك النعاس ؟
— أو يعينك أن تعرف ؟
— بلا شك .
— إذن اعلم أنى لست ذاهبة لأنام .
— وماذا تنوين أن تصنعى ؟
— سأجلس قليلا وأفكر .
— فى أى شيء ؟
— ليس لى مثل كبريااك فلا أكتملك أنى سأفكر فى غرابة
أطوارك .
— آه ! أولا تزالين غضبى ؟
— كلا . ليس مابى غضباً . لقد كنت أود . . على أن هذا
لا يهم الآن . . .

فخطر له أن هذه الفتاة على صغر سنها متعلمة وأنها قد تستطيع أن تفهم وأن تعذر فقال :

— اسمعى يا شوشو . إن الواحدة تكون طفلة وتدعى لنفسها مع ذلك قدرة الأنبياء ومنزلة الرسل . . . إن . . .

قالت مقاطعة : « لا أفهم » .

قال : « لست وحدك التي لا تفهم . إن كل امرأة مثلك لا تستطيع أن تخرج من خصوصيتها إلى العموم . إن قلب الواحدة منكن يندق عطفاً ومرثية للألم الفردى ، ولكنه يعجز عن أن يجعل عطفه أو إحساسه على العموم عميقاً شاملاً لآلام الحياة . . . » .

فابتسمت وهزت رأسها وقالت بلهجة مبطنة بالسخر :

— صبدقنى أنى أعطف عليك .

فقال ، ولم يلتفت إلى سخرها :

— إن الجنس الإنسانى معناه فيما تعلم المرأة هذا الطفل المعين أو هذا الرجل المعين الذى أبصرته واقفاً إلى جانب الباب ينتظر فى البرد أو تحت الشمس مثلاً . إن المرأة عاجزة عن الإحساس بالآلام العامة ، عمية لا تستطيع أن تراها . هذه هى الدنيا نصف عمية نصف مستوحشة تصرخ شرقاً وغرباً وقد أجنها الألم والخطيئة أيضاً . فهل ثم امرأة واحدة يشحب وجهها إذ ترى هذا الممر العالمى يهز قفصه ؟ هل تكف واحدة منكن عن نظم العقود وتطريز الثياب من فرط إحساسها « بجملتها » هذا الألم العالمى ؟ أرى دمة واحدة أراقتها امرأة — كما أراقت كورديليا عبراتها — لأن الدنيا جنت ؟ ليس من بينكن من ترى أن تبكى من أجل هذا على كثرة دموعكن وسهولة أسبابها . إنكن لا تبيكين إلا لما تعرفن وأنتن معدورات : طفل مريض تلمسه المرأة بأصابعها فتحس مابه من

الحصى فتنهر الدموع ! ولكن مليوناً يمرضون ! آه هذا شيء آخر
ولأولى أن ينتظر المرء منكن أن تهكين من أجل الكسور العشرية أو
المركبة ، أنكن لاتفهم الدنيا باعتبارها وحدة وكلا ، ومن أجل هذا لاتتأثر
بكن هذه الدنيا لأن الوحدة منكن لاتقدر أن تنسرب في المجموع وتنفى
في الجماعة . نجد فيكن الأم الرؤوم والزوجة الوفية الكاملة ، وقد نرى
فيكن الولية والقديسة ، ولكننا لن نفوز منكن بنبي أو رسول الا حتى ولا
بشاعرة .

وأمسك بعد هذه الخطبة الطويلة ، وعجب لنفسه الذي ساعفه على
كل هذا الكلام ، واضطجع وأطبق شفتيه .
ولم تجبه شوشو بشيء بل نهضت وأخلقت الباب ورامها .

— ٢ —

استيقظ إبراهيم على صوت بقرة ، فدفع يده تحت الوسادة وتناول
الساعة فألفاها الثالثة صباحاً ، فعاد فأغمض عينيه وفي ظنه أن البقرة ستكف
عن هذا الصخب الذي جاء قبل أوانه ، ولكن البقرة على ما يظهر كانت
تعتقد أن الليل قد انحسر وأن الصبح قد أسفر ، فوثب عن السرير الى
النافذة فإذا السماء صافية والقمر مضيء ففتحتها وأطل برأسه فرأى البقرة
الى جانب الباب وقد مطت عنقها ورفعت عينها الى السماء ، ولم يكن
يعرف البقر الا مجازاً ، ولا كان له بهذا الضرب من المخلاق عهد
فجعل يصيح بها « هـش . هـش » ، ويوهمها أنه سيقذفها بشيء ، غير أن صيحاته
وحركاته وإشاراته كانت تنعشها كأنما سرها ان تعرف أن لأصواتها مستمعا
كما يشجع المغنى أن يرى الطرب يهيج السامعيه . فلما رأى ذلك توهم
أن ظهوره لها هو الذي يشجعها وأنها خليقة أن تثوب الى السكينة وأن
تتبط همتها إذا انصرف عنها ، فاغلق النافذة وتحير أن يحدث في إغلاقها
من الضجيج أكثر مما تدعو إليه الحاجة ليلدأ بالاهمال شأنها . وكأنما حسبت البقرة

أن احتجابه عنها كان داعيه أنها قصرت في الأداء ، وأن التعبير كان ضعيفاً
وأن الإحساس فيه فاتر ، فاطلقت عليه أقوى أصواتها ، وكانت جفونه قد
كاد يطبقها النعاس فأطارته هذه الصيحات المتلاحقة وكادت تطير بلبه معها ،
فجر نفسه إلى الكنية وانطرح عليها وأشعل سيجارة ومضى يفكر على هذا
النحو .

« النوم قد جفائي ولا سبيل إليه الآن ما دامت هذه البقرة قد شاعت أن
تعد الصباح قد طلع . والجلسة هنا - إلى صباح الآدميين لا صباح البقر - كلفة
شاقة . وإذا كان الحظ قد رمى بي إلى هذا الريف الذى يبكر ناسه
في النوم وتبكر أبقاره في اليقظة ، فالرأى أن أخرج إلى هذه
الحديقة التى أفسدتها البقرة وأن أنتظر فيها الفجر لعله يوحى إلى بعض
معانيه » .

ولما انتهى إلى هذا الرأى أسرع فلبس معطفه وحذاءه وأخرج من
الحديقة مذكرته وقلمه وفتح الباب ونخرج وأغلقه خلفه ولكن من
أين ؟ .

وكانت البقرة تواصل الصخب فأراد أن يسرع ليدركها ويثأر
منها . غير أن الاهتداء إلى باب السلم المؤدى إلى الحديقة استغرق من الوقت
وكلفه من المتاعب ما لم يكن يخطر له ببال . وكانت الغرف كلها موصدة
حتى غرفته ، والمكان مظلماً . وكان ظنه أن هذه الصالة فارغة
فإذا به يحسها مكتظة فقد كان ثم دلو ثقيل اصطدم به أكثر من عشر
مرات في لفه ودورانه حتى انتهى إلى وجوب حمله معه وهو « يطوف »
في أرجاء هذه الصالة التى أصارتها الظلمة لا أول لها يعرف ولا آخر لها
يوصف ، وراح يعزى نفسه عن حمل هذا الدلو الثقيل بأنه سيفضرب
البقرة به .

ولكن كيف يهتدى إلى الباب وهو لم يكده بخطوات في الصالة ويصطدم

بالدار لأول مرة حتى اختلط عليه الأمر ولم يعد يعرف شرقاً من غرب بل لم يعد يعرف أين باب غرفته هو ؟

ووقف برهة يفكر في المخرج من هذا التيه فهذا له أن الاشكال يحل بأن يلتبس الحائط ويسير على محاذاته فانه ان فعل ذلك لا يحال موفق إلى الباب ، ففعل بلا عناء يستحق الذكر وسار كما اعتزم . غير أن الواقع أنه بدأ بباب السلم وهو يحسبه باب غرفته وراح يمضي عنه لا إليه ، والتقى في طريقه بما لا يذكر أنه رآه في النهار أو في اللحظات القليلة التي اجتاز فيها هذه الصالة قاصداً إلى غرفته أو خارجاً منها ، وتعمّر بما حسبه « غابة » من القوارير حتى لم يجد معدى عن أن يتأى عن الحائط مرغماً ، وسار بضع خطوات فإذا به يلتقى بقوارير توهها غير الأولى فضحك وقال لنفسه لعل أرض المكان قد فرشت بالقوارير .

وصادف بعد ذلك برميلاً . نعم برميلاً فوقف يعجب ويتساءل هل قررت شوشو أن تقلب الصالة حانة خمار ؟

ومل هذه البراميل والقوارير فقال أترك الحائط وأرمي بنفسى في جوف الصالة وأدفع أول باب أباهه ، ألم يقل بشار « وفاز بالطيبات القاتك اللهج » ؟ فكان هذا فاتحة التوفيق . ذلك أنه وجد باباً لم يعن نفسه لفرط ضجره بالتساؤل عنه أى باب هو ؟ وعالجه فانفتح فإذا به باب سلم فصافح وجهه نسيم الليل المقرور وأعاد إليه اتساق خواطره فانحدر ولكنه لم يجد حديقة ما فوقف كالأبله !

وكان صوت البقرة لا يزال يصل إليه فلم يجد عسراً في فهم ما حدث . ذلك أنه لم يهتد إلى سلم الحديقة بل إلى سلم خلفى يقضى إلى فناء « الحرم » ، وبذلك صار الجناح الذى ينزل فيه بينه وبين البقرة فقال : « لا بأس وإن كانت البقرة قد نجت بجلدها » ووضع الدلو متقارباً وكان لا يزال معه وقعد عليه وأخرج القلم والمذكرة ليدون ما يخطر له .

ولم يخالجه شك في أن الشمس ستطلع لامحالة من الناحية التي
جلس ينظر إليها فقد أخذت السماء تصطبغ بلون قرمزي شيئا فشيئا
ولكنه لم يكتب شيئا ولم يخط حرفا لأن أحجام الشمس عن الطلوع
حيرة حتى خالجه شعور وقي بالخوف عليها وابتنس وهو يقول لنفسه :
« لولا ما تعلمته في المدرسة لحسبت الشمس قد غيرت رأسها وعدلت
عن الطلوع اليوم »

ثم نهض ونظر خلفه ولم يمنعه قيام البناء في وجهه أن يدرك أن الشمس
طلعت من ورائه !

وجلس وكتب في المذكرة هذه الملاحظات وهو يبتسم ويقول لعل
فيها فائدة لشوشو ! » .

- ديسمبر - في الريف . يظهر أن البقر أحسن بالفجر من الديكة
وأسرع إلى تحية الصباح من العصافير . وفي وسع من يعنيه ذلك أن
يقضى ليلة في الريف ويبكر في القيام قبل الفجر بساعة وبعض ساعة .
وليس في الريف ذلك السكون المزعوم فإنه إذا سكنت الطبيعة هاجت الأبقار
ويجب على من يبغى الراحة والنوم العميق في الريف أن يأخذ معه كمية
من الأسبرين أو الفيرامون تكفي له وللبقر عند الحاجة .

ولم يفتح الله عليه بأكثر من هذا أو أشبه منه بالمعانى الشعرية
ولم يدون شيئا من الخوارج أو الإحساسات لأنه كان في تلك الساعة
مجردا منها . وعلى أنه - كما قال لنفسه - ما حاجته إلى الإحساسات
التي قد يخطيء في تصويرها أو بوشيا بما يجعل ألوانها أزهى أو أقم ؟
أليست هناك مدرسة ترى أن يكون الوصف مطابقا للحقيقة عاريا من
زينة الخيال وحليه وتفويقه ؟ وهب لا مدرسة هناك فما ذنبه هو إذا
كانت شمس الريف قد أثبت إلا أن تطلع من ناحية غير مرقوبة ؟

ومن أين تأتي هذه الخيالات أو تنشأ الإحساسات ولا تفكير له إلا في البقرة التي هدت رأسه بأنغامها ، والدلو الذي شل ذراعيه جميعا على التوالي بثقله ؟

ومع ذلك لم ير أن يبخل على السماء بملاحظات تنفعه إذا حدثته نفسه أن يكون روائيا فيكتب :

« تبدو السماء قرمزية ثم تخضر لسبب ما ، ثم تصفر أو تبيض لسبب آخر غير واضح » .

وضحك وقال لنفسه فلنشبهها بشيء ! أليس التشبيه ضروريا في كل كلام شعري ولو لتقريب الصورة التي يراد أداؤها ؟ ولكن من أين يجيء لها بمشبه وهي لا تثبت على لون ؟ وماذا تقول شوشو إذا اطلعت على هذه العبارات ... شوشو ؟ لقد خطرت له شوشو مرتين في نصف ساعة ؟ ولكن لا عجب ، فما يقضى معظم وقته إلا معها ولا يملأ جوه سواها إلى الآن .

وعاد إلى التشبيه اللائق بهذا الجانب من السماء الذي احمر ثم اخضر ثم اصفر ، وبينما كان جادا في البحث عنه ، خرجت فاطمة الزنجية من باب الحريم ولم تكدر تراه - وهولاه عنها - حتى انكفأت راجعة وعادت بأهل البيت جميعاً كبارا وصغارا وسادة وخدما وفي طليعتهم نجية وشوشو وأقبلوا عليه جميعاً يسألونه في وقت واحد عما به ؟ وما جاء به إلى هنا ؟ وفيم الجلوس على هذا السدلو ؟ وماذا يصنع بالقلم والكتاب في يده ؟ وهل هذه عادته في مصر ؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي قعد ينتظر آخرها على غير جدوى ، وهو ينقل عينه من وجهه إلى وجه تبعاً لمصادر الأسئلة حتى كاد ييأس .

ولما أعياه أن يجد فرصة للكلام وسط هذا اللغط المتصل نهض عن الدلو في صمت ومضى إلى غرفته وأوصد بابها وراءه وانطرح على السرير بما عليه من ثياب وهو يقول :

« لماذا لم أنم ؟ سأنام حولا كاملا متى عدت إلى القاهرة ! ماذا كنت أصنع ؟ لقد كنت أريد أن أنحرس هذه البقرة التي أزعجتني كما لم تزعجني سيارات القاهرة وأبواقها وترامها وصياح البائعين فيها . ذلك كله هناك غير مستغرب وأعصاب المرء مستعدة له بسبق التوقع وبالعادة . ولكن هذا . هنا حيث يقولون إن السكون سابع والهدوء مطبق محيط ، والمرء لا يتوقع شيئا من الضوضاء ، والأعصاب متفترة مسترخية من الاطمئنان والأمن ، تكفى بقرة واحدة لإطارة العقل » .

وأخذ النوم وهو يحدث نفسه بالرحيل .

الفصل العاشر

« العين لا تشبع من النظر والاذن لا تمتلئ من السمع »

لم يطل نوم إبراهيم . ذلك أن الكرى كان قد عقد أجفانه قبل أن يتغطى فلم يلبث أن ابترد فاستيقظ وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة بدقائق ، فقام ونظر من زجاج النافذة إلى الشمس المشرقة على الحديقة والحقول ورأىها ، ففتحها فتضوع إليه ربا الخضرة المطلولة والأزهار الندية دافئة تحت الشمس . وكان واسع الاطلاع ملما بأساطير القدماء وما نسج خيالهم حول الطبيعة . ولكنه نسي ذلك كله لما صار وحده مع السماء والأرض وهما أوسع وأشد تنوعا من أن توائهما الخيالات المسطورة في الكتب . وأحس في هذه اللحظة حينئذ — لا إلى شيء معين — وغبطة تشيع في كيانه كله ، وظما خيل إليه أنه ما من شيء يمكن أن يطفئه ويفثا غلته . فمال بذراعيه على النافذة وأبرز وجهه للشمس وحنق في السحب البيضاء تتفرق وتتجمع وتسبح في بطن . وخطر له وعجب هو لنشوء هذا الخاطر — إن من الخطأ أن تمنع الطبيعة بالقسوة . كلا ليس في الطبيعة قسوة حقيقية . إنها حارة حية . ولا تكاد تتفق الحرارة والقسوة . وإذا كان بعض ما فيها يسطر على البعض الآخر ويأكله أو يلتهمه أو يأبى عليه فما قيمة هذا ؟ إن كل شيء يحيا وإذا كان يموت فلأنما هذا ليعين غيره على الحياة . وأين يا ترى قرأ أن الكون قنأن لا يزال يعبر عن نفسه بظهور مختلفة ؟ لا يذكر أين قرأ هذا ، ولكنه يذكر أيضا أن الكاتب قال — أم ترى هو صاحب هذا الخاطر ؟ — إن هذا الفنان الأعظم لا يزال يخفق فيما يحاول أن يبدعه ويخلده من خارجياته ، على أن العالم بل العوالم كلها صغيرها وكبيرها مثلنا ومثل الأزهار والأشجار ليست سوى قطع شتى من هذا الفن ، وكل منها تام في ذاته كامل من حيث هو . وكل حياة تجري إلى مداها ثم تراق

وترد إلى هذا الفنان المبدع الذى لا ينفك يحاول ضروبا جديدة من الفن .
العقل والمادة شيء واحد . ومن يدري ؟ فلعله ليس لا عقل ولا مادة وعسى
أن لا يكون هناك إلا نمو وذبول ثم نمو جديد وذوى وهكذا إلى ما لا نهاية :
فنان لا يفتأ يعبر عن نفسه فى ملايين وملايين من الصور المتغيرة والذبول
والموت - أو ما نسميهما كذلك - إنما هما راحة ونوم أو هذا هو الجزر
الذى يجىء بين مدين ، أو الليل الذى يفصل نهارين والنهار الذى يطلع
لا يشبه الذى سبقه فى شيء ، ولا المدة كالمدة التى كان قبله . هذه الصور التى نراها
فى الدنيا وفى أنفسنا ، هذه القمم الفنية التى يخرجها الفنان الأعظم لا تعود
ولا تبقى على حال واحد ولا تلتزم شكلا معينا . بل هى دائما جديدة .
عوالم جديدة وآحاد وأفراد جديدة وأزاهر طريفة . وليس فى هذا
ما يكرب النفس . كلا إنما يكرب النفس أن تعلم أنها ستظل حية أبدا
حتى بعد ما يسمى الموت . أو أنها ستجىء مرة أخرى فى جسم آخر
فلا أنا ، ولا أنا مخلوق آخر . إن هذا يكون ماذا ؟ فساد ذوق ؟
هبنى كتيبت مقالا أو وضعت قصة أو نظمت قصيدة ، فهل أستطيع أن
أتصور أن مقالتي تصبح مقالة أخرى أو قصيدتي تنقلب قصيدة ثانية ؟
وهل فى وسعى أو وسع سواى أن يفصل ما بين العبارة التى صيبت فيها
المقالة أو القصة أو القصيدة ، والمادة الذهبية التى أعربت عنها بهذه
الألفاظ ؟ كلا . وكما أنى أنا الفنان الأصغر لا أزال أصوغ كل يوم جديدا
كذلك الفنان الأعظم لا يزال يخرج من القديم جديدا ومن التالذ طريفا
كالنافورة تقلب الماء خيطا من القطرات لا تشبه منها واحدة أختها وتقع
هذه القطرات فى الحوض وتعود أدراجها من الأنابيب إلى النافورة فتقلبها
قطرات جديدة مصوغة فى أشكال وحجوم غير الأولى .

ثم تنهد وقال لنفسه : « ولكنى لا أستطيع أن أفهم أو أدرك لماذا
تظل هذه القوة الأبدية منهكة فى الإعراب عن نفسها فى صور فردية
شئ لا آخر لتتوهمها ؟ لماذا لا تكف ولا تنقطع عن العمل ولا بصير كل

شيء إلى « لا شيء » ؟ ظلام أبدى شامل ! وباليك من يدري أيهما
الثان لا ثالث لهما : أن يظل هذا الفنان يعمل ويخرج ويبدع كما هو
فاعل أو أن لا يكون ثم شيء على الإطلاق ؟ وهل من الاتفاق المحض أن يحدث
هذا ولم يحدث ذلك ؟ .

وسكت وصدق بعينيهِ الواسعتين في الفضاء كأنما ينبغي أن يرى شيئا هناك
وراء كل منظور . ثم هز كتفيه وقال وهو يمشي إلى « الكنبه » :
— كل هذا جميل . ولكن هل بنا حاجة إلى التفكير ؟ هذه الدنيا أمامنا ،
وأحسب أن كل ما بنا حاجة إليه هو أن نتناولها كما هي وأن نقنع بذلك .
وهم بالجلوس فسمع نقرا على الباب ففتحته وطالعه وجه شوشو ، كأنه
— أي وجهها — في حلم ، وأحس وهو يصفحها كأن جرحها جوا من الماضي
والمستقبل ، وذلك ما لا عهد له به فسأله :
— ماذا كنت تصنع ؟

— لا شيء . . .
ولكن وجهه مال إلى النافذة ، فقالت :
— أكنت تسخط على هذه الطبيعة التي لا تثبت على حال ؟
ألا ترى معي أنها كالطفل ، تكون عابسه باكية ثم إذا هي تضحك
لغير سبب مفهوم ؟ إن تناقضها أو اضطرابها كثيرا ما يحيرني ؟ وكم تمنيت
لو أني أستطيع أن ألزمها الحالة التي يتفق أن تروقني — إلى أن بتغير مزاجي
على الأقل .

فعجب أن يجيء أول ما يجري بخاطرهما بسبيل مما كان هو يفكر فيه ،
ولكنه كتم هذا — وأن لم تكتمه عيناه — وقال عجيبا على كلامها :
— كلا يا شوشو . أنا لا أحس بالرغبة في إلزام الطبيعة حالة ما أو بعبارة
أخرى لا أتمنى أن أفرض عليها مزاجي الخاص أو أي مزاج معين ، ولعل
ذلك لأن تنوع الأمزجة وتعدد الحالات التي تكون عليها الطبيعة في جميع
مظاهرها — هو مصدر السرور الذي أفيده منها ، بل هو الذي يرجع

إليه ويقوم عليه ليعانى بالحياة . ولولا هذا التنوع لما بقى ثم شيء اسمه الحياة .

فافترت عن ابتسامة إعجاب وقالت :

— ذلك لأنك أديب . لأنك إبراهيم الكاتب !

قال : نعم . أحسب الأمر كذلك . وإن كنت لا أرى أن كونى كاتباً هو السبب فى ذلك . كلا . إن طبيعة الفنان أو روحه ترتاح إلى التغيير . فأنا أجل هذه الجدة التى أراها كل صباح يطلع وكل مساء يخبى . وفى كل شخص . وفى كل مظهر من المظاهر التى تعبر بها الحياة عن نفسها . أرتاح لأنى لا أرى شيئاً نهائياً . ولما كان التغيير دائماً فلا أراى أشيع من النظر والتأمل والتفكير أحب كل شيء : ما كان وما هو كائن وما سيكون . . أحب حتى . الموت .

وسكت ، وساد سكون عميق ، ثم رفع إليها عينيه وقال :

— وأنت يا شوشو ؟ وما رأيك !

وكانت جالسة وعينها إلى النافذة ، فالتفتت إليه كأنما أيقظها صوته من حلم ، والتفت عيونهما ، وقالت :

— أنا ؟ لا أدري ! لى لم أكن مصغية .

فاضطرب شيء فى صدره ونفق قلبه خفقة عطف مضطرب وشعر كأن بها حاجة إلى حمايته ، واستغرب من نفسه هذا الإحساس الذى لا مثير له ولا موجب لنشوته فابتسم وقال :

— ألم أقل لك إن المرأة يعجزها أن يكون إحساسها شاملاً ونظرتها جامعة وروحها واسعة محيطة ؟

ورآها مصغية إليه فضى فى كلامه :

— أنا مثلاً — ولست أعنى نفسى على وجه الخصوص ، ولكنى أعنى الرجل على العموم — أستطيع أن أفتح قلبى للطبيعة كلها بكل ما اشتملت عليه وأن أغمر كل مظاهرها بحبى ، حتى هذا المنكبوت الذى يخيفنى فى العادة

والذى أكره أن أرى نسجه في زوايا النافذة أو أركان الغرفة ، يفيض قلبي له ويتفتح . ولكن المرأة شيء آخر . لم ترزق هذه السعة الروحية . نعم قد تحس أحيانا بشوق إلى أن تضم الكون كله بين ذراعيها . ولكن هذا لماذا ؟ لأنها تحب إنسانا معيناً لا ترى سواه ولا تحس إلاه والكون كله مختزل في شخصه . وليس لشيء وجود منفصل عنه فهي إذا أحببت الطبيعة فإنما تحب فيها هذا الرجل الذى يملأ دنياها ويستغرق عالمها .
فأرخت شوشو عينها هنية ثم رفعتها إليه وقالت :

— وإذا كان الرجل هو الذى يجب ؟ إذا كنت أنت مثلاً هذا الرجل . فاضطرب وتدافعت العواطف في صدره ، وأحس الندم يعض قلبه وخيل إليه كأنه يرى وجه زوجته التى ماتت منذ سنوات ، يطالعه من ظلمة الماضي الدفين ويلومه ويتهمه ، يتهمه ؟ لماذا ؟ وكأنه يسمع صوتها يقول معنفا : « كيف يمكن أن تحب مارى ؟ » وغاب الوجه واستسر ولم يبق إلا شوشو تنظر إليه بعينين تحلمان ، وابتسامة فيها شيء من المرارة ، ووجه ماذا جرى له ؟ أين ذهب إشراقه ؟ ماذا فعل الله بصباحته ؟ إن هذه الفتاة عجيبة ! وهامى ذى تومض عينها إيماضة خبيثة كأنما يسرها ماتقرأه في وجهه من الاضطراب ! مالعينا متعلقة بعينه ؟ أهى ناظرة إليه ؟ كلا ! إنها كالتي ترى شيئا هو أحلى وأعذب من كل حقيقة منظورة .
وتهن وقال :

— أى سؤال هذا يا شوشو ؟

فنهضت مثله وقالت :

— أهو سؤال غريب غير جائز ؟

وكان يمشى في الغرفة فلم يفتح الله عليه بخير من :

— كلا . لا غرابة . إلى جائع جدا ولست آتيا هنا لأصوم .

فانفجرت ضاحكة وقالت :

— ألا تزال ملتحفا بكبرياؤك ؟

فلم يلتفت إلى هذا ودنا منها ووضع يمينه على كتفها وقال :
- اسمعي يا شوشو : لقد قضيت هنا ليلتين ولم أجاوز عتبة الباب
إلا دقائق أمس . فما العمل ؟ لست أراى مأطيق هذا الحبس فقولى لى أين
أذهب . ولكن بالله عليك لا تقلنى فى فى وسط جحافل من أجلاف
الريف . . .

فتكلفت الجلد وقالت :

- هل تستطيع أن تخرج وتسير فى هذه الأوحال ؟
فقال :

- قبح الله الريف ! ألا شىء غير الجلوس فى هذه الحجره ؟
فالت :

- أبللنا جدا ؟ وبهذه السرعة ؟

فأسرع يؤكد لها إن الأمر على العكس ، وإنه لم يضجره الا الحبس وأن
بوده لو استطاع أن يخرج معها إلى الحقول ، فصغقت وصاحت به وقد
اضطرم نغداها :

- ما أحلى هذا ! أوده من كل قلبى .

- ولكن كيف يمكن ؟

- أوه . سأجد الوسيلة . دع هذا لى .
وخرجت لتجيئته بالاعلام .

الفصل الحادى عشر

« حبيبى مد يده من الكوة ، فانت عليه احشائى »

ما معنى هذا ؟

حار إبراهيم فى تفسير خواجه وما جاش به صدره وهو جالس مع شوشو . ولم يكن ما قرأه فى أسارير وجهها وعينها العميقتين أقل تحميرا له ، فلم يطق الجلوس فى الغرفة وانتظار الطعام ، وخشى أن تجيئه به تلك الزنجية اللامعة كالقحمة ، وكره أن يرى وجهها بعسد شوشو ، واختلج فى قلبه شيء من العطف عليها من أجل هذا الكره الذى يحسه لها ، وكأنما أراد أن يهرب من نفسه ويتجنب أن يواجه ما تضطرب به . فأسرع فالتحدر من السلامك إلى الفضاء الذى أمامه وتذكر وهو يهبط السلم كيف تركته شوشو بين ثلاثة كلاب ضارية فابتسم وهو يقول : « تالله ما أظرفها ! إن معين حيلها لا ينضب ثم تجهم إذ رأى نفسه يكر إلى ذكر شوشو ويدعها تستولى على خواطره فأسرع فى المشى ولم يلتق بأحد ، فقال إلى الحديقة غير عابئ بالأحوال التى تراكمت على حدائيه ، وقال يحدث نفسه وهو يقتلع رجليه واحدة بعد الأخرى من الأحوال « أما لو أن الأرض جافة ! إذن لا استطعت أن أمشى قليلا وأن أفنى بالمشى هذه الإحساسات الجديدة وأنفقها فيه وأحيلها عرقا يتصبب » .

ورأى رجلا جالسا على حجر فى آخر الحديقة ، فضى إليه فالتفاه شيخا هراما فى يده العصا ، ونهض الرجل متوكئا على عضاه ورفع له يده بالسلام . وراق إبراهيم وجهه المغضن كالخصير وشارباه المتهدلان كأنما كلت شعراتهما وفترت ، فحياة ووقف صامتا لا يدري ماذا يقول ، وأحسن كأن بينهما جونا يتماظم المجتاز ، واشتاق أن يفتح قلبه لهذا

الشيخ المهتم الضيق العينين المتدلى الشاربين المتوكيء على العصا الذي اجتاز
أدغال الحياة كلها وشق طريقه بين أشواكها وتمنى لو يفتح له هذا الشيخ
قلبه ، فيقول ههنا بشجوه مرة وذلك بشجوه مرة ولكنه لم يجد
الكلام حاضرا ولم يدرك كيف يحمره إلى التحدث عن نفسه ، فاكثى
بأن يقول :

— من أبناء القرية ؟

وسخر من نفسه إذ قال ذلك . من أبناء القرية ؟ أنه من جدودها بل
جدها الأعلى فيما يعلم !

وقال الرجل بصوت حاد كأنه الصغير « أيوه » ووقف ينتظر السؤال
الثاني فقال إبراهيم : « أنا من مصر » كأنما أحب أن يبادله التعريف ويشعره
أنهما ندان .

فقال الرجل : « ماشفتهاش يا أفندى » .

فقال إبراهيم : « لم تحسر شيئا » .

ولمعت عين الرجل وهو يحجب الشمس بكفه ويقول :

— بيحولوا أنها جميلة . ماشفتهاش يا ابنى .

— ليست أجمل من قريرتكم .

وسر الرجل هذا الثناء على قريرته وبدأ الارتياح في هزات رأسه وقى

ازدياد عمق الأخاديد التي حفرها الزمن في وجهه وهو يتنسم وقال :

— بلدنا ؟ الشبان ما يعرفوهاش يا أفندى . يرحلوا ويجعلوا في البنادرة

يبعثهم المدارس يجهزوا ما يطيجوش البلد قانى . بيعلموا الصحة حداك
والمال كمان .

وتحمس فذق الأرض بالعصى وقال : « بحالى سبعين سنة عايش فى

الأرض ما هجرتها يوم . وأروح فىن ؟ » .

وابتسم ووقع كلامه من قلب إبراهيم فقال :

— وهل كل الفلاحين مثلك ؟

— أيوه . زي؟ لع ! ما حد زي ؟ شبان الزمان ده كيف يبجوا زي؟
ما طييح أفوت ريحة الأرض .
وضحك الرجل أو على الأصبع انفرجت شفتاه عن فمه الذى عاد أدرد
كالكهف الخاوى وقال :

— إنه زى البجر اللي تهزل وتهبط لما يتغير المرعى .
ثم رفع يده التى فيها العصا وقال مشيراً إلى نوافذ السلاملك :
— بينادم عليك يا افندى .

فتركه إبراهيم أسفا ولم يتحول إلى السلم بل قصد إلى نافذة غرفته مخترقاً
إليها الخديقة ، وطاف برأسه العجب من أن تأمر الأرض رجلاً كهذا ،
وتقيده إليها سبعين حجة ، ما أقوى هذه الأرض التى لا يعود رجل مثله
يطيق فراقها أو حرمان رائحتها ! وأدار عيليه فى الخديقة وهو سائر لا يلتفت
إلى شوشو التى كانت تشور له أن يرتد ويتحول ، ورمى طرفه إلى المساحات
المترامية وراء السور ، ثم رده إلى جمال الغصون وسحر الألوان إذ تحقق
الأفنان فى ضوء الشمس . فلم يجد عجباً أن يتلفح حب هذه الأرض فى
عروق أبنائها ويمجى مع دمائهم ، وهم الذين يفلحونها ويتعهدونها بما
يزيدها خصباً ويرصدون لها عيونهم وقلوبهم حتى يعودوا من فرط ألفها
لا يطيقون أن يبرحوها وأن تخطىء لحاظهم غضايرتها ونضارتها وخضرتها
الندية وشمسها الدافقة الحرارة وجوها الطليق ونسيمها العطر ، ومطرها
المنهمر وسحبها المتكاثفة طبقات بعضها فوق بعض ، وماشيتها ، وكل ما حفلت
به من حيوانات صغيرة وكبيرة لها كل ساعة بل كل لحظة تجديد .
وصار تحت النافذة فأوماً لشوشو وقال :

— من هنا . أطمعنى من هنا .

فابتسمت . ما أحلى وجهها وأعمق عينيها ! لم يرها قط أصبح ولا أبجل
منها اليوم . وكانت عينها تنقل من الطعام إلى الأرض ثم قالت :
— ولكن كيف أستطيع ؟ تعال إلى . هذا أحسن .

فهز رأسه مصرا وأعلن إليها اكتفائه بلقمة وقطعة من الجبن أو بضع
زيتونات ، واهتركيانه سرورا بتناول الطعام على هذه الطريقة . وراق
خيااله أن تلقى إليه شوشو باللقمة بعد الأخرى ، وأن يتلقف ما تلقى ، بل
أن تفلت اللقمة وتخطئها كفه وتقع فيلتقطها ويلتهمها بكل ما يعلق بها ،
ولكن شوشو كانت تبهم أن تلقى إليه برغيف كامل حشته ما لا يعرف
فصاح بها :

— لا لا . لقمة لقمة . من فضلك .

فرمت إليه نظرة دل واعتباط ، وضحكت وراحت تطعمه على نحو
ما أراد وهو يشعر بالحاجة إلى التوثب والقفز ، ولا يكاد يطيق الوقوف
على قدميه . وكانت ربما أوهنته أنها ملقية إليه باللقمة فيمد كفيه ليلتهاها
فتخيب أمله ، فيضحكان ويكون هذا أحلى وأمتع .
ولما أصاب كفايته من الطعام ، قال لها :

— ليس في الخديقة أحد غير هذا الشيخ الهرم ، فانزلى إلى .

فانظرت إليه مفكرة ، ثم حنت على النافذة وأطلت بوجهها وصدرها
وتلفت ، وكأنما اطمأنت فقالت :

من هنا ؟ أتلقفني إذا هبطت إليك ؟

فصاح يردّها وقد خاف أن تجاوزف :

— كلا . تعالى من السلم الآخر .

ومضى ليسبقها إلى المدخل ويستقبلها عنده . ولم تلبث أن جاءت
تعدو فخشى أن تزل قدمها في الزحاليق ، فدفع ذراعيه ليقبها العثور وهي
تجري مقبلة ، فإذا بها ترتمى بينهما ، فكاد يقع بها ولكنه كان قريبا من الحائط
فاعتمد عليه بكتفه ، ولو كان الأمر إلى شعوره وإلى ما يشئ به سكونها
بين ذراعيه من الرغبة في البقاء ، لظل يحتضنها . ولكنها كانت شوشو—
بنت خالته وصديقتها الصغيرة التي كم داعبها وهي طفلة ، وخرج بها
للرياضة والترهة ، وكم ركبت ظهره وزحف بها على البساط ! وكم

دفعت كفها الصغير في جيوبه باحثه عن الشكولاتة والحلوى واللعب الدقيقة التي اعتاد أن يشتريها لها ويبتقيها معه حتى تنأح. له فرصة يقدمها إليها فيها من غير أن ترى أختها الأخرى ! وكم تسللت إلى سريره وراحت تمسح له وجهه وهو نائم بيدها اللينة الدقيقة الأصابع ، حتى يفتح عينيه ويتأهب ، فتلثم أقرب ما يكون إليها منه ، وكثيرا ما قبلت اللحاف ، ثم تضحك فيبتسم ويعجب كيف لا يغضبه منها إزعاجها له وإيقاظه ، وتشد ذراعه وقد تجر رجله لينزل عن السرير ويلاعبها .

طافت برأسه هذه الصور ومثات غيرها من أيام طفولتها فأحمر وجهه ، وأنكر من نفسه أن يتركها بين ذراعيه ، ولكنها كانت كالعصفور وجد وكره وإطمأن إلى حشه ، فلم يجد في قلبه من جفوة الطبع وقسوة النفس ما يشجعه على أن يدفعها بغير مراعاة لها أو اكتراث لإحساسها . فمسح شعرها بكفه — ايه ما أنعمه وأبدعه متوهجا في ضوء الشمس ! وهمس في أذنها « شوشو » فرفعت إليه عينها في فتور كأنما كانت تحلم فربت لها على كتفها وقال : « هلم بنا » : فاعتمدت على كتفها — وكانتا على كتفيه — وجملت نفسها في ثناقل وبطء وبجهد واضح .

الفصل الثانى عشر

(فى الليل على فراشى طالبت من تحبه نفسى - طلبته فما وجدته)

لم يغمض لشوشو جفن فى تلك الليلة ، وإن كانت - على خلاف عادتها - قد بكرت فى الذهاب إلى مخدعها ، وتركت أختها نجية وحدها مع طفلها ، وزعمت أن جفونها مثقلة ، وجعلت تئنأب وتهوم وتتناوم حتى قالت لها نجية :

- قومى يا حبيبتى . لا تتحامل على نفسك .

وكانت الأشجار ترى فى ضوء نافذة غرفتها . وأكثرها قد ذهب مع الربيع رونقه ، ولكن بعضها ، وأدناها إلى النافذة كان مورقا رفاقا منورا ، وكان ضوء القمر ينفذ إلى الأوراق الخضراء ، ويومض فى صمغاتها كأنه قطرات لامعة من الفضة . واستراحت الأطياف والضفادع إلى سكون الليل وسهوم القمر ، فانطلقت هذه تنفق وتلك تصدح أو تصفر ، وودت شوشو فى هذه الساعة لو أنها كانت عصفورا يذهب إلى حيث يشاء ويخلق فى الجو ، ويسبح فى الفضاء ، ويبصر وهو ناشر جناحيه كل ما بين الأرض والسماء - عصفورا ينحدر على شعاع من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر - عصفورا يرفع منقاره وهو طائر ويتلقى فى فمه اللدقيق قطرة من المطر - عصفورا يحط على أعلى فن فى أسمى شجرة ، أو بهوى إلى الأرض ويخطو بين أغصان البرسيم فتحجبه ، ويضع بيضه الصغير فى حيث يروقه أن يؤلف حشه ، ويمد منقاره إلى الماء حيث يجده ويمص قطرة ويتلفت - عصفورا لا يغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ولا يكون فى رأى العين مع ذلك إلا جميلا . آه إنه روح الكون ولا شك فى العصافير والسحب - سابعة تجوب الآفاق وفى

الأزهار والأشجار التي لا تكون إلا عطرة ولا تبلى إلا حالية مؤقتة ولا يعتورها
علق ولا يساورها اضطراب . آه ! لماذا تقلق النفس ؟ لأي شيء تطلب ما ليس
في اليد وتريد أن تحس وأن تعلم وتبني أن تحب وأن تحب ؟؟

ولما بلغ بها التفكير هذا المدى اعتمدت بكوعها على النافذة واتخذت من
كضها كأساً لذقتها . لقد تغيرت الدنيا كلها في يومين اثنين ، لا بل في يوم
واحد . نعم كانت تحب إبراهيم من قبل كما كان يمكن أن تحب أخاها لو أن
لها أخاً ، غير أنها لم تكن تحس بمثل هذا الحنين إليه . ولا كانت تصبو
إلى مشاطرة كل شيء بل إلى أن تهيه وتمنحه نفسها وتسليه وتحميه وتفوز منه
بالروح والراحة - الراحة في أي شيء ؟ أهذا هو الحب الذي تصفه القصص
الفرنسية التي قرأت منها عشرات وعشرات ؟ كلا ! تلك حكايات لفقها
الخيال النشيط ، ومن أين لكتاب تلك القصص المزورة أن يعرفوا كيف
يثب القلب إلى الخلق وتضطرم النفس وتعود كالبركان الذي يوشك أن
ينفجر ويقذف بالحمم ؟ أيكون الحب طاعياً عنيفاً كما تجده هي ؟ وبأليت
من يندى كيف صارت تخجل الآن ، وتشعر النار تندلع في وجنتها
وبالدموع كأنها ستطفر من عينيها كلما رأتها بعد أن طما في نفسها هذا العباب
الزاهر وهي بين ذراعيه عند باب الحديقة ! أن لهذا الحب ووعة ليست
لسواه .

وابراهيم ؟ إنه وعر مر النفس - لماذا ياترى ؟ ألا تستطيع أن تستدرجه
حتى يكشفها بما تنطوى عليه أضالعه لتحيط خبراً بدواحي هذه المראה ؟
ولكنه حتى كثير الجهامة ، وإن كان من واجبي أن أعترف أنه ظريف
الدعابة مليح الفكاهة حين تسلس نفسه ويصفو أفقه ، وآه من عينه على رقبتها !
لم تر شوشو أبداً منها ولا أنفد ، هي حين تأخذ كل ما دق وجل مما يقع تحتها
فليس يفوتها شيء حتى ما هو مغيب في الصدور . وبأما كان أحلاها هنية على
تصرها ، وأنا بين ذراعيه ورأسى على كتفه ! وما كان أرقه وأحناء وهو
ينحنى عنه وقد تصلبت عضلات وجهه حتى صار كالدمية المنحوتة من الصخر

والورود البيضاء ترف في حوضها كأنها مصوغة من ذوب أشعة القمر ،
والأفنان تهتر وتترنج فوق رأسينا ولأوراقها حفيف مطرب ، والسما تبدو
من خلالها شتى الشكول ، وندى الصباح على وجهينا ، والسكون واسع عظيم
وكان الدنيا كلها في صلاة وتسبيح ، وقلبي مثلها يسبح بحمد الله . لقد كنت
سعيدة ، وأظنه هو أيضاً كان سعيداً على الرغم مما كان في وجهه . ما أشد
سحر هذا الحب الذي يجعل الدنيا ويفيض عليها من الفتنة ما لم يكن لها ،
ويحيلها كاللحم اللين لابل كالصوت الجميل . . كالنغمة العذبة . . كالغناء
الملائكي . لكان روحى هائمة مع روجه الآن . . لم تعد روحى في بدنى
فليتها تظل معه هائمة ، فما أريد أن ترتد إلى جسمى . . لست أبغى أكثر من
هذا . أبدا . أبدا ! أيتها الغبطة ، نشدتك الحب إلا ما بقيت معى !
لا تنفضى . . لا تذهبي عنى !

ولكنه يفرغنى . مباحات عقله تخيفنى ووثبات خياله ترعبنى فأنضام
وأنضام ، أحس كأنى لم أعد شيئاً ! ما أقساه حين يفتح عينيه كأنما يريد
أن يلتهم بهما الدنيا . ويروح يتكلم كأن ليس معه أحد . لا يحسنى في تلك
اللحظات ولا أظنه يرانى ، ويحيل إلى أنه يبصر ما ورائى من خلال
بدنى . . وانتفضت كأنما سرت في جسمها رصدة فلفت شملة الصوف
التي كانت على كتفها وجمعت أطرافها على يديها فوق صدرها
ومضت إلى السرير ، وقعدت وقنهدت ، وقد طاف برأسها أن هناك سرّاً
هو علة هذه الأطوار الغريبة من إبراهيم ، فإن له ساعات يطول فيها وجوهه
فلا تتحرك حتى شفتاه وأحياناً يتفجر غاضباً بما لا تكاد تفهمه فيحبرها
ويروعه ، وطوراً تنبسط نفسه إلى الحياة والدنيا وتهش روجه فلا يكاد
يطيق جسمه ، وطوراً آخر يضحك ويلعب كأنه جديد في الدنيا لا يعرف
إلا صفحتها المشرقة ، ليس كل هذا عفواً ! ترى ماذا يجيش في صدره هذا ؟

ألا يمكن أن أعلم؟ كلا ! لا أمل . فإنه كتوم ، كتوم متكبر كما يقول ، يعد الإفضاء بما في نفسه ضرباً من الشكوى . وكل شكوى عنده ضعف لا يليق بالرجل . والأسفاه . لن أعرف أيجبني كما أحبه ؟ لن أسمع اللغة التي أود لو يخاطبني بها . لغة الحبس المحبحة . لغة القلب النارية . كلا لا أمل في هذا أيضاً . لأنه شيء ينكره خلقه الوعر .

واشتهت شوشو أن تقول بشجوها ، وإن تصب في أذن إنسان ما حديث حبها ، وأن تطرح عن قلبها ثقل هذا الكتان . ولكن لمن؟ الأختها ؟ والأسفاه ! إن هذا يكون جنونا مطبقاً ، فما تستطيع اختها أن تقدر الحب إلا بين زوجين ، وحتى بين الزوجين لا يليق عندها أن يجري كلام فيه . اختها نجية ؟ إنها ليست سوى كذا قطار من اللحم ، وما عرفت قط إلا العفاريث والخرافات . ولا عهدتها شوشو تستطيع أن تنزل عن شيء مما درجت عليه .

ووجدت شوشو نفسها تنحى على أختها كان لها عندها ثأراً . فحجبت لهدا وأسفت وانثقت تعتذر لها بنشأتها وجهلها ، ولكن أسدت الدنيا فلا سبيل إلى أحد تبثه ما في نفسها ؟ وخطر لها أن أختها الوسطى سميحة أقدر على الفهم ، غير أن سميحة في الاسكندرية مع ابن عمها (زوج نجية) وعلى أن مكاشفتها بهذا الحب ، مسألة فيها نظر كثير . فإن سميحة أكبر من شوشو ، والكبرى تسبق الصغرى إلى الزواج ، وليس بمجهول أن سميحة ما انفكت منذ سنتين تتحجب إلى إبراهيم وتحاول أن تستولي على هواه وتقتنص قلبه ، وابتسمت شوشو وهي تفكر في هذا ، فما يخفى عليها أن إبراهيم لا يطيق سميحة ، إنه على الرغم مما هو معهود فيه ومعروف عنه من ضبط النفس والقدرة على كتمان عواطفه ، لا يحاول أن يداجي سميحة أو ينداريها ، ولا يتكلف أن يكتبها أنه يحبها ، فهو يحرف اسمها ويدعوها « سوسه » ولا يكون إلا سيء الخلق في حضرتها ، بل لا يزال يفر من مجلسها كلما وسعه ذلك . وهي ؟ والأسفاه ! لا تنهزم ولا تبالي هذه الجفوة ولا تحفل نفوره منها ، بل تزداد شداً عليه ومطاردة له ، ومع أنه سر شوشو أن تشعر أن في

وسمها أن تكرر على يقين من أن «سوسة» لا أمل لها في إبراهيم ، وأن لها «أى شوشو» أن تطمئن ، إلا أنه لم يخف عليها أن كون (سوسة) لم تتزوج بعد ، سيكظ الطريق بالعقبات والمصاعب ، ويجعل أملها هي ، أى شوشو لا أقرب ولا أيسر . فنكست رأسها وقد أغرورت عينها وزايلتها الغبطة التي كانت تحسها ، وحل محلها الاكتئاب ، وبدأ اليأس يدب في صدرها فأحست أنها توشك أن تختنق . ماذا تصنع ؟ أين القلب الذي يمكن أن يعطف عليها ويرثي لها في هذه المحنة ؟ بل أين الخلق الذي تستطيع أن تبيحه دخلتها وتفضي إليه بسرها ؟ لا أحد ! وهالها أن تشعر بالوحدة في هذا العالم الزاخر ، وأن ترى إلى أى حد أرضاها حبها لإبراهيم مستفردة وفي هذه اللحظة فقط أدركت أن حولها أربعة جدران سميكة ، وأن هذه الجدران الأربعة — من ورائها ومن قدامها وعن يمينها وعن شمالها — محيطة بها مسدودة عليها في حيثما تكون من الأرض . لماذا خلقها الله في مصر ؟ ؟ لماذا يضرب عليها هذا الشقاء ؟ حتى إبراهيم لا يسمعها أن تذهب إليه وتقول له : «إني أحبك» كلا ! هذا أيضا مستحيل . لأن التقاليد والآداب تأتي ذلك وإنها لواقعة الآن أن إبراهيم يحبها وأنه يتمنى لو استطاع أن يعلن لها حبه ، ولكنه مثلها تقيد لسانه التقاليد والآداب ، وما أدراك ؟ لعنه الآن — في هذه اللحظة بعينها — ثورة الحيرة والكمد — إلا أن في هذا العزاء لقلبها . وبحسبها أن تعلم أنه مثلها موجد مكروب مهموم ، وورق . ولكن من يدري ! حتى هذا العزاء النافذ فيه شك كبير ! ألا تستطيع أن تذهب إليه وترى ؟ ؟ والأسفاه ! كان هذا أمس — أمس فقط — يمكننا ! لشدة ما يتغير كل شيء في يوم وليلة ، بل في ساعة واحدة ، لم تكن أمس قد انتهت إلى الاحتراف والإقرار فيما بينها وبين نفسها بهذا الحب ، فلم تكن تخجل أن تجرى إليه وتدفع الباب في جرأة وتوقظه إذا كان نائما ، وتجره من رجله وتمازحه وتداعبه ، وتكون معه كما تكون الأخت المدللة مع أخيها الذي يحبها أما اليوم ، فقد سد شيطان الحب هذا الطريق . ولكن لماذا ؟ لا تدري ،

وكل ماتدريه هو انها صارت تستحي حتى أن تلقاه بعد أن عرفت مافي نفسها له .

ولكن ألا سبيل مع ذلك إلى معرفة ماتصبو إلى معرفته ؟ ألا يمكن أن توفد . . من ؟ فاطمة ؟ ليس ثم غيرها . انها أمينة مخلصه وفيها وفاء .
وانشرح صدرها فتسللت من خرفتها إلى حيث فاطمة نائمة . وكانت ملفوفة في لحافها ولا شيء يبدو منها ، فكشفت عن وجهها وجعلت تحركها حتى أيقظتها . وأشارت إليها أن تتبعها في صمت ولما صارتا في غرفة شوشو قالت فاطمة وهي تفرك عينها .
— نعم ياستي .

فابتسمت لها شوشو ودنت منها ووضعت كلتا يديها على كفها وقالت :
— أريد منك أن تذهبي إلى السلامك وتنظري ماذا يصنع إبراهيم . فأفاقت المسكينة جدا ودقت صدرها بكفها وقالت : « أنا ؟ أنا ياستي ؟ » .
فأسرعت شوشو بترجها عن رفع صوتها وقالت : « هس . لا تدعي أحدا يسمع ، نعم أنت ، وما الضرر ؟ »
قالت : « الضرر ؟ أتريدين أن يقتلني ؟ إن سيدي إبراهيم صعب لا ياستي ! » .
قالت شوشو : « لا عليك . سأعطيك فستانى الأخضر . إنه جديد » .

فقالت فاطمة وهي لاتفهم : « ولكن لماذا لاتذهبين أنت ؟ » .
نعم لماذا لاتذهب هي ؟ ياليت من يدري كيف صار هذا عسيرا ؟
ورأت فاطمة أن ستها شوشو واقفة مطرقة وفي وجهها سهوم غريب ، فأدركها العطف على ستها ، ولكن خوفا من إبراهيم كان أعظم من رثائها لشوشو فقالت :

— ثم إنه لا يليق ياستي أن أذهب إليه في الليل هكذا ؟ هذا عيب ! ماذا يقول حتى ؟ لا لا ياستي ؟ أتريدين أن يقتلني سيدي الشيخ ؟

ولكن هذا العذر الذى تقدمت به فاطمة لتنجو ، هو بعينه الذى ،
الأمر على شوشو ويسر لها الحل فقالت :

— لن تذهبي وحديك ، فسأرافقك ، وأقف فى الصلاة وأنت تتقدم
إلى الباب وتفتحينه بلطف وتنظرين . فإذا سألك أو زجرك أسرعت
تجددك . افعلى لأجل خاطرى يا فاطمة .

— ولكنه لاشك الآن نائم ياستى .

لا لا لا ،

— كيف تعرفين ؟

وزادت دهشة الخادمة وصار اللغز فيما ترى أعوص . ولكنها ليه
مطالبة بالتفكير ولا يحمل الألغاز ، وتذكرت الفستان الأخضر وأن سي
لم يشتر لها فى هذا الشتاء كسوة ، وميستها نجية لم تخلع عليها شيئا من ث
القدمية ، فتوكلت على الله وخرجت تطلب المصباح ففتحتها شوشو ، وم
معاً فى الظلام والبرد ، وشوشو تسأل نفسها : وما آخر هذا الحب يا ترى ؟

الفصل الثالث عشر

« عهدا قطعت لعيني فكيف انتزع الى عذراء ؟ »

ما آخر هذا الحب ؟

في هذا كان إبراهيم يفكر تلك الليلة ، وهو مضطجع على سريره في الظلام ، وكان لا يستريح إلى النوم إذا ثقلت على كاهله وطأة الحياة أو ألح عليه إحساس أو خاطر ، كأنما يخشى إن يفضح النور له سراً ، أو يهتك لما يخفيه سراً ، وكان امرءاً لا ينفك يغالب نفسه حتى يقهرها أو تقهره قبل أن يستسلم لعاطفة أو فكرة ، وكان ملاً أوى إلى مخدعه ، يدخن سيجارة في اثر سيجارة ، وكان يشعل الجديدة من القديمة ، ولا يجد للدخان طعماً ، ولا يفيد منه سروراً ، وأراد أن يشغل نفسه أو يلهيها عما يكفئ شعابها ، فشرع يلتمس تعليلاً لفتوره . هذا جن التذاذ الدخان ، فزعم لنفسه أولاً أن الخواص - ولا سيما حاسة النظر - هي التي يرجع إليها الإرتياح إلى التدخين وأن المرء إنما يعتاد في الحقيقة أن يرى الدخان يتلوى ويحقد سحباً صغيرة بعد أن يتفخه بقمه ، وأن يشهر بالسيجارة بين أصبعيه وبين شفثيه ، ولكن المهم هو رؤية الدخان ، لأن العين أهم الخواص وأوثقها اتصالاً بالدماغ . وأقدرها على إفادة الصور اللسنية .

ولكن هذا التعليل - على قربه من الصواب - لم يقنعه ، ووجد إبراهيم نفسه يتساءل : « هب النور مضاء ، ومعنى ... شوشو ، أكنت أنظر إلى الدخان خارجاً من فمي ومثلواً في جوف الغرفة ، أم إليها هي ؟ » وغضب لما رأى نفسه يكرر إلى ما يريد أن يتلوه عنه . وقال في عناد : « حسن . فلنواجه الموضوع » .

وواجهه في حزم وشجاعة واستعداد للاحتمال النتائج : لقد تحول حبه لشوشو من أخوى إلى جنسى ، ذلك ما لاشك فيه ، فهل له أن يأمل أن يفوز بها ، وأن يقنع أهلها أن يزوجه منها ؟ كلا ! فإن في الطريق تلك البنت الخبيثة التي لا تحجم عن كل شر إذا هم أهلها بأن يقدموا شوشو عليها . وستكون النتيجة أن تشقى شوشو ، وهى ستشقى على الخالين ، ولكن أهون الشرين أن تياس من الآن ، والعاطفة هضبة لم يستفحل أمرها ولم يستعص علاجها .

وهو ؟ أوه . ليست هذه بأول عاطفة احتاج أن يخنقها ! وأنه لعذاب وأنه ليحس كأنما يقتلع أحشائه مع العاطفة التي يحاول أن يترعها من قلبه . وطاف برأسه قول ابن الرومى :

« وقع السهام ونزعهن أليم »

فقال : « صدق المسكين » ، وود في هذه الساعة لو أن معه ما طبع من ديوانه ، إذن لقضاها ليلة طيبة مع هذا الشاعر المنكود الحظ ، الذى ألغته الحياة بسياط من نار ، وكريته الجواطر فراح يتساءل : « ما الحب ؟ وما الشهرة والحمول ؟ وما السعادة والشقاء ؟ وما الحياة نفسها ؟ » وأعياء أن يهتدى إلى جواب مريح - وأى جواب آخر سوى أنها حناء وباطل ليس يجدى . وليس هذا بجواب . وإنما هو همسة الضعف ، ووسوسة العجز . وصحيح أن الحياة لا فرق عندها بين سعيد وشقى ، ومحدود ومكدود ، ومعروف ومغمور وعاشق وخلى ، وحيوان ونبات وجماد . ولكن هناك فرقا بين إحساسات المرء بوقع الحياة ، والمرء ليس الحياة حتى يطلب منه أن يكون نظره إلى الأشياء كنظرها هى ، واعتباره لها كاعتبارها .

« والخلاصة ؟ » وجلس إبراهيم على السرير ورد على سؤاله « والخلاصة أنى لن أذوق النوم فى ليلتى هذه على ما أرى » وضابقه أن يكون أكبر ظنه أن يقضى الليل المقرور أرقا ، يتأجى نفسه ويحاورها ويداورها على غير طائل . وتوهم أن ليس عليه إلا أن يعتزم النوم وإلا أن يريد فينام .

فانطرح على السرير وتغطي وأغمض عينيه وراح يتنفس بانتظام محاولاً أن يقضى التفكير في أى شيء . ولكن جهد اتقاء التفكير كان كجهد التفكير نافياً للنوم ، لأنه جهد على أى حال ، فخطر له أن يوحى إلى نفسه أنه سينام وجعل يكرر « سأنام » حتى قالها أكثر من ثلاثين مرة ، ثم ضحك فجأة وقد تذكر أنه كان مفتوح العينين وهو يردد هذا اللفظ . ولم يكن ضحكته إلا حركة غصبية لا عن مرور نفس ومراح ، فما عثم أن يجهم وهو يسأل نفسه وبعد ؟ وضاق صدره إذ لم يسمع عجباً له على سؤاله ، فطرح الغطاء بعنف كأنما كان هو علة أرقه ، ووثب عن السرير حتى إذا استقر على رجله تلفت وقال : « ترى أين المصباح ؟ ولم يسهه على كل ما به إلا أن يبتسم . أتري تجربة الأسس متعاد ؟ البقرة البارحة — ترى ماذا صنع الله بها — والليلة المصباح ؟ وألقى نفسه يعجب لحياة الريف التي لم ير منها شيئاً إلى الآن ، ويقسها — متحاملاً عليها — إلى حياة المدن . ولكن دقته وما فطر عليه من العطف الذي تؤدي إليه سعة الأفق والقدرة على الإحاطة بالجوانب المختلفة — ردت به إلى الإنصاف . فمضى يقول لنفسه إن المفروض أن المرء في المدن يصنع ما بدا له ، ولكن استبداد العادات والتقاليد يقضى على كل نزعة إلى التحرر ، ولا يدع للمرء مقراً من النزول على حكم هذه العادات والتقاليد ، أما هنا في الريف فالحياة أشبه بمناوشات مستمرة ، فالمرء يجد نفسه مثلاً يتناول طعامه وحده في أية ساعة . وقد نظماً في الليل فتجد القلة فارغة أو لا تجد القلة على الإطلاق . وهذا الشيخ على ، على كثرة ما أنفق على بيته هذا — بناءً وثأثيثاً — لم يعن بأن يعلق مصباحاً في الغرفة يتدلى من سقفها ، فمرة ينام المرء على مصباح يضاء بالبترول ، ومرة لا يجد إلا قنديل زيت أو شمعة ، وقد لا يجد شيئاً من هذا كله . ويذهب المرء إلى الحمام فلا يستطيع أن يوصد الباب ، إذ لا مفتاح ولا رتاج ، وهذا عجيب ، إذا ذهبت تعتبر أن الشيخ على كلف نفسه أن يجهز الحمام بحوض كبير ، وقد تكون في

الحوض عارياً فيفتح الباب خادماً أو واحداً من هؤلاء الفلاحين الذين لا يدري إبراهيم أنهم خدام أم أقارب أم من عمال الأرض . والواحد يذهب إلى حيث يشاء في الليل أو النهار ، فلا يسأل أحد فيما يرى إلى أين أو لماذا أو متى تعود ؟ وأدهش إبراهيم أنه لا يعلم أين يبيت هؤلاء الرجال الذين يبصرهم في النهار راثنين غادين ، وداخليين خارجين ، وأدهشه فوق ذلك أنه لا يرى أحداً يقلقه اختفاؤهم دفعة واحدة ، بل لا أحد يذكرهم أبداً ، ولم يذكر إبراهيم أنه رأى أحداً يلعب شيئاً خارج البيت - كل ما رأى من الألعاب ، وهو لا يعدو الورق أو الطاولة ، يؤدي داخل البيوت وعلى الكراسي أو الوسائد . ولم يعجب إبراهيم لهذا فإن الزراعة رياضة كافية . وما حاجة الفلاح الذي يقضي يومه عاملاً في الحقل إلى كرة أو متوازين ؟ ولم يسع إبراهيم إلى أن يعترف على الرغم من كل ذلك بأنه يشعر أن هناك روحاً تمسك البيت وتحفظ عليه وحدته - روحاً أو لعلها فتاة في ثوب قان من الصوف .. آه شوشو مرة أخرى ! تالله ما ألح هذا الخاطر وأشد تشبثه بالنفس ! أتراه هجر السرير في هذا الليل المرقور ليعود إلى التفكير فيها ؟ أو لم يفرغ من هذا الأمر ؟ ألم ينته منذ لحظة إلى وجوب القنوط والأقنط ؟

وقطع عليه تفكيره صوت تهامس خافت . فأرھف أذنيه وتسمع ، وكانت حاسة السمع عنده قوية ، فخيّل إليه أن إنساناً يخلع نعليه . فھز رأسه ومشى على أطراف أصابعه إلى الباب ووقف بجانب الخائط يترقب ويفكر . ما العمل إذا كان هذا الطارق لصاً ؟ ليس معه سلاح يدافع به عن نفسه ، ولا هو قوى مفتول الساعد فيستغنى بقوته عن السلاح ، فماذا يصنع ؟ وألهم في هذه اللحظة أن يستغل الظلمة فعاد إلى السرير فسحب اللحاف عليه وسواه لا كأنه نائم . تحته ليوم القادم ، ورجع إلى حيث كان بجانب الباب واعتزم أن يدع اللص - إذا كان لصاً - يدخل في سكون ومن غير أن يعترضه ، وأن يتسلل

هو فيخرج ، وإذا وسعه فوق النجاة بنفسه أن يوصد الباب على الضيف الثقيل ويغلقه بالمفتاح ، كان ذلك خيرا .

وسمع قرعة كأنما داس اللص المحتمل على بندقة فارغة ، فابتسم وقال لنفسه : « سيكون هذا الظلام حوئي وحليفي » ، لأن هذا الصوت تلتته صرخة خافتة مكتومة ، فحيره ذلك لأن هذا الصوت قد يند عن طفل أو امرأة أما عن رجل فلا . ونازعت نفسه أن يطل برأسه ولكنه استحمق هذا الخاطر فطرده ، ولم يطل وقوفه وانتظاره فقد بدا مصراع الباب - وكان موارباً - يتحرك ببطء شديد حتى لامس الحائط منه شيء فعض إبراهيم شفته وأدرك أن المفتاح من الداخل . إذن لن يوصد الباب على هذا الواخل ؟ وليس من الحزم أن يعالج لإخراج المفتاح والواخل منه قريب ، فلم يبق إلا أن يتذكر كل شيء للحظ ولإلهام الموقف ، وعليه أن يحافظ على هدوئه واتزان أعصابه ليتأتى له أن يتصرف بحكمة .

وأطل شيء كالكرة الحمراء فلتصق بالحائط جدا ، وحدث في هذه الكرة العجيبة التي بدأت ترتفع حتى حاذت رأسه ، وامتدت ذراع ليس لها كف ظاهرة ، إلى الحائط الآخر ، وكأنما اطمأن صاحب هذه الأعضاء الغريبة ، فخطا بجمرة ، فما أسرع ما غير إبراهيم ما كان قد صمم عليه ، فأهوى إلى ساق الداخل وجرها بقوة فوق صاحبهما على وجهه وندت عنه صرخة ايقن منها إبراهيم أن هذه امرأة . فحمد الله على أن جاء عار الفرار من امرأة ، وحق عليها لأنه كان يوشك أن يبدو لها جباناً ، وتقدم إليها في ثبات وركلها برجله وصاح بها : « قومي أيتها اللعينة . »

فتوسلت إليه المسكينة : « في عرضك يا سيدي . في عرضك » فشدد ذراعها بعنف وقال :

... ماذا تصنعين هنا يا بنت الكلب ؟ انطقي !

وركلها برجله .

فلم تقدر المسكينة على القيام وجعلت تكرر وهي تنتحب وفي عرضك ،
وفاظ إبراهيم أنها تبكى وأنها لا تزيد على التوسل ، وأنه لن يقف على سر
هذه الزيارة ، فكاد يمين وقبض على عنقها وهو يصيح :
— سأقتلك إن لم تنطقى ، قولى ماذا جاء بك ؟
— أنا !

فخلى عنها وانتفض قائماً إلى مصدر الصوت في مدخل الباب ،
ثم دفع فاطمة برجله وقال : « قومى هاى المصباح » ومضى إلى الكنية
في سكون .

وقالت شوشو وتقدمت إليه : « معذرة يا ابن خالتي ، لا داعى للمصباح ،
أنا أرسلتها إليك ورافقتها حتى لا تخاف » .
فلم يدعها إلى الجلوس ، وقال في جفوة متكلفة :
— أريد أن أفهم معنى هذا .

فارتبكت شوشو ، ولم يكن شيء من هذا كله مما تتوقع ، ولم يخف
عليها أنها كانت طائشة فيما فعلت ، وأنه مصيب في سؤاله ، بحق في غضبه ،
ولكنها على عادة جنسها نسبت ذلك وتعلقت بلهجته الجافية فحزت في نفسها
وسالت الدموع على وجنتيها ، ووقفت تردد النسيج بجهد ، ولم يكن
إبراهيم ملتفتاً إليها لأنه آلى أن يتكلف الجفوة ، وأتبعته له الفرصة فاغتنمها
ولم يكن هذا بالهين ولكنه كان الواجب في اعتقاده فلم يتردد ، ومضى يقول
لنفسه وهو جالس لا ينظر إلى شوشو : « ان الحياة كالنظر الى الظلام .
والمرء لا يعرف أى شيء هذا المثلل عليه وإنما يخمن ويقتدر ، كما يقتدر
في الظلام ويخمن أى شجرة هذه التى تصادفه في طريقه ، وكما يحاول
أن يتبين وهو سائر هل بلغ شفا شيء . . . والإنسان وحده هو الذى
يفكر ويتبرم ويعنى نفسه بهذا وذلك — وبالحياة والموت ، وبالمستقبل
وبالنور والظلام ، وبالحب والبغض ، لقد كنت في الصباح مع شوشو هذه في

الحديقة، وما زلت أذكر وهى على صدرى تلك النحلة الصغيرة التى طارت
فوق رأسينا ومضت إلى الحشائش وغرزت رأسها فنامت . فيا ليت أنا
كهذه النحلة نحييا كل لحظة أتم حياة ، فإذا تعبنا ألقينا رءوسنا ونمنا ، أما لو
أن شوشو ليست هنا الآن ! . مسكينة شوشو واقفة وحدها فى الظلام تحديق
فى سواد اليأس الذى لا يتخلله حرق واحد من النور . . مسكينة
مسكينة » .

ونهمض ومضى إلى النافذة ففتحها وأطل منها . فتصوبع إلى أنفه نسيم
الروض العطر . ولم يكن يرى شيئا ولكنه لم يشك فى أن كل ورقة على
غصنها ، وكل زهرة وكل حود ثابت ... كل أولئك متأمر أن يذيع كل ما فيه
من عطر وعطر ، وتنهى وهو يحدث نفسه أن كل هذه الحيات الصغيرة
متحابة متعاشقة . وإلا لما اتسق جمالها كل هذا الإتساق .
وأغلق النافذة وعاد فلم يجد أحدا فى الغرفة .

الفصل الرابع عشر

« حبيبى نزل الى جنته ، الى خيائل الطيب ليرى بين الجنات ويجمع
السوسن » .

- ١ -

كان أول مارآه إبراهيم من حياة الريف — غير ما فى البيت الأنيق الذى
شاده الشيخ على — احمد الميت راقدا فى حظيرة البهائم ، وكان إبراهيم قد
اعتزم أن يقلل من المكث فى البيت وان يكثر من الخروج إلى الحقول
والشجواب فى القرية ، على الأقل فى النهار ، حتى يجىء الشيخ على من
الإسكندرية ، فقاده رجلاه الى هذه الحظيرة وهو لا يدري .

وكان أحمد قد سكر فلما بلغ الحظيرة خرج عليها وارتمى فيها ، ولم
يكن يدري لاهو ولا سواء كم ساعة قضاها هناك راقداً يغط ، بهامته
وجلبابه الأسود وحذائه الأصفر الشامى ، وعلى أنه لم يكثرث ذلك ، بل لم
يكن يبالي كم ساعة أخرى يمكن أن يقضيها هناك .

ولم يكن منظر هذا السكران الطافح بالغريب على ما يظهر فى القرية ،
يدل على هذا أن إبراهيم رأى قريبا من رأس النائم حجرا منصوبا كأنما
أراد واضعه أن يتماجن على النائم — وشهرته الميت — فرفع عليه حجرا
كالى ينصب على القبور ، وفيما عدا هذا الماجن المجهول لم يتبين إبراهيم
أن أحد أزوجه أحد آخر ، اذا استثنينا حمارا كان مطلقا فى الحظيرة وكان
لا ينفك يذنو من هذا الراقد ويشمه كأنما يحسبه بعض المداود أو بعض
ما يوضع فيها . ويضاف إلى الحمار كلب — لم ينس إبراهيم أنه رأى ليلة
جاء إلى هذه القرية — مستلقيا عند قدميه ولا يزال يرفع رأسه فتقع الشمس
فى عينه فتختلج جفونه .

وقف ابراهيم ينظر إلى هذه الميت ، ويفكر فيما ينبغي أن يصنع ويعجب للشيخ على كيف يتخذ مثل هذا المحنون السكير وكيلا له ويعهد إليه في الأشراف على شئون ضيعته . ثم تقدم فدفع الحجر برجله فألقاه ، ولاحظ أن حمامة الرجل على الأرض وأن رأسه عار وأن أشعة الشمس واقعة عليه وظن أن هذا قد يجديه فالتقط العمامة وغطى بها جبينه وعينيه ، وترك له فيه وائفه ليتنفس ، ولم يجد أن في وسعه شيئا آخر فأولاه ظهره ومضى ، ولكنه تلفت مرة قبل أن يخرج ، فإذا بالعمامة على الأرض مرة أخرى وإذا بأحمد الميت قاعدا يقول كلاما غير مفهوم .

والحقيقة أن أحمد الميت — على خلاف أكثر أهل الريف — لم يكن يطبق أن ينام وعلى رأسه غطاء ، ولعله يؤمن في أعماق نفسه بفائدة الشمس للجسم ولا يخشى وقوعها حتى على رأسه ، وكان منذ حداثة يأتى أن يضع على رأسه شيئا وهو نائم ، ولكنه وهو قاعد ورجلاه ممدودتان لم يستطع أن يفضى إلى ابراهيم بعقيدته هذه ولا أن يبين له أن تلك عادته ولم تنفج شفتاه إلا عن تلمذة غير مفهومة ، فكر إليه ابراهيم وزجره أن ينهض إلى بيته إن كان له بيت غير هذه الحظيرة .

فنهض أحمد إلى قدميه وسأل ابراهيم :

— البيت ؟ لماذا اذهب إلى البيت ؟

ولم يكن هذا بالسؤال الذى يلقي على ابراهيم ، ولكنه مع ذلك قال له وهو ممتعض من منظره :

— اغسل هذه الأقدام على جسدك ايها البهيم القدر .

ولم يكذب قولها حتى كان أحمد الميت يخلع ثيابه ويقذف حذاءيه ويعدو في قبضه وسراويله المصفرين ، إلى النهر . فدهش ابراهيم وايقن أن الرجل لا مفر له من العرق ، ولما كان لا يدرى كيف ينقذه فقد بدا له أن يرجع إلى البيت ويخبر من فيه .

دفع إبراهيم باب الحديقة الخلقى بقدمه ، وانثنى إلى اليسار ثم وقف .
ذلك أن شوشو كانت حائية على حوض الزهر تقطف زهرة من ازهار
الأراولة وظهرها إليه ، فعض شفته وخطر له أن يتراجع غير أنه نحش
أن تنتبه ، فظل واقفا وقد بدأ المنظر يروقه ، فقد نفخت شوشو
الزهرة لتطير عنها الحشرات ، ثم قبلتها ثلاثا وراحت تنزع غلائلها المستطيلة
المتحاذية ، على مدار كأسها — واحدة واحدة — وتلقبها وهي تقول على
التوالى : « نعم ، لا ، نعم ، لا .. » فوافقت « لا » آخر ورقة ،
فتجههم وجهها وتفلت ما بقي من الزهرة من بين أصابعها إلى الأرض ،
ولبثت هنيهة جامدة لا تتحرك ، ثم أهوت على الحوض فجأة واقتلعت
زهرة أخرى وأعادت التجربة فكان ختامها « نعم » في هذه المرة ، فلم
تكد تقوى على الوقوف ساكنة وراحت تدب برجليها وتضم كأس الزهرة
إلى فمها بكلتا يديها .

ثم كأنما طاف برأسها ان الكفتين متعادلتان وأن « نعم » يقابلها « لا »
فالمسألة لم تتزحزح عن موضعها الذى كانت فيه من قبل ، فلا بد من
تجربة ثالثة للترجيح ، وشكت في أنها بدأت التجربة الثانية كما بدأت
الأولى « نعم » فقد يكون عدد الغلائل واحدا في كل زهرة من هذه
الأزهار ، فإن كان هذا هكذا فلا شك أن النتيجة تختلف تبعا لاختلاف
ما تبدأ به . وإذا صبح أن البدايتين اختلفتا ، وإن عدد الغلائل واحد .
فهل غشت إلا نفسها ؟ وهل يمكن أن تكون النتيجة إلا واحدة في
كل مرة .

ولكن هل الغلائل عددها متساو ؟ هذه هي المسألة ! ولحلها حنت
على الزهر فقطعت اثنتين ومضت تشد الورق وتعد ، فاختلف الرقمان ،
فتهلل وجهها وبدأ السرور في وقفها وحركاتها ، فقد صار التجريب

معقولا ، والأمرمتروكا للمصادفة والاتفاق ، وليس مما يسهل العلم
ينتيجته من غير أن يشكلف المرء قطف الزهر وإفساده بتزع ورقه ،
وصاحت « لنبدأ من جديد » .

فعلم إبراهيم أنها محت التجريبتين وأسقطتهما من حسابها ، وراحت
تنزع الورق في تؤدة وأناة وتثنى رأسها على صدرها في كل مرة ، حتى
بقيت ورقة واحدة قالت من غير أن تنزعها « نعم » طويلة ممطوطة كأنها
الصعداء تنففسها وتحط بها عن كاهلها وقرا ، ثم وقفت ساكنة لا تصنع
شيئا ولا تتحرك . ورأسها مثنى على صدرها وعينها ترنو إلى الكأس الذي
لم تبق على حافته سوى ورقة واحدة وفي وجهها طول ، وفي هيتها
استرخاء كأن جسمها موشك أن يتهافت وأن يهوى إلى الأرض كوما مفكك
الذرات .

فعجب إبراهيم لهذه التي كانت تطفو كالقراشة قبل دقيقة لماذا . وجمت
بغته والنفس الانسانية وسرعة انتقالها من المرح إلى الكآبة ، ولغفاء
البواحث التي تفضي إلى هذا أو ذاك على حين تدعو الظواهر إلى التقيض ،
وود في هذه اللحظة لو يستطيع أن يرد إليها البشر الذي كان ينضح به
وجهها ، والخلفة التي كانت في روحها ، والمرح الذي كان في سلوكها ،
والضحكات الكروانية والدعابة التي كانت تركب بها الحياة نفسها - في
ليال معدودات - غاب كل هذا ، وذهبت شوشو اللعوب المفراح التي
لم تحتج يوما أن تفكر أو تمد بصرها إلى ما وراء اللحظة التي هي فيها .
ولكن هذا ليس في وسعه ، وما هو بأحسن منها حالا ولا بأقل حاجة
إلى الغوث ، نعم الغوث ، ولكنه رجل مجرب وهي فتاة غريبة ، وهو
قد خاض العباب وغالب التيار وتدرّب على المكافحة ، وهذا أول عهدها
باللجة الطامية ، وما أهول الغصص التي تعانيتها وهي تغوص وتطفو وتختنق
وتشرق وتدفع باليدين والرجلين وتحاول أن تصيح طلبا للإنجدة فيخرسها

الماء الذى يعلأ فيها ، وتومىء فلا يراها أحد ، ومن ذا الذى يغيث فى هذا
التخضم الطاغى ؟

أين اليد التى ليست فى شاغل من أمرها ؟

ومع أن ما كانت شوشو فيه ، واضح المعنى ، فقد شاء إبراهيم أن
يتجاهله وارتد إلى الباب ففتحه ثم أغلقه بعنف كأنما كان داخلًا لتوه ،
وأقبل على شوشو التى انتبهت على صوت الباب ، وتكلف البشاشة وفى
صدره أظافر تمزقه وبسط إليها كفيه وقال وهو يسرع إليها :

— ما أبدع الجو فى البكور ! هل أفطرت ؟

فماحتة كلتا يديها وسأله بصوت خافت :

— أين كنت ؟

فأبقى كفيه فى يديه ونظر إليها وقال بلا تكلف :

— ما أبدعك !

— إبراهيم !

— إنك تفرحين على الحديقة جمالا جديدا . أحب أن أخبرك أنى
اليوم مجرم . . لماذا تتراجعين ؟ أنتخلصين عنى فى محنتى ؟ نعم لقد قتلت
رجلا . لا تراعى ! انه ليس إلا أسجد الميت ؟ غرق او هو يغرق الآن
أر لا ادرى فقد يعود إلى الحياة للمرة الثانية ! على كل حال ليست هذه
أول ميتاته إن صبح ما نحكون عنه .

ولما رآها حائرة مضطربة قص عليها ما حدث وبالحق فى الوصف
فسرى عنها واغرقت فى الضحك وجعلت هى تطمئنه وتؤكد له ان
لا خوف ان يقاد به .



وجاءت هى اليه بالطعام فى غرفته ، فلما جلس إليه على البساط
استندت ظهرها الى الكنية فنظر إليها فقالت : « لا أحس جوعا » فالتفت
إليها وقال بلهجة الجدد الصارم :

— سأرعى لحيتي احتجاجا .

فقالت وهي تضحك :

— ولكن لماذا ؟ ما علاقة لحيتك بأن آكل أو لا آكل .

فقال : « تصورى منظر قريبك وقد ارسا حول خديبه وتحت ذقنه لحية كثة ! إنه منظر يوقف الضمير النائم . وما اظنك تترقبين إلى لقائي بعد ذلك ولحيتي فى يدي . أفهمت الآن ؟ » .

فانتفضت ، فجرها من ذراعها إلى الطعام .

وبعد ان اصابا شبعهما قال : « والان أين القهوة يا فتاتى المهملة ؟
الا تعلمين ان لى معك حديثا خطيرا يتطلب كل ما فى رأسى من الزان وحكمة ؟
فلم تدر أهو يجد أم يهزل ، ومضت عنه ولكنها ما عثمت أن عادت
لا بالقهوة بل بأدواتها : يحق البن وحق السكر ، والسبرتو ، وقعدت
أمامه تصنعها .

وقال دون أن ينظر إليها بصوت لا يكاد يسمع فكأنه يتنفس أو
يحدث نفسه :

— شوشو أيتها الفتاة الرائعة ، لقد رأيتك اليوم تزعين ورق
« الأزولة » وتجربين حظك أو تستوحين هذه الزهرة الفاتنة ، تسألينها
عن مصيرنا . . .

فتحولت إلى جانبه ولم تتكلم ، فأراح ذراعه على كتفها ومضى فى
حدثه أو مناجاته .

— هممت أن أصرفك عن استنباء الزهر ، ولكنى قلت أدع لها ذكرى
حميدة تنعم بها فى الأيام . . . المقبلة . . . أترك لها حلمها الجميل وإن كنت
فى شك من أن الأحلام ليست خطرة . شوشو ، ان أنفاسك لا تتعلق أو
تحتبس حين تريننى مقبلا أو مدبرا . . .

فتمتت فى حياء : « ولكنى أسر . . . »

فقال : ربما (فرفعت اليه حينها بسرعة فلم يعبا بهذه الحركة ومضى إلى خايته) وعلى أن هذا أشبه بأن يكون شعورا أخويا منه بأن يكون أ. .
أ. . تعرفين ما أعني ؟ نحن قريبان وبيننا من الود فوق ما يكون بين الأقرباء في العادة . ولكن هذا ليس معناه أننا .. أننا .. أكثر من ذلك ..
اصمعي يا شوشو . لقد أخطأت حين جئت إلى هنا . لو كنت أعلم أن هذا سيحدث لما جئت ، ولكن هذا لا ينهض عدرا لي . أنا الملوم . ماذا جرى ؟
أتبكين ؟ يا لله ! ..

وجذبها اليه فأسندت خدها إلى صدره وهي تنسج فكاد قلبه يتمزق رقة لها وعطفا عليها وعلى نفسه أيضا ولم يسمع إلا أن يهس في أذنها :
— شوشو يافتاني الساحرة . ازجري العين عن بكائها . أنك تعلمين
أني أتصنع . أني كاذب . لا أعني ما أقول . إني محنون بك وسأظل
مجنونا . هذه هي الحقيقة وليكن ما شاءت المقادير فلن تصبو نفسي إلى
غيرك .

وكان صوته يرتعش ويده ترتجف وكيانه كله يهتز فالتفت ذراعها بعنفه وقالت هامة :
— أعرف ذلك .

وهذأت الأعصاب ، وبعد لحظة أدار إليها وجهه ولثم شفيتها ثم قال :
— اصغى لي ، فما استطيع أن أرفع صوتي ، سأبكي إذا فعلت .
فدننت منه حتى لصقت به ، وشد هو نفسه حتى خيل إليه أنه صار
كالصخرة ، ولكن صوته ظل متهدجا على الرغم منه .

— ألي أكبر منك منا وأكثر تجارب ، ولم يكن من حقى أن ادع
الأمر بيننا يبلغ هذا الحد ، وعلى أن لك على صغرك وغبارة سنك
وقلة خبرتك ، من الدكاء ما يعينك على التقدير السديد والنظر السليم
وإني لأعلم كما تعلمين أن بيننا .. تفاهما .. تفاهما مباركا .. ولست اعتقد
أن بين اثنين سوانا مثل هذا التعاطف الطبيعي . كلانا خلق لصاحبه ، ولكن

لهذه الأمور . : مقتضياتها . : مستلزمات لامفر منها ولا معدى عنها ، إذا
لم يكن الزواج هو المصير فليس يجوز أن ينشأ بيننا أو يظل مثل هذا التفاهم
أنه نحدد للطبيعة : أن يتحاب أثنان ثم لا شيء . : الشأن شأننا في الحقيقة .
والأمر لا يعنى سوانا ولكن الأيام مقلوبة ، والعادات والتقاليد سخيقة منافية
للعقل والواجب . صارمة أيضاً . ونحن نوشك أن نحدث في سورها ثغرة . :
أن نفتحم الحصن المنيع الذى بناه الجهل . . . ولست أراك تقوين على ذلك .
ولا أحسبني خيراً منك . ينبغي أن نفتح عيوننا . عاجلاً أو آجلاً . أنا
أؤثر أن يكون ذلك آجلاً . وهو أحلى وأعذب وأندى على النفس . ولكنه
لن يكون إلا حلماً مهما طال . ونحن ننسى أحياناً مصير كل شيء لا يساير
التيار ، ولا يوافق الزمن ولا يطابق روح الأيام . وإذا كان لابد من التحطم
على صخور التقاليد فليكن ذلك . . اليوم .
فخنقت الفتاة عبرتها وتعلقت به يائسة ثم قالت ، وكلتا ذراعيها حول
عنقه ووجهها مدفون فى صدره :

— لا أقدر . . لا أقدر . . مرة واحدة . . كلا لا أقدر

فسح لها شعرها فى رفق وقال : لا بد . . وانتك لتعلمين ذلك . لا بد
أن نكسر قلبينا .

فقالت : « نكسر ؟ ولكن أوه ! أوه ! لماذا نمزق قلبينا . : دعنى
أباما . . أمهاتى وقتنا كافياً ، لا هكلنا فى دقيقة واحدة ، بالتدريج .
ابراهيم . بالتدريج . . ليبقى لى شيء أذكره . أحلم به . أدخره
للأيام السود . دع لى شعاعاً واحداً من النور ، لا أكثر ، لانهشم حياتى
كلها اليوم . لا تمح دنيائى بلفظة . حتى التعذيب يجب أن يكون تدريجاً
ليحتمل . »

فابتسم لها — فى عينيها .

وكأن لمسه جسمها ألانه وفتره وسرى عنه أيضاً ، كذلك ضعفها
قواه وأمرعزمه فقال :

— كلا ! يا شوشو . ليس هذا خليفك ، يجب أن نصدق أنفسنا ونكون أقوى منها أيضاً . نخلق فوق مقاديرنا . وسيفسد كل شيء إذا لم نختم هذه الحكاية الآن ثم نهض مبتسمين . لقد غرسنا معا أجل زهرة . ونمت وتفتحت حتى صارت مني النفس وريحانة العين والأنف — حسن منظر وذكاء مشم . وقد آن أن نقطعها . . يجب أن يكون قطعها كما ينبغي : لا ورقة ورقة ، فلا تبقى هناك زهرة . وتصوري جمال الذكرى ؟ ذكرى الزهرة الجميلة التي كانت لنا والتي لم نخف أن نقطعها . . لما أبنعت . . متزهي بذلك ونسعد أيضاً . . حين نذكره نذكر زهرتنا التي لم ندعها تذبل أو تموت . . ويجب أن نقطعها بابتسامة يا شوشو من أجلك وأجلي . .

— أوه ! ان هذا كالموت . لا أستطيع أن أواجهه .
— بل تقدرين معي . نحن الاثنين نستطيع أن نواجه أي شيء . وماذا يعني من الموت مادامنا نستطيع أن نسير في الحياة بقلب سليم ؟
فرفعت شوشو رأسها وقالت :
— أنت محق : يجب أن نسير بقلوب سليمة .

وتحولت عينا إلى النافذة وارتفعت منها إلى السماء ، ثم ارتدت إليه ومدت يدها البيضاء ولمست شعره ومشطته بأصابعها إلى الورا :
وتركها هو تداعب شعره كما تحب ثم قالت وهي باسمه وفي صوتها حنوناً :
— فلنقطع زهرتنا الآن ؟

فابتسم لها . .

والتقت شفاههما في قبلة طويلة ودارت الأرض حولهما . . ثم أرخى ذراعيه فتخلت عنه وتناول كفها فلم أطراف أصابعها ثم اضطجع على

الكنبة وأخرج سيجارة وأخذ يلعب بها وهو يفكر ويتسم ، ثم رفع رأسه وقال :

... شوشو ، ماقولك في مكثي أياما أخرى ؟ لقد كنت معترما أن أرجل ، لكنني أظن أننا نستحق أن نبقى معا قليلا : كأخوين ا .
فقلت وهي تهض وتشدده معها : « لقد ترفقت بي على الرغم من قسوتك » .

وغادرا الغرفة معا الى حيث أختها ،

الفصل الخامس عشر

« قد دخلت جنتي يا اختي العروس »

مرت ثلاثة أيام كانت من أرخى وأهنا ما عرف إبراهيم وشوشو في حياتهما : لا تفكير في شيء ولا أسف على شيء . وتلك إحدى أعاجيب الطبيعة البشرية . فافتقر الحب بينهما بل زاد اضطرابا ، ولا كبير الأمل بل صار أضعف ، ولا أمحت الحوائل بل تكاثرت وخص بها الطريق • ذلك أن نجمة لم تكن لا عمياء ولا بلاء ، ولو كانتهما لكان حسبا فريزتها تدرك بها مالا ترى ولا تظن إليه بذكائها ، فما هي إلا أيام حتى لاحظت تحن شوشو على إبراهيم ورقة إبراهيم لشوشو ، فلم تروح الى ذلك وإن كانت لم تر طريقها إلى قول أو عمل تحول به بينهما ، ووقف حبها واحترامها لإبراهيم وواجبها نحوه وهو ضيفها دون التفكير في تمكير الأيام التي يقضيها عندها ، وتنخبص الوقت القصير الذي ينعم به في دارها ، ولم يكن أدعى إلى سرورها واغتيابها من أن ترى مقام إبراهيم في بيتها يسبغ عليه الصحة . وخطر لها أن من الممكن الانتفاع بوجوده وتحويل التيار إلى الناحية التي هي آثر عندها وأوفق على العموم وأكثر مطابقة للتحاليد ، وقد كان رأيها دائما أن من واجب إبراهيم أن يتزوج مرة أخرى لتنظم حياته ويمجد الروح والراحة في بيته ، وإن كان هو لم يشك اليها ولا بدت منه أية رغبة في هذا التغيير ، ولكنها المرأة لا ترضى عن العزوبة ولا تستطيع أن تروض نفسها على التسليم بها ما دام أن في الدنيا فتاة صالحة للزواج . وهل ثم فتاة غير صالحة ؟

فكرت نجمة اذن في تحويل التيار وتغيير الاتجاه ، ولم تعن نفسها بما

يبدو من ميل إبراهيم لشوشو ، وما قيمة هذا ؟ ان هذا الميل عندها لا قيمة له إلا على اعتبار أنه دليل على أن إبراهيم عاد بعد ثمانى سنوات يفكر في المرأة ويشناق إلى حياة الزوجية ، أما الحب فكلام فارغ ، وليست شوشو إلا واحدة من جمهرة الفتيات الصالحات للزواج وهبه يحبها فمن يمنعه أن يظل يحبها ؟ إنها بنت خالته وليس بينهما حجاب فى مقدوره دائما أن يراها وهذا كاف جدا . ثم إن الفكرة أن يتزوج أختها الوسطى « سميحة » والأختان صنوان وليست واحدة بأفضل من الثانية ولا أصلح ، وهذا يستوجب أن يعود الشيخ على من الاسكندرية بهذه الأخت التى استصحبها معه لتكون فى خدمته ؟ أو أن يبعث بها ويطلب شوشو بدلا منها ، ولكن إبعاد شوشو الآن ليس من حسن السياسة ، فقد يفطن إبراهيم إلى الأمر ويرى فيه تعمدًا فتحبط الحيلة ويفسد التدبير ، وهو عنيد وفى طبعه على الرغم من لينه وسماحته ، صلابة وعنق بلى تمرد . إذن فلتبق شوشو ولتعد أختها سوسو لتكون إلى جانبها ، وعليها أن تصرفه إلى نفسها شيئا فشيئا ، وهى فتاة ذكية واسعة الحيلة وأبرع من شوشو وأمهر ، وستكون نجية فى عونها ، ولا بأس — إذا استدعى الأمر ذلك — من اتخاذ الشيخ على حليفا ، والمهم على كل حال أن لا يدرك إبراهيم أن هناك مؤامرة لئلا يفلت العصفور ، والباقى على الله وبه التوفيق ،



وفى خلال ذلك — فى الفترة التى تقضت قبل أن تعود « سميحة » أو « سوسة » كما يسميها إبراهيم ، كان هو وشوشو كأسعد ما يكونان : يمثلان آدم وحواء — فى الجنة قبل أن يتعارفا — يتمهدان الحديقة ويقطفان ورودها وأزاهيرها ويؤلفان منها توافيق يزينسان بها الحجرات ، ويستدرجان الأرناب من السرايب التى تخفوها فى جوف الأرض ليقتنصاها للبيت ، ويجلبان البقرة — وفيما عدا ذلك يتمهان بالقرب والحب ، فإذا أتعبا الجرى أو المحاورة قعدا على الأرض أو البساط أو غير ذلك تبعًا للأحوال والمكان

الذى يفتق أن يكونا فيه ، فيقول إبراهيم ، وهو يلهث ، وقد شمر
بالجوع :

— كفى اغواء ، إيه يا حواء إنك لا تزالين كما كنت ، بل شرا مما
كنت ، مصدر اغراء وفتنة ابعث كل هذه البصير أيضا ! لا بأس ! أظن
أن من سوء الأدب فى حقك أن أذكر الطعام لأن منظره ساجر وأنت
مهالسة هكذا . ولكن ..

فتقول شوشو : « لقد أذكرتنى ! إني أكاد أموت جوعا . . . كلا كلا !
لست أعنى ما أقول ! ان النظر إليك يغنى عن وليمة ، أليس كذلك ؟ ! » ،
ويضحكان .

وفى الليل بعد أن يأخذوا حظهما من السهرتهم بالقيام إلى مخدعها
فينهض إبراهيم ويرجو منها أن تبقى ويرتب لها الوسائد على الكنبه ويقف -
وهو متكئ* على النافذة فتسأله :
— ولكن أين تجلس أنت يا آدم ؟

فيقول : « أقف رشيقا كما ترين مستندا إلى النافذة وأقص عليك
أسطورة » .

فتقول : « أما الأسطورة فهاتها ، وأما الوقوف فلا . كن طفلا واقعد
على البساط » .

فيجلس إلى جانبها ويقول : « طفل ! أنسيت يا حواء انى قديم
كالجبال ؟ » . فترفع حاجبها وتبسم وتقول : « وأنا أيضا يا آدم » .
— كلا ! على التحقيق .

— ولكن . . .

— لا أبالي هذا التمثيل . إنك خالدة . والخالد لا يذهب شبابه .
فتصمت برهة ثم تقول :

— قل لى يا آدم .. هل شهدت هذه الغرفة مثل هذا من قبل ؟

— من يدري ؟ لعلنا لسنا بأول آدم وحواء وأتت هذا الجدران !
— ولكنها لا ترى .

— صحيح ولدت كفيفة ومن أجل هذا تكون أحد سمعا ، وأقوى
ذاكرة . ان هذه الجدران الأربعة لا شك تذكر كثيرا من المر والحلو ،
والعنيف والرقيق ، والمضحك والمبكي .

— أظن الجدران تبسم الآن يا آدم .

— تبسم ؟ نعم . ولكنها ابتسامة حكيمة أبوية . اذكرى أنها ترى فينا
عاشقين — آدم وحواء في جنتهما .

— لقد نسيت . إذن ما أحق هذه الجدران بابتسامة أسف على مصيرنا —
فسنخرج من الجنة يا آدم !

— شش ! ان الجدران تحب العشاق ، فترفضي بها ولا تخيبي أملها
والاكسرت قلبها . هنا جدار يريد أن ينقض من الآن .
فتضحك وتقول :

— ولكن الشيطان ليس لها قلوب تكسر ؟

— بالطبع لها . إن قلوبها خير القلوب وأمتها أيضا .. قلوب من الحجر .
ليت لنا مثلها .

ويشعل سيجارة فتقول أنه منكرة :

— بعدما أقوم .

— أمرك يا حواء ،

وبعد برهة تقول :

— لم تقص على أسطورتك يا آدم .

فيقول : « أظنك تعرفينها . إنها أسطورة جندي طاريء وصف له
الناس ما في المدينة من بدائع وروائع وحدثوه عن الملك والأميرة الجميلة
ابنته . فسألهم كيف يستطيع أن يراها ؟

(م - ٧ إبراهيم الكاتب - دار الشعب)

حصن عظيم له أسوار عالية ومن حوله القلاع . لا يدخله أو يخرج منه غير الملك . لأن المنجمين قالوا إن الأميرة بنت الملك ستزوج جنديا بسيطا ، فغضب ولم يستطع أن يحتمل ذلك ، فقال الجندي لنفسه : « إني أريد أن أراها » .

ويسكت فتقول : « وبعد ؟ »

فيقول : « وبعد . . فإن الأساطير لا تحكى لمن لهم أدوار فيها » .

فتسأله : « أنا اذن من خيالات الأساطير ؟ »

فيقول : « يوشك أن تصبحي ذلك يا حواء »

فتقول : « واأسفاه ! وأنت أيضا يا آدم . ولكنها نعم الخيالات تعمر بقية العمر ! أليس كذلك ؟ »

— نعم .

وتنهض قائلة : « جاء وقت النوم نومي على الأكل »

فيتناول المصباح ويقول : « سأرافقك إلى بابك »

ويلف ذراعه بذراعها ويمضي بها ، وتقول له وقد بلغا رأس السلم :

— آدم .

— نعم .

— « أكان آدم — آدم الحقيقي — يقبل حواء قبل أن تنام ؟ »

فيقول : « أه . . آه . . هكذا ؟ »

القسم الثاني

إذا امتلأت السحب مطرا

أراقته على الأرض

الفصل الأول

(في عنقه تبييت القوة ، وامامه يدوس الهول)

— ١ —

« هل فرات دumas ؟ اعنى الفرسان الثلاثة ؟ »

فهز الدكتور محمود راسه أن « نعم » وهو يثنى عنان الجواد الى اليمين ليعطفه ، وقال « لماذا » .

فقال ابراهيم : « اذن أنت تذكر فرسانه لما دخلوا الحانة وهم في غير ما يمكن أن نسميه سرورا أو حالا عادياً . فقد كان بورثوس محققا ثائرا ، فكأنما ضرب سحره على الحانة ومن فيها وصارهم كل امرئ أن يترضاه ويتألفه ويسرع الى خدمته وأن يلبي طلبه بأسرع مما ينطق هو به و مخافة أن يحدث ما هو شر من ذلك » — أى من وجوده — أهو يريد قشدة ؟ اذن يندفع الموجودون ليجيشوه بها . أم الجمعة طلبته ؟ فهم يحملون على البار » .

ولما كان لا يقنع بشيء ولا تقف مطالبه عند حد ، فإن القيامة قائمة في الحانة ، وبورثوس يخور كأن في جوفه ألف ثور ، ولم تعد الحانة حانة ، بل صارت هيكل بورثوس ، وكل من عداه من خلق الله ملهوب به الى الشيطان . كذلك كنا اليوم بعد أن عاد الشيخ على — أو على الأصح — بعد أن زلت قدمه وهو بطارد أحمد الميت ، واحتجنا أن نحمله الى غرفته .

فضحك الدكتور وسأل : « وكيف استطعتم أن تحملوه ؟ ليتنى كنت حاضرا » .

فقال ابراهيم : « حاول أن يحمله أربعة من رجاله الأشداء ، لقد كان منظرنا لن أنساء ما حييت ، الشتائم والأوامر التي كان

بصدرها — هذه وحدها ستظل منقوشة على صدرى أبد الدهر ، أؤكد أنه كان منظرآ وهو مرياً ، إذا كنت تفهم ما أعني ، ليس في وسع ريشة أن تصوره وأن تثبت الجو الذي كان يحيط به : وللشيخ على الفضل الأكبر في خلق هذا الجو المختلط المعقد . فقد أبى إلا أن يشترك عملياً في « محاولة » نقله إلى ظرفته . وكان بحكم العادة فيها أظن ، يصدر الأوامر ويجاهد — أثناء القيام بنقله — أن يصحح الخطأ الذي يقع من خدامه في تنفيذ أوامره أو نواهيه — نواهيه على الأكثر — وأن ينزل العقوبة الجسدية بالتحالف أو الخطأ : أراد في خلال هذه الرحلة أن يصل إلى « أبو حسين » ليهشم له رأسه فاعتمد بيده على وجه « زناره » فكاد المسكين يخنق ، وكاد يتمخلى عن كتفه ، فلولا أن شككت الشيخ على بدبوس واضطررته أن يرفع كفه عن وجه الرجل لكان قد هوى برأسه على الأرض ، وقد كافأني بأن أمرني أن أدفن نفسي حياً ! .

فقهقه الدكتور ثم قال : « إن عمي غريب ، لعلك لم تغضب ؟ »

لقال إبراهيم : « أغضب ؟ كلا . أولى أن أغضب من العناصر الطبيعية أنه مثلها . ولكن الكلاب هي التي ضايقتنا . فقد اختلطت بالمركب وجعلت تتوئب وتنجح . ومن الغريب أنها كانت تسبقنا إذا صرنا إلى مكان فسيح ، حتى إذا شرعنا نصعد السلم لم يعجبها إلا أن تمشي بيننا وإلى جوانبنا وفي حيثما يكون وجودها عثرة في سبيلنا ، والشيخ على بصيح بنا أن نخرس الكلاب الحق أن صعود السلم كان بطولة تستحق التخليد . فقد سخارت قوى اثنين أحدهما ذلك العبد العملاق . ولست أدري ما سر هذا الولع بالوجوه السوداء اللامعة ؟ وصدر الأمر لأحمد الميت بأن يفرق نفسه في الترة — الليلة — وأن يجيئه في الصباح جثة منتفخة . وأمر « زناره » بأن ينارله سكيناً ليذيبه حالاً وكان العبد يتوهم أن هناك درجة أخرى باقية فدبت رجله بشدة ، فأمر أن ان يقطعها بالمنشار : وأخيراً وضموه على السرير ووقفوا يمسحون العرق المتصبب بأكمامهم الزرقاء ، وأيديهم الأخرى على صدورهم الصاعدة

الهابطة ، ولا قدرة لهم على الحركة من فرط ما أصابهم من الأعياء فلعنهم
وأمرهم أن يجلسوا على الأرض وأنذروهم بالشتى بعد أن يستريحوا . الموت
كان أقل ما يتوعد به أو يأمر .. ثم دخل النساء والأطفال بعد ذلك فأسر
إلى نجية أن تبعث لزوجات الرجال الذين حملوه بمقادير متساوية من السمن
والجبن والقمح ، وهكذا هو أبدا . . .

— ٢ —

لم تكدم مركبة الدكتور تبليغ الدار حتى كان أحمد المييت يحمل الجواد الذي
وقف يهز جانبه كأنما يريد أن ينفض ما عليه مما شربه ، والدخان يتصاعد
من جسمه على الرغم من البرد والفضباب .

وأسرع الدكتور وإبراهيم وراءه إلى غرفة الشيخ على فتلقاهما بالترابة
والتهكم . وكان الشيخ على قد استدعى امرأة عجوزا « في يدها الردة » —
كما يقول أهل القرية — فدلكت له قدمه ولفنها ولكن الدكتور جسها
مع ذلك فألقى الأمر هينا ولا كسر هناك . وأوصاه أن يلتزم رقدة خاصة
سبعة أيام على الأكثر فكان جزاؤه أن يتمنى له الشيخ على أن يسجن سبع
سنين على الأقل .

ولما رآه لا يحفل بذلك رماه بكوب كان يشرب منه .

ولم يبالغ إبراهيم في الوصف فقد كان الشيخ على مثل بودوثوس :
ضخما هائل الانحناء قوى البنية كثير الارعاد والإبراق سريع الغضب حاد
الكلام ولكنه على هذا كان كريم النفس وفيه أريحية وذكاء وفكاهة ،
وكان يسمى الشيخ على لأنه جاور في الأزهر زمنا طويلا ثم انقطع عنه
بعد وفاة أبيه . وتزوج بنت عمه نجية ، وتغلى لزارعته الواسعة وكثر ترده
على الاسكندرية فاشترى له بيتا في ضاحية الرمل على شاطئ البحر وخلق
الجنة والفطيان والعمامة واعتاض منها ثياب « الأفندية » غير أنه كان إذا
عاد إلى « البلد » يكر إلى جلباب من الصفوف والطربوش .

وتلقى وهو في الإسكندرية كتابا من أحمد الميث ينثته فيه بأن زوجته
نجمة تطلب أن يبعث إليها بسميحة أختها ، واحتاج هو أن يرجع لشأن له
فعادا معا .

غير أنه قبل أن يؤوب بها أحس بألم في أحد أضراسه فرأى أن يعالجه
قبل السفر ، فقصده إلى طبيب يعرفه وكان الخادم جديدا حديث العهد
« بالزبائن » ورأى الشيخ على يهجم خطأ على غرفة انتظار السيدات فتعرض
له فدفعه صاحبا فألقاه ودخل والغضب يتطاير من عينيه واللعنات تتراحم
وهي خارجة من فمه وانحط على أقرب كرسي .

وكانت في الغرفة سيدة تنتظر الطبيب ، فأفزعتها الزلزلة التي أحدثها
الشيخ على ، وهاجها افتتاحه الغرفة عليها فهضت ودنت منه وصاحت به :
— أخرج من هنا يا قليل الأدب .

ولكن الشيخ على كان قد وضع كفه على عينيه ومضى يحلم أو يتصبر
على الألم فلم يسمع فاحتاجت أن تعيد الخطاب .

— أقول لك أخرج من هنا يا وحش .

فوثب إلى رجله وقال :

— أتعنيني ؟

قالت : « نعم . وإن في بقائك هنا وردك على "لدليلا آخر على أنك
سوء الأدب . حيوان متوحش يجب أن يحبس في قفص »

فغلا الدم في رأسه ولكنه تماسك وقال :

— بأي حق تجترئين على مثلي بهذه الألفاظ ؟

فلم تراجع وصاحت به :

— أترد على ؟ أتحدث ؟ إن هذه عيادة طبيب وليست ميدان

مصارعة للثيران ثم إن هذه غرفة للسيدات وليست محلا للقبلة . أخرج
من هنا .

فتلفت الرجل يمينا وشمالا كأنما ينيح عن شيء ثم رفع وجهه المتهقن وقال بصوت متزن :

— إنك تعتمدين على امتيازات جنسك . ولكن هذا لا يبيع لك أن تصفى الناس بمثل هذه الألفاظ . على أنى آسف لأنى دخلت هذه الغرفة من غير أن أنتبه إلى أنها للسيدات وأعتذر لك . ولكنى أؤكد لك أن مخاطبتك لغريب مثل هذه العبارات . . .
فقاطعته :

— ولماذا قرعت الباب ؟

فقال وهو فى دهشة :

— لأدخل

— ألم يكن الباب مفتوحا ؟

فسكت . فأعادت عليه الكرة :

— انطق . ألم يكن الباب مفتوحا ؟ ألا بد أن تحدث ضوءاء تمزق الأعصاب لتعلم إلى الدنيا إنك داخل ؟ ولماذا شتمت الخادم ؟

فرجدا لسانه وقال :

— لأنه حاول أن يمنعنى

— أنه كان يحاول منعك من أن تسيء الأدب بالدخول فى حجرة السيدات . ولماذا ضربته ؟

— بأى حق تسألين ؟ إنه كان وقحا .

— ولماذا تدخل الغرفة كالتنبلة ؟

— لم يحصل هذا منى .

فقالت : « لا تكن سخيفا . لقد دخلت كالوحش وارتجيت على الكرسي كالوحش ولم تكلف عينك النظر ... »

فقال مصرا : « لست كالوحش . ولا جق لك في هذا الكلام . »

فألقت إليه نظرة احتقار وأدارت وجهها ولم تجب .

وظهر الخادم في الباب فخرج الشيخ على ولم ينتظر الطبيب وسافر مع سميحة إلى البلد . فلما بلغها كان ما حدث له لا يزال يحز في نفسه ويهيجه فلم يكده يلقي أحد الميت ويرى منه بعض التلكؤ في تنفيذ أمر حتى ذهب يعدو وراءه فرأت قدمه وكان ما تعرف .

ولم يفت الشيخ على أن يقص ما حدث له وأن يؤكد أنه سيخطفها لا محالة يوما ما .

فقالت نجية : « تخطفها ؟ يا خبير اسود . »

فصاح بها : « دافعي عنها . . لك الحق . . الكلب لا يعض أذن أخيه . . ولكني سأخطفها لأنها فضلا عن وقاحتها جميلة »

فقال الدكتور - وكانما أراد أن يطمئن نجية - : « ولكنك لا تعرفها »

فقال الشيخ على ملغزا : « ابق معتمدا على هذا . سري »

الفصل الثانى

(الكرامة التى هى شبابه ، وقلوبها اشراك ويداعها قيود)

نظر إبراهيم إلى ساعته فالتفت إليها الثانية عشرة فقال : « أوه ، ونهض .

فقال الشيخ على وهو ينفض السيجارة : « ماذا ؟ »

« النوم يا صاحبي . جسمى متعب .. وهذا الدفء يزيدنى تفتيرا » :
فدله الشيخ على يده وهو يقول :

« طبعها . طبعها . ساعدك تلك ثلاثة أضحك فيها الليلة الآتية

وانحدر إبراهيم إلى « السلاماتك » وهو يعجب أين ذهب الراقون ،
الدكتور الذى اضطر أن يقضى ليلته هنا ، ونجبة وأختها ، ولما لم يهده
التفكير إلى شيء خلع معطفه وارتمى على السرير وغطى ونام .

وأيقظه نقر خفيف ، ففتح عينيه ورفع رأسه قليلا وتسمع فتكرر
النقر .. يا عجباً .. فى كل ليلة حادث ؟ مرة تكون البقرة وأخرى
تكون الزنجية واليلة ماذا ياترى ؟ ربما كان الدكتور ؟ ولكن كيف
يمكن أن يكونه ! من عساه أن يكون غيره .. شوشو .. لا لقد قطعنا
زهرتهما وانتهى الأمر .. قطعناها ولم يذبلها .. واحتملت شوشو أن
تقطعها ، ولم ترتجف يدها وإن كان كيانها كله قد زلزلته الصدمة :
ولم ترق صمعة ولم تنهد وإن كان فى جوفها بركان مضطرب . ولم يشحب
وجهها وإن كانت حيائها قد جفت واستطاعت بقوة حبها أن تسمو وتخلق
فوق « الحياة » فيا لها من ..

نقرة أخرى

فرمى اللعاف ووثب الى الأرض في خفة ومضى الى الباب وقال من ورائه
— دون أن يفتحه — بلهجة السامان :

— من هذا ؟

— أنا أفتح يا بن خالتي . .

صوت سميحة — أو « موسى » — كما يسميها . . ماذا تبني ؟ . لاى شيء
تجىء في مثل هذه الساعة المتأخرة ؟ واضطرب ولم يجر بباليه إلا كبل سوء ،
وحار ماذا يصنع وكيف يستقبلها وهو لا يكاد أن يراها ؟ ومن يدريه ؟ لعلها
ليست سوى رسول .

« افتح امال ! » بلهجة الضجر .

ففتح — وهل كان يسعه خلاف ذلك ؟ . ووقف في مدخل الباب
— حبر عثرة — فالتفت في يمينها مصباحاً ، ولمع شبحاً عند باب السلم .
فهي ليست وحدها اذن ؟ فهل يطمئن أو يقلق . . ؟
وقال : « ماذا جاء بك الآن ؟ » .

فابتسمت له — ولم تكن دميعة ، وقالت بأرق أصواتها وأحلاها
نبرات :

— ألا تمهلني ريثما أدخل ؟ أعود بالله ؟ ماذا جرى لك يا بن خالتي
تركني واقفة أنتفض من البرد ؟

وأدرك إبراهيم أن لاشيء هناك يدعو الى القلق على أحد ، وساء
هذا السلوك من سميحة ، وخيل له أن وراءه غرضاً تعتمده وخاف
ما قد يجر اليه سباحه لها بالدخول في هذا الوقت ، من التأويل
والتخريج وهي تخلق من الحبة قبة ، ومن العنبة خارة ، ولا يبعد
أن تكون قد انتوت أن تستأنف مطارده التي اتعبته وأرهقته وبغضت
النساء جميعاً اليه . وإذا عرف أهل البيت أنها زارته على هذا النحو وأنه
تقبل منها هذه الزيارة ، فأى شيء لا يفهمونه ؟ كلا ؟ يجب أن يتمتعا مهما

كلفه ذلك ؟ وماذا يخشى ؟ إنها داهية خبيثة ولكن شرما يدخل في طوقها .
وقد وطن نفسه عليه ، وكذلك شو شو .

وقال : « لست أفهم معنى لهذه الزيارة ولا أرى لها داعياً » .
فضحكت ولم تنهزم وقالت وهي تدفعه لتفسح لنفسها طريقاً .

— بلاش دلج ، أتحسب أنى جئت بلا علم أختى وإذنها ؟ لقد أرسلت
معى فاطمة وهى تنتظرنى .

فتنحى لها ، ولكنه ظل واقفاً فى مكانه فلما وضعت المصباح
وجلس قال :

— اذن أخرج أنا :

فقالت : « عجيب هذا ! ؟ وبعد أن قلت لك إن أختى تعلم ؟ » .
فلم يتزحزح وأمضته هذه الصفاقة وقال بلهجة مرة إلا أنها هادئة
البرات :

— إنى سأصعد إليها وأبلغها أنى لا ارتاح إلى هذه الزيارة وأن الإذن
بالدخول على — وإن كنت ضيفاً عليها — يجب أن يكون منى أنا
لا منها أو من سواها . ليس احد وصيا على ، اذا كنت انت تحت
الوصاية .

فدقت كفها بكف وقالت محاولة ان تنقل المسألة عن هذا الوضع :

— ولكن أى ضيف فى حضورى وانت ابن خالتي كأنى ؟
فقال : « إن كونى ابن خالتك أو عمك أو من شئت غيرهما لا يميز
لك هذا ! » .

فلم تراجع وخيل لآبراهيم ان كل غرضها أن تقضى ذقات عندده والسلام ،
وأنه لا يعنىها كيف تقضيها ، ما دامت تقضيها .

وقالت : « كأنى لم اعد من الأسكندرية اليوم ، ولم ارك منذ
شهور ؟ » .

لعاظه إلحاحها وازداد مقتنه لها ولم يعد يتقى ليجاعها بالكلام الصريح
وقال :

— هذه الزيارة في الليل — بعد منتصف الليل — سهل جداً أن تعد خلوة
مدبرة . وأنت تعلمين أنى يرى من ذلك ولا يدلى فيه . وتعلمين أيضاً أنه
ليس بينى وبينك أكثر من القرابة التى لا تميز توريطى فى مثل هذه المواقف
التى لا أرتاح إليها ولا أستطيع احتمالها . ثم إنك فى قميص النوم أيضاً فكيف
أنظر إليك حتى لو كنت أخاك ؟ وماذا يقول الشيخ على أو يتوهم حين
يعلم . .

فقاطعتة وقد فزعت :

— أتتوى أن تخبره ؟

وكان سؤالها هذا وما تم عليه من الفزع زلة منها ، فأدرك أن الشيخ على
لا يبدله فى هذه المناورة ، وسره ذلك وسرى من غضبه ، ولكنه أراد أن
يعرف إلى أى حد يسهه خوفها من الشيخ على فقال :

— من واجبي أن أخبره . .

فأقبلت عليه تتوسل إليه وتناشده القرابة والدم وتستحلفه بابهته ، وقد أخذ
الخوف ذكاءها وأطار المكر الذى فى رأسها ولكنه أبى أن يعد بالكتمان وقال
ويده على مفتاح الباب :

— إنى أريد أن أنام .

فخرجت .

— ٢ —

ولكنه لم يتم بل أشعل سيجارة وشرع يفكر :

سميحة فتاة يعرفها كاذبة مأكرة . ويمسها بكل جارحة فيه ثقيلة
بغيفية ، ولم تكن دمية ولا كان ينقصها الظرف والكياسة والرشاقة أيضاً ،

ولكنه هو كان يحس أن على صدره حجرا حين تكون معه ، كان إذا أخذتها عينه ، يخيل له كأن وجهها مغضن وكأنها هي محمد الله على الغضون وتشكر له إن لم يعث في ووجهها لحية . وسر هذه الكراهة التي نمت كالسرخس ، أن سميحة أغريت به وألحت عليه بالتحبيب إليه ولجت في محاولة « توريطه » أمام الأقارب والمعارف لتوهمهم أن كلا منهما - هي وإبراهيم - يصغر إلى الآخر بما هو أقوى من الود بين الأقارب ، ولم تكن هي تحبه أو تبعاً به ، ولكنها شارفت الحادية والعشرين ولم يخطبها أحد ، فحزنت أختها نجية ولم تبال أن تتكلم أمامها بخوفها أن تكون سميحة قد كتب عليها أن تعنس ، وجعلت لها دالة عليها كأنما أرادت أن تعرضها بالعطف عليها من الانصراف عنها ، فأفسدها التدليل وأكسبها جرأة محمد في الرجال ولا تكون في النساء - عوضاً عن الحياء - إلا منفرة . وفكرت نجية ثم فكرت فلم تجد أمامها من « المرشحين » سوى اثنين : إبراهيم والدكتور ، والدكتور أغنى ولكن إبراهيم أسمى مقاماً ثم إنه أثر عندها لأنه قريبها فلتهد إليه سميحة ! أما الدكتور فتم شوشو تنتظره إذا شاء ولا يضيره الانتظار لأنه أصغر سناً من إبراهيم ، وشوشو لم تبلغ العشرين ففى وسعهما أن يصبرا ومن أجل هذا جعلت تلقى سميحة على إبراهيم وتغريها ، وتتغاضى عن مغازلة الدكتور لشوشو ومحمد لشوشو في سرها أنها تنفر منه ولا تقبل عليه فإن ذلك منها اعون على شحذ رغبته وادعى إلى إطالة « الحبل » حتى يأذن الله وتزوج سميحة .

ولم يكن إبراهيم يعرف كل هذا - وأنى له أن يعرفه ؟ - ولكنه كان يلمح إشارات الرضى من نجية عن سلوكه سميحة ويشعر شعوراً غامضاً أن بينهما تفاهماً أو اتفاقاً - قد يكون صريحاً وقد لا يكون - على « طارده » وتوريطه ، فكان هذا يستغزه ويستثير نغمته ، وينفره ، ولو أن الأمر جرى على خلاف ذلك لكان من الممكن أن يفكر إبراهيم في سميحة ، أو على الأقل أن لا ينطوى لها على كل هذا المقت .

وكان الله شاء أن تكون حياة إبراهيم كلها حرباً ومشاكل : فما طلب

أمرا أو اشتهت نفسه شيئا إلا اكتظ طريقه بالعوائق ، حتى زوجته الأولى كان اقترانه بها على رغم أذف أمها . حتى ماري - آه مسكينة ماري ، لقد نسيها - غرقت قطرتها في الأقيانوس الذي أزرخره حب شوشو . ولكنها قد تسلت عنه ولا شك ؟ - حتى ماري كانت علاقته بها مشكلا . هو الآن . تقف سميحة في وجهه وتأخذ عليه طريق قلبه . ويسد شيطان خبثها كل فج أمامه . ولماذا ؟ أمن أجل أنها سبقت شوشو إلى الوجود وتقدمتها في الحياة تكون أحق بأن تحب وأولى بأن تكون له زوجة ؟؟ كلام فارغ . وما ذنب شوشو ؟ ماذا جنت حتى ينزل بها هذا القضاء الملاحق ؟

ونخص إبراهيم يتمشى . وراح يتصور المستقبل المظلم الذي قسم لشوشو ، سزوجونها يوما ما ، واحدا لا تعرفه ، أو تعرفه ولا تحبه . واحدا كالذكور مثلا . فلا تجرؤ أن ترفض . وهما استطاعت أن تجترىء . وحبست نفسها عن الزواج فإن هذا لا يكون أقل قسوة . ولماذا كل هذا ؟ لأنه هو - إبراهيم - أقنطها ودعاها إلى اليأس وزينه لها على الرغم من حبها له ومن حبه لها . فهل من حقه هذا ؟؟ هل تجيز رجولته له أن يتخلى عنها ويدعها تحترق - تحترق في الجحيم الذي أضرمه بيده . ثم قذف بها فيه ؟؟ الا يشعر أنه مسئول عن مصيرها هذا ؟ بلى وإن تبعته لعظيمة . وهبه غير مسئول فإن عليه واجبا لنفسه ، فلماذا يسمح لسميحة أن تعترض طريقه وتأخذ عليه متوجهه ؟ ما سميحة ؟؟ فتاة ؟ ومن أجلها يدع نفسه يشقى ؟ من أجلها يترك شوشو تعاني الغصص ؟ من أجلها يقف هو وشوشو متقابلين ولكنهما محرومان معذبان ؟ لا يفصلهما شيء . غير أن أيديهما لا ترتفع ، وشفاهما لا تلتقي ، وانفاسهما الحارة لا تبرد ؟ كلاهما يجب أن يصبر رغبته في الحياة ، كلاهما ينبغي أن يغيب - وهو حي جدا - في فراغ الموت المظالم - يجف ويلوى . ويرفض الماء الذي يرويه ، - ويقتات سم الألم ، وتذبل شوشو ، ويبيض شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق وتغور عيناها وتعمق الكهوف حولها ، وتنقلب تغريداتها نعبا وفتنة صوته حشرة ، لأن سميحة تشاء هذا ؟؟

لأنى انا ضعيف مهين كغيرى من الناس الذين أحقرهم من أعماق قلبى ،
لأنى لست من طراز بروميشيوس ؟ لأنى لا أزال أنظر إلى الأشياء من وجهة
شخصية أنانية ؟ « أنا » دائما ، و « أنا » فى كل شيء ، بحسبى أن فزت منها
بقبلة ! يا لها من نعمة ! وما أعظم بطولتى ! ثم أدعها تخرق فى اللجة الطامية
التي دفعتها إليها ! أتركها تخرق فى النار التي أوقدتها وعجزت عن
إخمادها .

كلا كلا ! لن يكون هذا .

وارتاح لما انتهى إلى ذلك ورى إلى الحديقة نظرة مطمئن إلى ما صمم عليه
وكانت الحديقة العطرة مظلمة ، وأغصان أشجارها تكون فيما بينها أقبية تحت
السماء الخضراء ، وعلى سطح الأرض البليلة ضباب خفيف يخاف فكأنما هناك
أشباح غير مرئية تجوب مسالك الحديقة الصامتة وتسرى بين الأشجار الجاملة
مترجف لطيفها الأوراق والأزهار الناعسة .

الفصل الثالث

« اما خاطيء واحد فيفسد خيرا جزيلا »

- ١ -

— آه زوزو .

وفتح عينيه على كفيها الصغيرتين تعبثان بحبيب جلبابه وتخرجان لزراره من عراها ثم تعودان فتدخلانها فيها ، ولم يكن أحسب إلى الشيخ على ولا أثلج لصدرة من أن يصبح على وجه فتاته « زوزو » ولم تكن وحيدته ، فإن له غيرها ابنا هو محمد ، ولكن « زوزو » أثر عنده ، وهو بها أكلف ، وكثيرا ما كان إبراهيم يعجب لذلك منه ويقول له إن الولد — لا البنت — هو الامتداد الطبيعي لحياة المرء فيزال الرجل الطيب رأسه ويقول :

— كلا يا صاحبي وليس ليثاري لها لأنها الكبرى ، كلا أيضا . أنت ذاب فن حقلك أن يكون هذا رأيك في ربيع العمر وللشباب حكمه الذي لا يؤثر فيه فلسفة ولا يغيره علم أو اطلاع .

ويصمت برهة ثم يقول كأنما يحدث نفسه — بصوت خافت متهدج :
— للحياة كما للأيام فصول . ولكن فصول الحياة تتوالى على غير ميعاد ، وليس كل فصل منها ككل فصل فقد يكون الربيع أياما والتخريف أعواما ! والذي يجيء منها لا يعود ومتى جاء التخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له في عمره ، وأن ما بقى من رحلته في هذه الدنيا أشبه بأن يكون « وجودا » منه بأن يكون « حياة » — استمرار ومجرد اندفاع في الطريق الذي كانت تجرى فيه « الحياة » الأولى ، كما يجري النازل من « الترام » خطوات إلى جانب بقوة « القصور » الذاتي ، عرف المرء أن أذنه التي كانت تشملها همسة الحب الخافتة لن تسمع

بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس .
هائف من أمل أو طماع ، يخفق بلا احتفال ولا يخرج فى دقه عن انتظام .
وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها .
ونضارتها ، وبين استيلائها على نفوسنا ويضعف إغراؤها لخيلنا ،
وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفى وتتساقط على اليد ويطيها
النسيم هنا وهنا - متى صرنا إلى هذا فإن المرء تهتز نفسه لابتته وترتاح إلى
منحها الحب ، إن هذه الفتاة الصغيرة يا صاحبي تعيد إلى الشعور بحرارة
الحياة وقوتها الدافقة فى ربيع العمر ، نعم إنها إنما نحى « ذكرى » ذلك .
ولا نجدد الشعور ولا تهب القوة التى نفدت ، ولكن الذكرى غناء .
ويطرق هنيهة ثم يرفع رأسه ويستأنف الكلام :

- وأنعم بالصبيان . يشبون ويكبرون ويصبحون رجالا يحملون
الأعباء ويشقون لأنفسهم طريقا فى هذه الدنيا . ويفوزون بحسن الذكر
وطيب الأحذية ويشرف بهم الأصل الذى هم فرعه ، ولكنهم يا صاحبي
بعد أن يدخلوا فى حدود الرجال ينقلبون « اصولا » لأنفسهم ولا يعودون
« فروعا من غيرهم » . . . ثم . . . هذا يا صاحبي أوجع ما فى الأمر -
يحملون المكان الذى نخله نحن ، ويجعلوننا نشعر أننا أخطئناهم . وما أكثر
ما يجعلوننا نشعر بأنهم يطالبوننا بإخلاص . أن مجرد وجودهم فى الحياة يشيع
فى نفوسنا الشعور الذى كان غامضا قبل بضع سنوات ، بأننا لسنا من أهل
هذا الزمن الحاضر ، لسنا من أبناء هذا الجيل الذى يزحف ويستولى على
الدنيا - نعم يحملوننا ولا يدخلون علينا بالرعاية والترفق ، وقد يحبوننا
ويحترمونا ولكنهم يشعروننا أننا انتهينا ، وأنا محسوبون على الماضى مضافون
إلى آثاره - يصغون إلينا - هذا صحيح - وقد يطيعوننا ولكن بلا حماسة
ولا اقتناع بل على التسامح .

فيقول إبراهيم وقد غلبه صوت الشيخ على وعدوبة لهجته على الرغم
من المرارة التى فيها .

- صحيح ه لقد كان يوليسيس فحلا في زمانه . طوف في الدنيا بشجاعة
وغامر بقوة . ولكن تلماك هو الذى نجعل بالناس اليه ونوقظ له قلوبنا
وعقولنا .

فيقول الشيخ على وكأنه لم يسمع :

- ولكن البنت شيء آخر مختلف جدا ، ويظل أبوها - حتى يحل زوجها
معه - مستويا على العرش الذى ألفت أن تنظر إليه من طفولتها ، لا يزيو به
في نظرها الكبر ، ولا تخلق ديباجته العادة . كل صفاته المحببة تزداد على
الأيام رقة . اخوتها الصبيان - على حبها لهم - ليسوا سوى صور ضعيفة
فاترة من ذلك الأصل العظيم وفضائلهم ومزاياهم أضواء منعكسة . أبوها هو
محور وجودها وقطب الرحي في حياتها . وجه لها سماوى ملائكى . .
ليس من هذه الأرض . لا يشوبه ولا يعكر صفوه الاحساس بأنها متحل
يوما محله ، وهى بنت أمها . فأخلق أن تثير في نفسه ذكرى مهذبة لحبه
القديم لأمها ، ذكرى تكون كالحاشية لذلك الحب الأبوى الذى هو من أسعد
وأقدس أسرار الحياة .

وكانما يتذكر فجأة شيئا فيرفع رأسه ويقول وهو يحدق في وجه
إبراهيم :

- كيف تستغرب ؟

فيقول إبراهيم : « ماذا ؟ » .

فيقول الشيخ على مستأنفا : « وأنت القائل - لا أذكر في أى كتبك - إن
المرأة هى الحياة مختزلة ؟ لقد أثمرت تعاليمك كما ترى »
ويضحك .

فيقول إبراهيم : « هذا أكثر مما كنت أعنى . واعترف أنه لم
يخط لي » .

وبينا كانت «زوزو» تداعب أباهما وتفيض عليه من «حبها وإشراق نفسها» ، كانت أمها نجية قاعدة في غرفة أخرى على الوسادة ، وأمامها الموقد على مستداره أباريق القهوة كبرها وصغرها ، في واحدة منها القهوة ، وفي الثانية ماء مغلى وهي ترشف من الفنجان تارة وتبسط كفيها فوق النار التماسا للدفء تارة أخرى وتفكر طول الوقت ، على حين كانت شوشو لا تزال مستلقية في سريرها ، وسميحة تروح وتجيء وتدخل وتخرج ، وفي يدها مكنسة وهي لا تصنع شيئا وكأنها تصنع كل شيء .

وكانت نجية وهي قاعدة على الوسادة وكفاهما على كرسيها «والشال» يغطي رأسها وأذنيها وظهرها ويجمع طرفاه على صدرها . تفكر فيما يكرهها ، وهي لا يكرهها شيء سوى مستقبل سميحة ، ولا تحتاج أن تقول إن مستقبل أية فتاة في رأى نجية ليس له معنى سوى زواجها .

زواج سميحة ؟ نعم . لأشياء غيره ، وقد أدارته في رأسها مائة ألف مرة واجترته حتى لم يبق له طعم وحلمت به أغرب الأحلام وأبعدها عن إمكان التحقيق ، ومن حقها أن تولى الأمر هذه العتاة ، فإن حادثة حياتها الوحيدة هي زواجها ، به استغنت عن الإقامة في مصر بعد وفاة والديها ، وأمنت الفاقة واستطاعت أن تحيا حياة ترف عليها النعمة ، وأن تكفل أختيها ، وأن تعلمهما في أرق المدارس الفرنسية في الإسكندرية ، وأن تنشئهما أحسن تنشئة .

ولم تكن هذه أول مرة تحلم فيها بزواج سميحة ، فقد كان هذا خاطرا عظاما وما خلت إلى نفسها لحظة إلا راحت تتصور أختها هذه معقودا لها على واحد ومزقوفة إلى آخر ممن تسمع بهم أو من لهم بزواجها أو بالأسرة صلة ما ، ولم تكن أحلامها ، على خلاف المألوف في الأحلام ، منطقية أو منتظمة ، فقد كانت تصور لنفسها سميحة وقد تزوجت كل واحد ممن

يخطر على بالها ، فترى بعين خيالها واحدا وقد تقدم إليها ليلبسها سوار « الشبكة »
وجاء ثان في حفل من الأخوات والأقارب والأصهار ليعقد له عليها ،
وأقيمت الزينات وحجى بالمغنين والمغنيات وأحاطت « العوالم » بسميحة
يزفنها إلى ثالث ، ولا تكاد تبلغ هذه المرحلة حتى تؤثر شابا رابعا فتجعله
هو الداخل عليها ، حتى إذا مد يده ليرفع النقاب عن وجهها ويقبلها انقلب
في خيالها شخصا خامسا وهكذا فليس لخيالها حين تطلق له العنان استقرار ،
ولا لاختيارها تعلق بشخص دون سواه .

وكانت نجية أذكي وأحزم من أن تلدع أحدا يطلع على هذه الصور التي
تتعاقب على ذهنها وترسم واحدة بعد واحدة في نفسها ، وإن كانت هي
لا تكف عن إحضارها وتمثلها في خاطرها لتتعمق بها وحدها ، ولم يكن أحد
من الشبان أو الرجال الذين تحلم بهم أزواجا لأختها ، يتوهم أنه بعض
ما تدور عليه هذه المناظر العجيبة في رأس هذه السيدة الضخمة الساكنة
ولا كان يجرى لهم في بال - - وهم جلوس في بيت الشيخ على يشربون
القهوة ويتحدثون في شتى الشئون ، أو وهم في حقولهم أو أمام مكاتبهم أو
في دورهم - أنهم ينقلبون أشخاصا آخرين فتتضي عنهم ثيابهم العادية
ويكسبون بدلا منها أخرى سوداء رسمية على قبض أبيض وربطة بيضاء ،
أو بجة سوداء وقفطانا مخططا وإن ألبسهم واحدة بعد واحدة توضع في يد
الشيخ على الكبيرة وأن أفواههم تنم في حياء « قبلت نكاحها » وأن
السراقات تنصب فوقهم وتزدان ، وأن أصوات المغنين ترسل فضية
النغمات تجاوبها أصوات السامعين بأهات الاستحسان ، وإن الموسيقى
تعزف مرحة بالقادمين من المدعوين .

ولم تكن سميحة تلزم حالة واحدة فيما تتخيل أختها فهي مرة زوجة
« باشا » يغنيها ويرفعها مقاما محسودا بين أترابها ولذاتها ، ثم تستحيل زوجة
« وجيه » موسر له مصيف في الاسكندرية ومشتى في القاهرة وضيفة طويلة
عريضة يقصدها إليها كلما سثما حياة المدن وبرما بضجائها وحفلاتها

حواستقبالاتها ، طلبا للروح والراحة بين أحضان الطبيعة ، ثم هي بعد ذلك زوجة الدكتور يعنى بها ويسبغ عليها الصحة وينتقل بها بعد أن تقسع دائرته ويتسامع به الناس ، إلى رمل الاسكتلندية فتكون قريبة منها ، ويفنى شيئا فشيئا ويكثر لديه المال فيبتاع لها الحلى الثمينة يزين بها رأسها وأذنيها وجيدها ومعصمها وأصابعها وصدرها أيضا ، ويلبسها كل ما يشتى شبابها من الأفواف والأوشية ، - ثم يهتز الكليلد سكوب وتتغير مواضع الزجاج الملون فيبدو مع سميحة إبراهيم الحازم العطوف ، يبيحها قلبه وبقية طعامه حبه ويلزمها طاعته ويحكمها كما يجب أن تحكم المرأة ، وكما لا يحسن غير إبراهيم فيما تعلم أن يفعل وتنهت وتبهتسم حين يطوف برأسها هذا الحلم الذى تستريح إليه وإن كان المال فيه قليلا وفرص الثراء ضئيلة ، ويخيل لها وهي ترسم خطوط هذه الصورة وتلونها أن سميحة تصبو إلى إبراهيم وتعبه ، وتنحى عن خاطرها أن إبراهيم لا يبادلها هذا الحب ولا يبذل منه مثل هذا الود ، وتقول لنفسها من يدري ؟ أليس الواقع أن الرجال يتزوجون من لم يروا من النساء ثم يحبونهن بعد ذلك ؟ وتغالط نفسها وتنسى أن إبراهيم يعرف سميحة وأنه يثقها ، فلا أمل هناك إذا كان ثم أمل بين غريبين ، وتشعر بوجوب التعجيل ، ويقوى شعورها بذلك ما فطنت إليه بغريزتها وأدركته بما رأت من شوشو وإبراهيم . وكأن شوشو ليست أختها ، وكأن تحطيم قلبها وتخيب أملها إذا كانت تحب إبراهيم ، شيء لا يعنينا ، ولكن صورة إبراهيم وشوشو تأبى أحيانا إلا أن تبرز ، وتذكر عليها صفو أحلامها فتثير غضبها وتروح تنكر على شوشو أن تحب أحدا بله إبراهيم ، وتقول لنفسها إن هذا من شوشو قلة أدب وتسخط على المدارس التى تعلم البنات الكلام الفارغ قبل الاوان ، وتنحى على نفسها باللوم هى التى أصرت على تعليم أختها - وفى مدرسة فرنسية أيضا - ولكن سميحة كانت معها فلماذا لم تتعلم مثلها هذه الوقاحة ؟ ولماذا تنفرد شوشو بسوء الأدب هو فساد التربية ؟ أتريد أن تجر على الأبرة حارا ؟ أتريد أن يلداع فى البيوت أن

شوشو أحبت إبراهيم ؟ يا للفضيحة ! يجب أن تضرب على قفها . نعم لا بد من زجرها عن هذا وإلا فالفضيحة لا محالة واقعة .

ويزيدها هذا تصعبا على إهداء سميحة لإبراهيم ويبدو لها ذلك كأنه خير حل للإشكال ، والسرعة هي كل شيء ، وليس أجدى في مثل هذه المسألة من قطع الأمل .

وأفرغت في الفنجان التي كانت ترشف منه القهوة ، نقطة من الماء وهزته . ثم صبت على حافة الموقد ، ووضعت بين أخواته ثم صفقت فجاءت سميحة . تسبق فاطمة فقالت نجية :

— قولي للبنات ترفع هذه الأشياء . ألا تزال شوشو نائمة ؟ يالها من مكسال !

فقالت سميحة : « أنا عارفة ياخيتي ! إنها لا تريد أن تقوم . وماذا كانت تصنع لو كانت متزوجة ؟ أكانت تدع الرجل يفطر ويشرب القهوة ويلبس ثيابه وهي منطرجة في السرير ؟ ولكن الكلام معها لا يجدي وقد تعبت معها وهي لا تسمع لي كلاما . فلا شأن لي بها فلنأكلها لا تقبل مني كلاما ، فأنت وشأنك معها » .

فهزت نجية رأسها ومصمصت بشفتيها ولم تقل شيئا ونهضت — على يديها أولا .

ولما صارت مع زوجها وجلست على الكرسي إلى جانب سريرها قالت ، لزوجها : « ردي الباب يا بنتي » .

فالتفت إليها الشيخ على ورفع رأسه عن الوسادة وانكأ على كوعه وقال :

— هل من جديد يا فيلي الصغير ؟

فلم تجعل يالها إلى مزاحه ووضعت ذراعها على الوسادة وقالت بصوت خافت وهي تتلفت إلى الباب بعد كل كلمة :

— نريد إبراهيم لسميحة .

فاستوى الرجل قاعدا وصاح بها .

— ماذا ؟

فارتدت مذعورة حتى كاد الكرسي يقع بها فما كانت تتوقع ذلك وقالت
وهي تشير بكفها مستهجنة :

— يا أخى لماذا تصيح هكذا ؟ لقد أفرغتني ؟

قال اليها الشيخ على وقال بأنخفض اصواته :

— ما الذى جعلك تفكرين فى هذا ؟

فقالت مستغربة : « ولماذا لا أفكر فيه ؟ ألسنت موافقا ؟ »

فقال : « موافق ؟ أنك عمياء ! »

فقالت : « عمياء كيف ؟ والله لا أعمى سواك ، ألا أستطيع أن أكلمك

من غير أن تشور كالزوبعة ؟ » .

فلم يعبا بهذا وابتنسم وهو يقول :

— لقد كذبت عليك سميحة مرة أخرى ! اعترفى بالحق .

فقالت بلهجة السخط : « كذبت ؟ تقول كذبت ؟ سل إذن فاطمة ؟ » .

فضحك الرجل وقال :

— الغرض مرض ! تريد الحمقاء أن أسأل الخادمة .

فقالت ملحة .

— نعم سلها . فقد بعث إلى سميحة أمس بأن توافيه فى غرفته بعد أن

يقوم من عندك ، فاستأذنتنى فأذنت فاستصحبته فاطمة فسلها إن كنت فى

شك . انك لا تصدقنى أبدا فلعلك تصدق الخادمة .

فلم يكثرث للمرارة التى فى لهجتها وقال :

— إذن أنا لا أعرف ابراهيم !

فقالت وقد أزعجها أن أحست أن زوجها يعرف ما تعرف هى « ماذا تعنى ؟ » .

قال : « أعنى أينما القيلة العمياء ان ابراهيم يمقت سميحة بكل جارحة فيه : »

فكأنما طمأنها هذا وسرها أنه كل ما يعرفه فقالت :

— يعقنها ؟ انك تبالغ دائما . ومع ذلك فإنه سيحبها شيئا فشيئا وهى ذكية

وماهرة ويجب أن تعرف كيف تستميله ، دع هذا لها ولي أيضا .
فأرسلها زفرة طويلة ثم قال :

— ما أشد غفلة النساء وأعظم لجاجتهن في الخطأ . يا عمياء انه لا يمقت
سميحة فقط بل هو يحب شوشو . أسمعت ؟ أكان لا بد ان اشق لك جفونك
بالسكين لتفتحي عينيك فتبصرى ؟

فريعت كأنما كان هذا نبأ جديدا وأسرعت تقول :
— شوشو . كلام فارغ ، لا والنبي ابدًا . والله لو ملأ لي حجرى ذهبًا .
مستحيل .

فاضطجع الشيخ على ولم يزد على ان قال بلهجة قاسية :
— قومي من هنا . واسمعي . أحذري أن تقولى أو تفعلى شيئا فاهمة ؟
فنهضت طائعة وهى تقول :
— أجهنوة أنا ؟

فقال : وبل أنت مستشقى مجاذيب بأسره . إن إبراهيم حساس جدا .
ولا أريد أن اخسر صداقته مهما كلفنى الاحتفاظ بها . اتفهمين كلامى هذا ؟
فشورت بيدها وخرجت وكرشها امامها .

الفصل الرابع

« في النهار ادمو فلا تستجيب ، في الليل ادمو فلا هدوء لي »

الوقت الصباح ، و ابراهيم يتمشى في الحديقة ، ولا يرى شيئا فما يكف
ذهنه الاموقفه الذي لم يعد يحتمل . فكل ما يخطر له أن يفعله ، يبدو له خطأ ،
فهو اذا بقي يخطيء ، وإذا سافر يخطيء ، وإذا خطب شوشو وعيناها
العميقتان الساكنتان وشعرها الذهبي المتموج على جبينها . فهل ينقاد لنفسه أو
يكبحها ؟ ولم يعجبه هذا التعبير المفكك فتساءل « كيف يكون الكبح وكيف
يكون الانقياد ؟ إن المسألة ليست ألفاظا ألعب بها ولكنها عمل فما العمل ؟ »

وثني رجله إلى السلم ، ولكنه لم يكفد يبلغه حتى ارتد فقد ذكر شوشو
وهي تعدو اليه منه وتكاد تقع فتلقى بنفسها بين ذراعيه وتسريح ! فعصر
قلبه الألم ولجت به الصبوة إلى شوشو وهاله « القحط » الذي ينتظره في أيامه
المقبلة فرمى بنفسه على الحشائش ، ولم يكن وهو راقد يفكر في شوشو وسوء
حالتها ، بل في الدم الذي ينز في عروقه هو ، وفي النار المندلعة في جسمه
وفي رغبته الثائرة ، وفي حنينه إلى قبالتها . إلى جسمها الرخص . . إلى حبها
الحار . . في ظمته اليها كما كانت وهي تطعمه من النافذة . . كما بدت
وهي واقفة تنزع أوراق (الاراوله) وتعددها وتستنبثها حفظها . . في صدرها
على صدره . . وشتيتها على شفتيه والليل بأسط رواقيه ، والنسيم يهمس مع
القمر في آذان الشجر ، والضفادع تنفق ، والبوم ينبع من بعيد ، ووجهها
هي تغمره ابتسامة الحب وضوء القمر .

تعاقت على ذهنه هذه الصور وتزاحمت ، وهو مستلق على الأرض
يكابد هي الحنين ، ثم خطر له أن شوشو قد تخرج إلى الحديقة فتراه وانطق
بذلك أن يضاعف ألمها ! فتبعض ومضى إلى غرفته .

وتذكر ما كان من سلوك سميحة وزورتها له تحت جنح الظلام ، وما
عشى به ذلك من القصد إلى توريطه ، فتسور الدم إلى رأسه وأيقن أن الرحيل
لامناص منه .

وصعد إلى الشيخ على وكاشفه بعزمه ، وكان هذا أعرف بإبراهيم وأدري
بصلابته وعناده من أن يحاول أن يثنيه عن مراده ، وكفته نظرة واحدة إلى
وجه إبراهيم المربد أن يوقن أن سميحة واختها كاذبتان وأن التارهما به هو
الذي يرجع إليه اعتزاه السفر .

وقال الشيخ على بمازحه :

— ملنا أم نبا بنا أم جفانا ؟

مشيرا إلى بيت البحتري . فقال إبراهيم :

— كلام أكن أريد أن اعتاض منكم سواكم ولكني مللت . لا اكتمك
هذا . كأي في سجن . لا أرى أحدا غير السجناءين . . . أعني بنات خالتي
وعلمهن حتى أنت شاء الحظ أن يقبلنك عن مرافقتي إلى حيث أشتاق أن
أكون . . . أعني في الحقول . . . مللت والسلام .

فنظر الشيخ على بنحيث وقال :

— أهذا كل شيء ؟

فرفع إبراهيم رأسه وقال « وما سؤالك هذا ؟ » .

قال . « صدقت لأعمل للسؤال فلاني أعرف كل شيء . ولكني أرجو
أن لا تكون مغفلا . كلا ، لا تشكرني .. »

فقال إبراهيم بلهجة الجدد الصارم « إن من واجبي أن أخبرك . . . »
فقاطعه الشيخ على بدوره : « لا تفعل . فلن تزيدني علما . أو تحسبه
ليس لي عين ترى ؟ »

ولكن حلمك قد يكون مشوها أو غير مطابق للحقيقة .

فضحك الشيخ على ضحكة حافلة بالقرقرة ثم قال :

— أرجو أن لاتصدع لى رأسى بالشروح والتفاسير . د أبقها إلى أن
أنام ، أو أكتبها بأسلوبك الجزل وضعها فى ظرف واحتشمه بالشمع الأحمر
واعطى لياه . ولك على أن امزقه قبل أن أقرأه أو إذا كنت نحرص على
آثارك الأدبية ، احفظه لك إلى أن تكبر وترشد لتتاح لك فى كهولتك
فرصة تضحك فيها من حماقات شبابك .

فابتسم إبراهيم ولكنه قال بلهجة اليأس : « لا أرى فى صلاحك
أملا » .

فقال الشيخ على : « سألق بك بعد غد . فأتا أيضا قد ملئت
البليلة . »

ولم يكن هذا ما يريد إبراهيم ، ولكنه كتم ما فى نفسه وقال
للشيخ على :

— أو لا تزال مصرا على خطف تلك المرأة ؟

فلم يكثرث الشيخ على وقال :

— قل لعمود إنى سأدق له رأسه ، ولفرج البواب انى سأشقه ييدى
هذه ، ولأم الخير . . ولكنك تستطيع ان تنوب عنى فى انذار الخدم
جميعا ، إذا عدت فوجدت أن الأجراس لم تصلح ، أو أن واحدا منها
لا يندق بأعلى من جرس الكنيسة . أما أنت فلا تخشى أن أجيء لك
بسميحة وان كنت لا تستطيع أن أعذك بأن أحضر معى شوشو .

فنهض إبراهيم كأنما كان قد كواه بمسارحى وصاح به (قبحك الله)

- ٢ -

حلم إبراهيم وهو نائم فى بيت الشيخ على فى رمل الاسكندرية ،
أنه قد انقلب بقوة الله القادر على كل شىء ، (جمعة) مثلجة فى زجاجتها ،
وان محافظ الثغر شربه على كمية غير معقولة من كبار « البنترى » وانه — أى
إبراهيم ، احتج فى حلقه او وقف فيه ، ولكنه اكرهه على الانحدار

في جوفه فلم يزل يجاهد ان يقات - اعنى ان يرتد - حتى أصيب المحافظ بانفخ دائم جعل له كرشا كروية ، أكسبته سمثا وابهة ورشحته لعليا المناصب التي لا يصلح لها النحاف العجاف ، وانه - اى المحافظ - سر بذلك كثيرا فأقام - على سبيل التذكار هذه الحادثة السعيدة - « سيلا » يستطيع من شاء أن يرشف منه اعذب السم الزعاف بلا ثمن ، وفي كل ساعة من ساعات الليل او النهار إذا شاء ، وطلبه بلسان « سرياني » فصيح .

فقام من النوم مفزعا ويده على رأسه كأنما يبحث عن « سداة » الزجاجية ، وكانت الدنيا ملفوفة في شملة سميكة من الظلام تفيض على الليل سعرا ورهبة ، واندمج كل موجود في ظله ، ولم يعد شيئا بعيدا ، وآخر قريبا . والبحر يهدر وكأنه يزحف وراء صوته ، والنسم الوائى يهمس في آذان الشجر .

وحانت منه التفافة إلى حيث كتلة البناء - وكان هو في جناح متصل بها ومرتفع عنها - فلمح شعاعا من النور باديا من خلال الشمسية ، في غرفة المائدة ، فاستغرب ثم قال : « لعل الخادمة جهزت لى طعاما ثم قامت تنظر هل اصبحت منه » ولكن النور لم ينطفئ ، فأشفت ابراهيم على الخادمة أن تحيى الليل كله في انتظار من لا يجيىء ، وعطرت له ان الواجب ان يصرفها لتنام ، فأنحدر حافيا وقال لما بلغ الباب :

.. لماذا تنتظرين يا ..

ولم يزد ، وان كان فيه قد ظل مفتوحا ، ذلك انه لم يبلغ « يا » حتى كان مسدس مضوبا إلى رأسه ، وكان الذى رفعه إلى وجهه أشبه بالعمالقة . منه بمن رأى ابراهيم من الناس ، وهوى وذراعا إلى جانبيه وتمخلخلت ركبته وجعلت عيناه من المفاجأة ، وابتسم العملاق ، فابتسم ابراهيم ، لا سورا ، بل لأنه صار فيها يعلم آلة حاكية ، وقال :

- سوف . كلمة واخذ . وثروخ بلاس .

فلم يفهم مراده ، وسار في هذه الكلمة الواخذ « مامعناها هل

هي مقصورة على الصراخ والصياح والاستنجاد أم تشمل الكلام العادى أيضا ،
ولكنه أثر الخلد والاحتياط ، لأن التفسير — ولا سيما إذا كان من جانب
واحد هو الجانب الأعزل — خير مأمون المغبة ، فأطبق فيه وكان لا يزال
مفتوحا ، وهز رأسه مرات إعلانا للاعتزال .
فقال له : « خص » .

فود ابراهيم لو نحى عنه هذا الحديد البارد قليلا ، ولكنه أطاع وحلته
رجلاه خطوات في خط مستقيم حتى صدته المائدة ، وهو وراءه ، وأدار
له وجهه وحده مستقيما ، وأشار بعينه إلى كرسى ، فابتسم العملاق
وسأله وأصبعه على فيه :

— لسان مفيش ؟

فتشهد ابراهيم ، وعلم أنه يبيع الكلام أيضا ، وعادت الطمأنينة
مع الحياة واللسان ، أما السرقة فلم ير له حيلة في منعها الآن ، وإذا لم
يحدث ما ليس في الحسبان فما من شك في أنه سيمضى بما يجمع .

وقعد على الكرسى الذى أوما إليه في زاوية بعيدة عن الباب ،
وانصرف هو إلى عمله في هدوء رائع ، وكان يجمع الأواني الفضية
ويفحصها ويرتبها ويضعها في حقيبة معه ، وتبين ابراهيم وهو ينظر إليه
أن على كفيه قفازين .

ومضى عام فيما أحس ابراهيم وهو قاعد ، واشتاق أن يدخن فقال :
« ملك سيجارة ؟ » .

فرفع العملاق حاجبيه كالمتغرب ، ثم ابتسم وقال :
— آه بردون ياخيبي .

ومضى إلى « البوفيه » وعاد بسيجارة وأشعلها له ، فشكره ابراهيم
وهو ذاهب ، فما رأى لجرأته مشبا ، ولا سماع بمثل سكنته وتنظيم
جهوده وقصرها على ما ينشد دون أن يفسدها بتجاوزها إلى ما
سواها ، وبدا له وهو يجالس يتأمل وينفخ الدخان كأن السطو

والسرقة ليس أسهل منهما فما على الإنسان إلا أن يعد نفسه صاحب البيت الذى يدخله ، وأعرب للعملاق عن هذا الرأى ، وفى مأموله أن يجره إلى الكلام فيطول الوقت لعل شيئا يحدث أثناء ذلك يلجئه إلى الهرب وترك ما جمع أو يؤدى إلى القبض عليه ، وكان ذلك أملا بعيدا ورجاء محقق الخيبة وما دام قد استطاع أن يدخل على الرغم من الكلاب الحارسة - ترى كيف دخل ؟ - فأخلق به أن يخرج بلا صعوبة ، ولكن المشفى على الفرق يتعلق بقشة .

وأدرك اللعين المدرب غرضه ، فقال وهو ماض فى عمله :
- أنت مكار .

فأكد له إبراهيم أنه كفنان ، معجب بفنه ودقته وحذقه فيه ، وأن السرقة حقيقة تبدو له سهلة قياسا على ما يرى ، فقال العملاق :
- سوف ، أنت على البر .

فقال إبراهيم : « بل فى قاع الجب ، أو على كل حال حيث لا أحب أن أكون ، فلم يلتفت العملاق إلى هذا ، ولم يجب بأكثر من ابتسامة ، ثم قال :

- أو خمس حاجة ال . . . ال . . . اسموايه ؟ مس يسبع ؟

فقال إبراهيم : « الطمع » .

قال مثنيا : « براغو » .

فقال إبراهيم : « أحسبك تفعل ما تفعل الآن على سبيل الإحسان وبدافع من الزهد وحب التقشف ؟ » .

فقال العملاق شارحا : « سوف ، فيه كثير رانخ فى داهية سان لازم كان . . مس يسبع » .

فأعرب له إبراهيم عن إعجابه بهذه البلاغة وقال :

- كنت أظن لبلاهي أن اللاص يلقى كل ما يجمع فى غرارة ، ثم

يلتخب من حيث جاء ، ويفعل الباقى فى غيبته ، ولكنك علمتني شيئا ،
وإني لأعجب الآن كيف فانتك أن تعجىء بالأدوات اللازمة لصهر
المعادن أيضا .

فقط العملاق فه مستخفا وقال : دمس سغلى دى .
فهز إبراهيم رأسه وقال : وآه ! أنت انحصائى فى السرقة فقط ؟ :
فقال العملاق : أنت فاهم دى كله يروخ كاسورة ؟ .
فقال إبراهيم : لم أكن أعرف أنها لازمة لآنية بيتك فعذرة ،
فلم يرد العملاق ، وكان قد فرغ مما جاء له ، فأطبق غطاء الحقيبة
وأدار المفتاح فى قفلها ، ثم أومأ إلى إبراهيم وقال : « من فضلك » .
فنهض وهو يقول :

— هل أطلب لك عربة ؟

فابتسم العملاق وقال : « مرمى ! انت كوينس » .
فقال إبراهيم : شهادة قيمة ، ألا تكتبها لى لأحتفظ بها ؟ .
فلم يلتفت إلى هذا وقال : « بس مس يلزم تخاف كده دوغرى » .
فقال : « معذرة يا خواجه ، سأندرب على لقائك » .
فربط له يديه وراء ظهره ، ووضع له بين أسنانه بكرة خيط صغيرة
وتناول قبعته وقال :

— ليلتك سعيدة يا بيه .

ولم يستطع « البيه » أن يرد النحية بأحسن منها أو حتى يمثاها ، ولكنه
استطاع أن يشيعه إلى باب المسكن أو الدور .

وعاد « البيه » يعدو كأحسن ما يستطيع موثق مكبم ، إلى غرفة
الخادمة فوق السطح ، وأنه ليركل بابها برجله ، وإذا بنباح يوقظ
الموتى .

وكان الذى حدث أن اللص لم يكذب يدنو من باب السور الحديدى
حتى كان الكلب الحارس على ظهره وأسنانه مفروزة فى عنقه ، وكان
كلبا أرمنيا ضخما كالسبع ، لا يدرى أحد أين كان رابضاً ، ولا ماذا
أهمه أن يظل ساكناً ، حتى يصير اللص أمامه ، وعلى مسافة كافية
للوثب ، ولكنه على كل حال من فصيلة لا يحمد الغريب لقاءها فى
الليل ، وقد ردت وثبته صاحبنا آخر الأمر بشر من - نجفى حنين -
أى بقطعة ممزقة من لحمه وبالقيد فى يديه .

وكان من الطبيعى أن تخضر الأسرة كلها إلى الاسكندرية لا الشيوخ
على وحده .

الفصل الخامس

« أين الطريق الى حيث يسكن النور ؟ »

في الصباح أيضا ، وإبراهيم يتمشى وحده في حديقة الدار ويمد يده من حين إلى حين - وهو يروح ويحيى - إلى وردة يللمسها ، أو قلة يثنيها إليه ليشمها دون أن يقطعها ثم يعود إلى المشي .

وحده ؟ كلا ، بل معه .. كيف نقول ؟ نفسه . تحاوره وتداوله وتناوشه وتنوشه أيضا ، ونقول له فيما نقول :
- إنك تحبها . ألسنت تحبها ؟

فيقول : « أحبها ؟ ويحيى ! لقد كان لي ثوب رجولية زين ، فأين الآن وفائي للخلاق الرزين ؟ تجملي أين ؟ وكرامتي ماذا صنع الله بها ؟ وردى النفس إذا جحت ، على مكروهاها ؟ أحبها ؟ وآسفا ، لقد صرت عارى الهوى ليس لي ما يستر القلب عن الناظرين . وكأنما هذه الدنيا قواء فما أحسن الناس فيها . لا حياء ولا عزة . وما دامت الأرض في عيني خرابا مأموئا فمن أستحيي ؟ وماذا يبحث في النفس الشعور بالعزة ؟ .

ويطلق ضحكة مثقلة بالدموع المحبوسة فتقول النفس ملحة :

- تحبها إذن ؟

- نعم :

- جسمها ؟

- يفتنى روحها فيه .

- طيبعتها ؟

- نادرة . نادرة .

- ويرسل آهة :
- فتزداد نفسه عليه شدا ولا تترفق به وتقول :
- إذن لا شك فى النتيجة ؟
- فيقول : « لا أدري ! » .
- فتعيد عليه الكرة .
- ألا تظن أنه من المحتمل أن تغفر بزواجها ؟
- فيهر كتفيه ويقول :
- ربما ! ولكن كيف وللعينة أبحثا تأكيد لنا وتعترض سبيلنا .
- وتكف النفس هنية ثم تعود فتسأل :
- أليس كل حب إلى ملال ؟ وكل حسن إلى هفاء ؟
- نعم .
- وللقرب يحمية ، أليس كذلك ؟
- نعم ..
- أليس أولى بك أن تجعل العقل بلاما ؟
- فيسألها بدوره : « كيف ؟ »
- فلا تجيب ولا تسمح له أن ينقلب هو السائل وتقول :
- هل لك عمران !
- ماذا تعنين !
- هل ضمنت عمرا جديدا غير هذا ؟
- كلا !
- أو هل تعرف أن لعمرك هذا من يرفوه إذا بلى وتمزق ،
- أى فكرة !
- كم ساعة عشتها بعقلك ؟
- فيعجب لسؤالها ويلتفت كأنما يخاطب شخصا محسوسا إلى جانبه ويقول :
- ياله من سؤال !

- إن حولك الأرض والسموات تغرى العقل بالتفكير .
 فيقول مستخفاً : نعم ؟ .
 — كان حقلك أن تصقل عقلك لا أن تصدته !
 — يعنى ماذا ؟
 — يعنى أنى أراك تطلب الحسن لتغنيه . أليس كذلك ؟ طبيعة الفنان ؟
 هيه ؟
 — لا تسخرى بى من فضلك !
 — لست أسخر . ولكنى أحسب الحسن يوجد فى غير الإنسان أيضاً .
 — نعم ولكنه فى الإنسان أتم وأبهر وأوفى تعبيراً .
 فتقول النفس : « أحسبى فهمت : لا بد لك أن تسند صدرك القريح
 إلى شوكة الورد إذ تغنيها ؟ »
 فيثور بنفسه يلعبها فلا تعباً وتقول :
 — كنت أظنك أحق بأن تحاكى النور لا القمارى !
 — النور ؟
 — نعم ترفع الطرف مثلاً فى سماء الفكر . ولكنك عبد الحياة . عبدها
 الباكى الشادى بغناؤه الذى لا يعجب الأحرار والطلقاء . وأحسب أنك
 معذور إذا بكيت أسارك وحاولت أن تتلهى فى سجنك لا بأس . أرسل
 صوتك ليؤديه الصدى مقطعا آه نعم . غن وتسل كما يصيح الصبي فى
 الظلام ليطارده عن نفسه المخاوف . واحلم على الرغم من الرق والأسر —
 بالخلود . وغالط نفسك وقل إن الجمال وحى ، وإن الحب لا أدرى ماذا
 أيضاً ؟ ولكن ألا تسمع لى أن أسألك ما وحى الأزاهر الذى يدكى أنفاسها ؟
 أو كيف تغدو الأشجار رفاقة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى
 الينبوع فاضت به الاصلاد ؟ لا بأس . غن يا عبد الأيام والعوبة الليالى !
 فلوح بلدراعيه وقد ضجر وقال : « أه ! العقل العقل » ليت إذن
 المقادير حرمتنا هسلة النعمة التى لم نغن بها ، ماذا عليها لو أنها كانت

تركنا نرعى الكلاء ؟ ماذا كانت نخسر الدنيا لو كانت الحياة حتمتنا ؟ فكرة ،
 السماء وسمرت لحظتنا إلى الأرض ؟ كنا نرعى ملء البطون نباتاً وتنشق ملء
 الصدور هواء ، ولا نعد السنين ، فلا سنة جاءت ولا أخرى مضت ، ونحيا
 ونحن نجعل أننا أموات ، ثم نموت وما كنا أحياء ، ونلبس الحياة في كل حال
 راضين ناعمين جاهلين ابتداءها ، وانتهاءها ، ولكن المقادير أفاضت علينا
 نعمة الحس فهيات ينفع العقل . نحن أحياء الأحياء فلو أحسنا الحياة
 بالأعصاب العارية لما كان ذلك يكفى . . والمرء يظالم الله ويحمد فضله إذا
 خزن ما منحه الله ونحياً ما وهبه ، لا لا . أفك تريدن نعمة ليس فيها حلم .
 وعلى أنه يأنفس ، ما الفرق ، آخر الأمر ، بين من يقول ليس ثم سوى الأرض
 ومن يقول لن تنالوا السماء ؟ ولكن ...

أو بعبارة أخرى ، ما الفرق ما بين زينون وأبيقور ؟ لست أعنى أنى
 أحدهما .

فقاطعت النفس وقالت : « على ذكر هذين وما داما سبين فاسمع
 مشورتى » .

وكانت لفظة النفس مفاجئة ولكنه تعود منها هذه المباحثات أو الوثبات
 غيسألها بإبتسامة :

— ماذا ؟

قالت : « شوشو لا حاجة بها إلى صدحاتك » .

فقال : « ماذا تقولين ؟ »

قالت : « أقول أنه ليس ما يضطرها أن تعاني الأصغاء إلى « سحر »
 غنائك . لا تعجل . أن دهرها لم يرعها ولم يشيع أنفاسها إلا استواء .
 ولم تعرف جفونها ألم الدمع الذى يأتى أن ينفجر . فليس جميلاً منك أن
 تنقل صدحاتك بالدمع لعين لم تلق البكاء . وأن تحملها عبء عمرك وهى
 الغريزة الرقيقة التى تشكو الإنداء ، وأن تزجج ألحان حسنها بكلام تغصه

بالمفوضاء ، بل ليس من العدل أن تحيط بجمالها بأنقاض حياتك . إنك
زلزال يا صاحبي فاحذر . »

قطّأ رأسه وقد راحته هذه الصورة ، ومضت النفس في كلامها
وقالت :

— فانفض يدك من هذا الحب . اسرع . عد إلى ماري . التقطها .
إن قلبها « كالاستراحة في إقليم الحب » .

فابتسم وقال : « بالضبط . استراحة شالية مجعولة للنزهة . . ولكني
تعبت ومللت أن أظل أحمل حقيقتي الملائية بمؤونتي . سئمت أكل الأطعمة
المحفوظة واللحوم الباردة ، ولذلك سامضتي في رحلتني مع شوشو .
فسألته نفسه : « هل قدرت المخاطر » .

فقال بحدة : « هل كان أنطونيو يجمع وي طرح ويعني بهذه العمليات
الحسائية وهو يتلصق بجانب كليو باترا ؟ »

فعادت تسأله . « ولكن المسئولية » .

فقال : « إنني أعلم أن المسألة خطيرة ، ولكن الرجوع لأصيل اليه
الآن ، ثم أني لا أريد أن أراجع » .

فسألته : « ومتى تنطهبها ؟ » .

فقال : « قريبا . في أول فرصة » .

— « وإذا رفضوا ؟ » .

« آه . إذن أدفن سري في قلبي ولا أرثيه حتى بقصيدة . »

الفصل السادس

« مشرقة مثل الصباح ، جيلة كالقمر ، طاهرة كالشمس ، مرهبة
كجيش بالوية »

غرفة شوشو- وإبراهيم واقف على عتبة مترددا ، ومن حقه أن يتردد
لأن غرفة الفتاة حرم مقدس ، فيها ترسل نفسها على سجيبتها ، أحلامها
الجديفة تنسج لها آمالها وتطرز حواشيها وتوشيهها بمختلف الصور التي تتعاقب
على ذهنها في ربيع العمر ، ولكنه لم يلبث أن ملك نفسه وضبط أعصابها
ودخل . وكان للغرفة نافذتان عليهما ستاران أو شباكان من أرق نسج ،
وعلى الحائط مما يقابل السرير صورة أبيها مكبرة ، وعلى السرير المسوى
حبس سماوى اللون مطروح على ظهره ، أما الكلة فمجموعة ومربوطة
بشريط بنفسجي وإلى جانب السرير سهوة أعوادها متعارض بعضها على
بعض ، وفوقها طائفة من الكتب الفرنسية تناولها إبراهيم واحدا واحدا
وقلبها ، وهو يعجب فقد ألقى دى موباسان إلى جانب برناردشو ، والفونس
دوديه مجاورا لاسيينوزا ، وفرويد وراء تولستوى ، و « له فيه » و
« لانغان دى فوليتيه » تحت آخر كتاب له هو ولم تقع عينيه على كتاب
مما يوضع للأطفال ، أو مما يزيد هستيريا البنات ، ولفت عينيه إلى السرير
وجعل يفكر في شوشو وهي راقدة عليه ، ومعالجة مخلوقات خيالها أو مرسله
لحظها إلى المستقبل تستشفه وتستنبئه عن حبها وتمثل مسكرة القلب بخمر
التسليم . وتصور لنفسها أغماءها من فرط السكر ، وحلاوة التخدير
والنفث في جسمها الطاهر ، ثم تمرد ضميرها على هذه الصور وعراكه معها
ونهوته لخلق خيالاتها - ثم إستدار ووقف ينظر إلى أدوات الزينة ،
فرأى مكحلة فارغة سدادتها مرودها ، وحلية دقيقة براقة على صفة الوردية.

مما يفرز بين الشعر على جانب الرأس ، ومساحيق بيضاء في أوعيتها
وميلًا أحمر لصبغ الشفاه لم يستعمل ، ومشطين ، وكوما من الأشرطة على
كل لون ، وبقايا شعر وزجاجة كولونيا .

ودخلت عليه شوشو وهو ذاهل أمام هذا الخليط ، فقالت :

— يا قريبي المسكين أهذا أنت ؟

فالتفت إليها فراعته شحوبها وتقدم إليها باسطة يديه فتناوأتها وقالت
وهي تجره إلى السرير وتقف مستندة بظهرها إليه .

— اتعرف انى كنت اقرأ كتابا في تربية الارادة ؟

فابتسم ، ولم يسعه على الرغم من كل حبه لشوشو الا ان يستخف
بها ، وقال بلهجة مبطنه بالسخر : « هل قررت ان تشتغلى بالتنويم
المغناطيسى ؟ »

فقالت : « لا تسخر ، فان تربية الارادة والتغلب على العواطف ،
شيء يستحق الاحترام » .

فقال : « نعم . . نحنق القلب وانماء العقل ، اليس كذلك ؟ » .

قالت : « نعم مارأيك ؟ اعنى رأيك الجدى ، بصراحة » .

فقال : « بديع جدا وضرورى ايضا ، لرجال السياسة » .

فسألته : « وللمراة ؟ » .

فقال : « بحدود . كفر صريح ، تمرد على الطبيعة لا طائل تحته

ايضا . امراة بدون قلب ؟؟ ماذا تكون ؟ مخلوقا وحشيا »

— هل قرأت ما قال « اوفيد » في « فن الحب » اعنى قوله « ان

الفضيلة أنثى . هى كذلك يثايبها وبلغظها ، وانا اضعيف اليه ، وأريد

عليه ان الحب لقلب المراة كالارج للزهرة » :

فقعدت على السرير ودلت ساقيها ، وقالت وهى تهزهما .

— إنك تعرف جيدا أن قلب المرأة كصندوق « بندورا » إذا فتحته
انطلقت منه كل الآلام والأوجاع والمصائب .
فمعجب لشوشو ، ماذا تراها تعنى بهذا التشبيه ، ولكنه كتم خواطره
وقال :

— يجب أن تتعلم الواحدة منكم كيف تفتحها بحذر .
فتفتحت عيناها العميقتين ، ففتحتهما جدا وقالت :
— ماذا تعنى بالحذر ، أتريد أن تقول : أن على الفتاة منا أن يكون
في مقدورها أن تقرأ الغيب ، وأن تنظر في صدور الرجال ، فإذا قلوبهم
لوح مكتوب تطالعه ، هل تدعى أنت ان لك هذه القدرة على النظر في
هذا الكهف العميق المظلم ؟
فزادت دهشته ولم يستطع أن يبتدى إلى الباعث لها على هذا الكلام ،
ولكنه سايرها وقال :

— اسمعى يا شوشو . لقد أهاب بنا نيتشه أن نحيا حياة خطيرة ولكنى
أقول أنه ينبغي أن نحيا حياة أيضا مؤلمة . ان الألم لا سخييف ولا بشع .
أنظري هذه الشمس التى تنحدر للغيب . ان للشمس بقعها . والشمس على
الرغم من بقعها هى حياة الأرض . هى وحدها حياتها . والسعادة أيضا لها
بقعها . ولك أن تسميها آلامها ، ولكن هذه الآلام هى التى تجعلنا نقدر
السعادة التى نفوز بها . والحياة بالقلب هى الحياة الثامنة . أما من يبلد قلبه ،
من يخنقه ، فهذا إنما يحيا حياة هندسية فى ناحية واحدة . واحسبه مهما
حاول لن يستطيع أن يقنع نفسه بعقله وحده ، وماذا يصير الناس فى عالم
تسيطر فيه العقول أتم سيطرة على القلوب ؟ ينقلب الرجال « نظريات » ذات
لحى أو شوارب ، والنساء ملاحن لها ، والحب لو غارتما للرجبات !

فقالت له : « ابراهيم . ان فصاحتك لا تقنعنى اليوم ، لى انا فتاة
دون العشرين ولكنى بكيت أنهارا وتأللت . . بكيت لبالى بأسرها على
آمال الميتة . . »

فأخذ كفها بين يديه وقال بأرق لهجة :

« شوشو . ان دموعك التى سكبتها فى ظلام الليل هى التى تجعل المستقبل
مخصبا . آه يا شوشو . لا تدبلى زهرة نفسك .. ان الحياة تدخر لك ساعات
من أسعد الأوقات واحلاها وأنداها » .

فطأطأت رأسها وقالت « وتدخر لى أيضا دموعا مرة .. »

فصاح بها « شوشو ! »

فقالت « اقتناعك يعجبني فهل لم تتألم قط ؟ »

فقال « ياله من سؤال ! كأنى لا أتألم الآن ! أولى أن تسأل سمك
البحر هل ذاق طعم الماء المالح ؟ نعم . تألمت يا شوشو . بسبب قلبي أيضا ..
القلب الذى تريدني تربيته ؟ وسأتألم مرة أخرى . ولا يزعجني علمي بهذا »
بل أنا راض به ومستعد له » .

وذهب إلى النافذة ونحى عنها الستار ونظر من زجاجها ثم ناداها فجأة :

— شوشو !

فأسرعت إلى جانبه ووضعت يدها على كتفه فقال دون أن ينظر إليها :

— لقد عزمت أن أخطبك اليوم . وهذا سر حضوري إليك .

فترابعت خطوات وقالت ويدها على صدرها المضطرب :

— تخطبني ؟ اليوم ؟

قال « نعم . أيسوءك هذا ؟ »

فرمته بنظرة صتب وقالت :

— أرجو ألا تفعل . ليس الآن . تمهل . انك لا تعرف . أظنني فى

هذا . لا تقض على هذه السرعة . انتظر حتى تكون أختي ميسو فى ...
فى ... الريف — بعيدة عن أختي نجية .. أرجو .. الخ .

وكان ينبغي أن تحلل عزمه لهجتها وإلحاحها وتوسلها والفرع الذى فى

عينها ، ولكنه غافله واسخطه وأثار تمرده واستفز عناده أن يكون لسميحة

مثل هذا السلطان ، وجرح كبريائه أن تكون مثل هذه الفتاة التي يحقها
قدرة على اعتراضه وأخذ الطريق عليه ، والحيلولة بينه وبين أختها . ولم
يبد له — فضلا عن ذلك — أن للانتظار والتمهل أى مسوغ أو فائدة ،
فسميحة ستقاوم على كل حال ، فعير أن تنشب المعركة الآن فليس من
وراء أرجائها أى أمل فى اتقانها . وما دام أن الحرب لا بحالة دائمة على كل
حال . فلتدر والمسكران متقابلان . . وهو بين أنصاره . . أنصاره ! أين
هم ؟ ليس له من نصير خير الشيخ على ، ولكن اليس فيه الكفاية ؟ إنه جيش
وحده ؟ وماذا تستطيع إمامه مائة ألف سميحة ونجدة ؟

والتفت إلى شوشو وقال بلهجة المصمم :

— لقد سمعت منك إنك تقرئين كتابا فى تربية الإرادة ! يل اليوم
أخطبك يا شوشو !

الفصل السابع

(لذلك اسمى هذا أيتها البائسة والسكرى وليس بالحمر)

قالت شوشو لإبراهيم :

— هذا أنا .. قد جئت ..

فقد اليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

— أهو كبير ما بنا أم جفوة ؟

— لا كبير ولا جفوة .. وإنما أنا منيطة .

— منى ؟ ..

— كلا !

— ممن إذن ؟

— لماذا تسال ؟ .. من نفسى .

— مسكينة يا فتاتى ! ماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف ؟

— لست آسفة على شيء .. هذا ما يغضبنى .. ولو وجدت للأسف

مسا لكبرت فى عين نفسى .

وكانت الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من

صاحبه — وهما مبتندان الى سور السطح — غير صوته فقال :

— انت فى عينى كبيرة وجليلة دائما .

فلان ما كان متجمدا من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها ، ورقى

حاشيتها ، وانسجم صوتها ، وجلبها تكلفة البشر ودنت منه ووضع

بمناها على كتفه واقبلت عليه تسائله أصحيح ما يزعم ؟ احق انه يكبرها

وسيطل يكبدها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟ إنها لا تسأله

عن حبه لما فقد استوى على الرغم من حلاوة الثقة به ، أن يحبها أو لا يحبها ، ولكنها تسأله هل يحترمها ؟ فهبط قلبه وقال وهو يتناول يدها في يده :

— وماذا فعلت يا فتاتي أو ماذا تفعلين الآن أكثر من أنك قد جئت تؤنسين وحشتي تحت عيون هذه النجوم ؟

فرفعت وجهها إليه وورمته بعين مفتوحة كمغمضة وقالت .
— أو هذا كل شيء ؟

— كل شيء الآن . . الآن وإلى الآن .

ولبثا هنية صامتتين تحت هذه السماء المهولة المتلامحة النجوم ثم قالت .

— وماذا كنت تريد أن تقول لي مما أجهل ؟

فأربد وجهه ولكنها لم تره في ظلمة الليل ولم تدرك ماذا عانى حتى عاد محياها يرف لها بينما كانت هي تجذبة من كتفه وتلح عليه بالسؤال .

— كنت أريد أن أقول أن هذا للبد (بابتسامة متكلفة) .

— ماهو ؟

— كون يدك في يدي .

فانتزعتهما بحركة لدنية وبلا تعتمد لذلك وقالت :

— لقد أنسيت أنها في يدك .

— أنسيها مرة أخرى .

— لا أستطيع أن . .

— ماذا ؟

— أن أنسى . .

— تناسيها إذن .

— كلا .

— هل من سبب ؟

— « لا » مملوطة طويلة « سوى ان التناسى ليس كالنسيان »
وتناول يدها وسكتا مرة اخرى وتكلم بينهما الهوى .

وطال سكوتها لأن الليل عظيم وقعه في صدر ابراهيم . وكان
مما يرفه عن اعصابه ان يرسل اللحظ يريد ليخرق به احشاء الظلماء
فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عما دونها كليلًا حسيبًا ، وأروع
ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين في اجوازها المرعبة فلا تقطع منها
سوى بيد هائلة عن بيد اشد هولًا . وكذلك كانا واقفين في ليلتهما
تلك . هي مفتونة بجمالها ؛ وهو يكاد يسحقه الرعب ويفنيه الشعور
بضآلته اذ يجيل عينة في فيافي السماء اللانهائية ؛ ثم قال لها كأنما أراد أن
ينقل اليها احساسه بهول السماء وضآلة الانسان وكل ما يتعلق به أو كأنما
كان يعنيه أن ينغمس عليها متعتها بهذا المنظر .

— ثقي أن هذه السماء ليست مجعولة للانسان مهما تكن علة وجودها
انه لا شيء في الارض أو في السماء مجعول لهذا المخلوق الذي يحسبه
الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس اقسطر من
هذه السماء على اشعار الانسان ضآلته او لاشيئته اذا شئت .

فأدارت اليه وجهها وقد سحرتها نبرة صوته وراعها ما في لهجته
من المرارة وقالت كأنما تريد ان تصرفه عن هذا الاسلوب من
التفكير .

— ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟

فضحك — ضحكة عصبية — وقال « يوجد ؟ يوجد ، ان صح التعبير

بلفظ الوجود - صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شمس ،
وتوجد أقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يجمد الفكر كلما حاول أن يتصورها
- هذا ما يوجد ! .

وضحك مرة أخرى ولصقت هي به كالخائفة ، وهو عنها في شغل يحدق
في السماء وقد شعر فجأة - على كل حبه لها - كأنما بينه وبينها بعد ما بين
الأرض والمشرى . ومضى يقول :

- وهذه السماء التي يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن
يقذف به في أجوازها اللانهائية .. ليس جالها الذي يسحرك بالخاطر
ولا الباقي ! ها .. حتى هذه مرجوح وهجها رماد ! وجذبها من كتفها ،
أنظري هذا النجم الذي يكاد يخبو وميضه بين اخوته نجوم الدب الأكبر
كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعاناً ! فليس يخلو كل هذا الجلال من
دواعي الرثاء ! وتصوري هذه النجوم كلها - كلها - قد نهدت ؟ تصوري
عقلك يتلمس طريقه في سماء مظلمة شبا فيها كل ما كان يضيء ! تصوري
عقلك يصطدم في ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! نحى عينك !
غضى بصرك من السماء إذا أردت أن تستبقى بشاشة نفسك .

ففرغت وأقبلت عليه وأسندت رأسها الصغير إلى كتفه وأراحت عندها
على جانب صدره وتعلقت يسراها بكتفه الأخرى فأفاق ومسح لها شعرها
حتى زایلها الخوف ، وإن كان لم يزایلها هو الاكتئاب ، ولم يفارقه الشعور
بما بينهما الآن من البعد ، على قربهما بل تلاصقهما ، وآه لو أن كل ما بينهما
فرسخ أو فراسخ ! إذن لا يمكن أن يتسم . وخطر له في هذه اللحظة أن مما
يعزیه ، لو أن هذا مما يعزى ، أننا سعدنا أو شقينا ، سندهب كما ذهب من
كانوا قبلنا . وأن الدنيا ستومض فيها هيون غير هيوننا ، ونخفق فيها
قلوب أخرى ، وترهق عقول جديدة ، وأنها ستشهد أشجاء طريقة
تندب ، ومسررات ومباهج حديثة تطلب ، ويستعزبها ، على حين نعود
نحن ، كما سيعود كل شيء ، قبضة من تراب .

وقالت شوشو : « لن أفعل هذا مرة أخرى » ؟

— لن تفعل ماذا يا فتاتي ؟

— ألقاك هكذا ! إنك مخيف . هي الأولى والآخرة .

فابتسم إبراهيم ابتسامة فيها من الخنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما فيها من صباية الحب ، وقال وهو يتهدد :

— لا أدري أى سحر ضربته على حتى صرت ، كلما عذمت أن أروض

نفسى على مراجعة الصبر فيك ، لا تكاد عيني تأخذك حتى يتحلل العزم !

في كل يوم أحالج أن أرد نفسي على مكروها ثم ما هو إلا أن أراك ، أو تخاطر

في القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شيء سواك . ولا يبقى لي مني إلاك .

فابتسمت وسألته وقد سرها أن ينصرف عن السماء إليها :

— وماذا تريد أن تصنع بي ؟

— ماذا أريد ؟ أن أحملك معي وأخفيك حتى عن عيون أهلك . هذا

ما أريد . إن رأسي ليدور حين أرى واحدا من الخلق ينظر إليك . ولكن

لك قدرة على المبالغة والخفاقة حين تشائين . وفي هذا عزاء لي ، وإن ليخيل

إلى أحيانا أن تناسخ الأرواح حتى وأنت أنت « برونهيلده » بعينها يحيط بها

سور النار الذي حولها .

— ليتني كنتها . ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار تحمي به قلبها

وتتمحرن من ينشده .

— بحسبك غرائزك النسوية سوراً من النار .

— ولكن ألم تعرف — ألم أقل لك — أن ماتبني عسير لا يقع في

الإمكان ، فما جدوى هذا الذي نحن فيه ؟

— أعرف ؟ من أين لي علم هذا ؟ كل ما أعلمه أن أهلك حتى وأنهم

يضحون بك في سبيل أختك .. لا تضمي يدك على في ! دعيني أتكلم ! إنهم

يحولون دوننا تقدما لها عليك ، وقد علموا أنك لي لا بعيد عن ذلك ! هن

رضى منهم أو محمولين على مكروهمهم .

وفي هذه اللحظة دفعها الريح إلى صدره فأسكره قربها ، وأشد منه

شدا شعرها ، فضحك ضحكة عصبية ، ورفع وجهها إليه وأهوى على لها
يقبله في بساطة كأنما كان هذا حقاً له ، وهي تجاهد وتعالج أن تفلت من
عناقه ويأبى هو أن يدعها .

— انك ! .

وعضت شفتها وردت اللفظ الذي همت به .

— أنا أى شىء ؟ قولها . اقلنى بها في وجهي كما قلتموا .

— وحش . فظيع . هذا أنت . دعني .

خير أنه لم يدعها ، بل ضمها وهو يضحك في رقة وجلد وسكر حتى
هست في أذنه :

— لم أكن أعنى ما قلت كما تعلم .

فقال : ه لم تعنه أبداً بالطبع .

وقبلها ثانية .

وقالت وقد تخلصت من عناقه :

— كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟

— أنا ؟ متى وعدت ؟

— كيف تسأل يا . .

— يا وحش . قولها ؟

— ولكن أليس لك ضمير ؟

— ضمير ؟ ياله من سؤال . بالطبع لي ضمير .

— لأراك تحفل به الليلة .

— أنا في شغل عنه . قبليني .

— أى فكرة . ماذا أصابك الليلة ؟

— افعل .

— مستحيل .

— من فضلك .

— مستحيل . قلت مستحيل .

— إذن تعالى أقبلك .

— ولا هذا .

— ولم لا ؟ ألا يسرك أن تكوني محبوبة ؟

والثف حول نخصرها ذواحه ، ووجدت شفتاه السبيل إلى شفتيها فهل هذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هي له كما سمعته يقول بلهجة اليقين على الرغم من رفض أختها ؟ أنها على كل حال لم تعد تحس أن لها في نفسها كثيراً أو قليلاً ، فياليت من يديرها ماذا أصابها فقرها وأفقدتها الإرادة والقدرة على ضبط نفسها ؟ وعلى أنها لم تعد تكترث لذلك أو تفكر فيه ، فقد كان الدم يتدفق كالهجنون في عروقها .

— أمتصع أنت ؟

— « نعم » بصوت منخفضة عريضة الشفتين في ثمرها .

— إنني أعلم عظم حبك لي وإلا ما فعلت الليلة ما فعلت على الرغم من الحيلولة بيننا . ولكن أى فتاة تستطيع أن تفتنك من نفسك ساعة ، وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ، ولأن يسهل أن تلهيك عنى وتعلمك بالدنيا . ولقد أردت أن أهبك ما تذكرنى به — ما يطيل ادكارك لي — ألا تفهم الآن لماذا تركتك قبلى هكذا ؟ إنه الزهو والغرور والأناية . . .

— بل قولى إنه الحب .

— هو هذا وذاك بلا شك ، ولكنى أردت أن تذكرنى . . .

— أو تحسبن أن نفسى مستطيب عنك ؟

— أخشى .

— لماذا ؟

— كل امرئ ينسى القبله بعد أن تبرد شفتاه .

— من علمك هذا يا . . .

والثفت شفاهما في قبلة طويلة ، ثم تناولت خدييه بين راحتيها وقالت :

— دعني أذهب الآن :
ولكنه ضمهها وهو يقول : « أدعك ؟ كلا ! إني أعشى أن تشريني
في الهواء إذا تركتك » .
— كلا لا تخف .
وعاطفته التقبيل وحنقت صوته العبرات وهي تلح عليه أن يدعها
فسألها :
— أواقفة أنت أنك تريدني أن تمضي ؟
— كلا ! ولكني واقفة أنه يجب ، أن أذهب .
فخلعها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفتت إليه
وهي تقول :
— لا يشق عليك ما أقول أعني .. وأيقن أني .. ولكن ليتني أكون أنا هي
يقين من وفائك !
ومضت أخف من الفراشة .
وسافر هو في الصباح إلى الأقصر .

الفصل الثامن

« من هو جاهل قليل الى هنا ؟ »

أدار الدكتور محمود ظهره إلى المركز حيث عيادته وقصد إلى الإسكندرية ، وكان عمله يضطره أن يجعل زيارته غداً لبيت الشيخ على في القرية ، ولم يكن يعنيه من بيت قريبه إلا شوشو على الحقيقة ، وأمره معها عجيب ، فهو حين كان يراها لم يكن يحس أن لوجودها أثراً عميقاً في نفسه أو أن طلوع وجهها في مدار حياته قد أضاف إلى هذه الحياة شيئاً ، ولكنه بعد أن رحلت مع بقية الأسرة إلى الإسكندرية وجد نفسه كثير الشرود وأدرك أن ما كان سلوة فيما يعتقد لا أكثر ولا أقل قد صار حاجة ملحة وبعبارة أخرى مألوفة ، أنه يحبها .

وهكذا أحب شوشو اثنان : واحد بمعاشرتها وتوالى النظر إليها والآخر بالبعد عنها والافتقار عن رؤيتها .

أما كيف أحبها الدكتور ، متى كان ذلك فهذا ما لم يستطع أن يتهدى إليه ويحل لغزه ، والحقق هذه على كل حال ، أنه لما تركها آخر مرة قبل أن تغادر القرية - لم يشعر بذلك الأسف والاكتئاب المهودين صاحة الفراق . فهل بدأ يحبها يوم سمعها تغنى وراها معتمدة على حاجز السلم ؟ لقد أعجب بها حينئذ وتعلقت صورتها بذهنه وألحت على خاطره ولكنه يذكر مع ذلك أنه وجدها « جافة » . أم ترى أحبها لما أكرهته بعد ذلك بقليل على مبارحة المنزل والعودة على الرغم من المطر والأوحال إلى المركز ؟ لقد راقه حديثها قبل ذلك ولكن نجبها أفزعها ومكيدتها أسخطته . أم هو اكتئابها وتفتورها وما عراها من اللبول بعد رجوع الشيخ على إلى القرية ؟ لقد وقع في نفسه ذلك وأدركه عليها عطف عظيم حين رآها لا تكاد تتكلم أو تضحك ، ولا تميل إلى ترك غرفتها لينتازاً للوحدة . . ترى لماذا ؟ وقد

كانت تصده عنها في ملل وضعف فاذا كان يكرها ؟ وكيف حالها ياترى
في الإسكندرية ؟ .

والواقع أن حب الدكتور محمود لشوشو كان شاهدا على أن هذه العاطفة
ليست من الضروري أن تكون نتيجة لتلاق العيون وتلامس الأكف . وذلك
أن قلبه لم يصب إليها إلا بعد أن نأى عنها واستحالت في ذهنه خيالا ومعنى ؛
فأدرك أنه يحب روحها التي لازمتها في رقاده ويقظته واستبدت به حتى
صار يرتجف اشتاقا من العواقب التي قد تترتب على ادخال هذا العنصر
الجديد في حياته الهادئة المنظمة ؛ فاشتد قلقه واضطرابه ثم صار يشرد
فكره ويتعلق بصورتها وراح يجد لذة في التفكير فيها .

وكان يوما في القرية يعود مريضا فلم يطق أن شوشو ليست فيها فصسم
على الذهاب في هذا اليوم إلى الإسكندرية ؛ واعتدل في مقعده في المركبة
أو « الفيتون » على الأصح ورفع السوط ولوح به فوق رأس الجواد
الأصيل فانطلق بخطف ، وسره عزمه الجديد وأنعمته المناظر على الجانبين
وراح يتصور نفسه بطلا غازيا سيدخل الإسكندرية فاتحا - يومئذ -
بأصبع فيهرع إليه الخلق ويحرك شفثيه ، فينطلق مائة رجل في خدمته ،
ويبتسم فتشرق الوجوه وينعم الناس ببشره و . .

وهنا صادف الجواد مصعدا وصار السير بطيئا فتساءل من أين له
هذه الثقة بالنجاح أولا وبالسعادة بعد ذلك ؟؟ وفكر في النجاح أولا فما
هي فرصته ؟؟ وقال لنفسه : « لا أدري . . من أين لي العلم بما يبطنه
هؤلاء النسوة . أنهن جميعا يلاطفنني إلى آخر ذلك ، ولكن هل هذا من
المرأة له قيمة أو دلالة خاصة ؟ » وجره ذلك إلى التفكير في السعادة ،
فخبي يقول : « لست أذكر شيئا معيناً قالته شوشو يبعث على الأمل ، نعم
تجربى أحيانا لاستقبالي وتظهر السرور بوجودي ، وهما كل شيء .
وأحسبها نجما ملئ لاني قريب الشيخ علي ، ثم اني طيب والمستقبل أمانى
حسن ، ومكاسبى الحالية ليست بالقليلة ، فهل يتقدم لها من هو خير مني ؟؟ »

وانتهى الصعود وبدأ الهبوط ، وعاد الجواد يخب ، ومضى هو في مناجاته لنفسه : « صحيح أنها لم تختصني بشيء يروق ويعجب ، ولم تهد لي إثارة ، ولكن ما دلالة هذا ؟ ، وماذا انتظر غير الاحتشام من فتاة حسنة التربية ؟ وإذا كانت قد صدتني عن مغاللتها ، أفليس هذا أولى بأن يرفعها في عيني ؟ أكنت أحترمها أو أفكر في الزواج بها لو أنها أسلمت لي قيادتها ومنحتني زمامها ؟ كلا ! وما على الآن إلا أن أتقدم لأفوز . . أمد يدي لأقطف الزهرة . . وما يزيد سروري أنها فيما أعلم لم تحب أحداً قط . صحيح أن علاقتها بإبراهيم وثيقة ، ولكن هذا ابن خالتها والأسرة كلها تكبره وتحبه ، ثم إنه ضيف وإن يطول مقامه على كل حال ، وهو بعد رجل حاد حكيم قوى فخالطته لشوشو تنفعها ولا تضرها ، تؤتيها الاتزان الذي ينقصها . وفيما عدا ذلك لم تقع عين شوشو على أجنبي ولم تخالط غريباً فهذه مزية ، فليس أبغض إلى من أن أتصور نفسي أحب امرأة جربت هذه العاطفة من قبل . نعم فإن من المستحيل أن يطمئن المرء إلى زوجة كانت لها برجل آخر علاقة حب » .

وأبتسم وهو يتصور شوشو خالية القلب مستعدة أن تفي هناء قلبها إليه .

وكان الجواد قد انتظمت خطواته وخفت سرعته ، فهبط أمل الدكتور تبعاً لذلك فقد خطر له أن سميحة قد تكون عقبة في طريقه وطريق شوشو . نعم إن الشيخ على رجل واسع الذهن ، طيب القلب ، ولكن الأمر فيما يتعلق بشوشو ليس إليه ، بل إلى زوجته ، وهي سيدة مؤدبة ولكنها لا تفهم شيئاً ، ثم إنها عنيدة جداً ، فهل تقبل أن يتخطى الدكتور سميحة ؟ هذه هي المسألة . لماذا لم يخاطب أحد سميحة هذه ؟ إنها ليست أقل جمالاً من اختها ، وإن كانت . . أوه ! مالي أنا ومالها ؟ أنتن ما

شامت فليس لي بها شأن . ولكن هذا لا يحل العتدة . ولست أرى أن أكلم الشيخ على في ذلك فقد يسخر مني . فن استشير ؟ ليس أمامي سوى إبراهيم ، فهو الرجل الذي له من الاحترام والتوقير ما يجعله خير معين لي في هذه الورطة . ولن أعلم لحظة أخلو فيها به في الإسكندرية .

ولما صار في الاسكندرية قادتة رجلاه إلى دكان صائغ ، فالتقى منه قرطين من الذهب تتدلى منهما حبات من اللؤلؤ قال لنفسه أهنيهما إليها . واتخذ مجلسه في قهوة وأخرج العلبة وجعل يقلب القرطين معجباً بهما مستغرباً من نفسه هذه الجرأة . . . الجرأة ؟ نعم . وهل يجوز أن يتقدم بمثل هذه الهدية إليها وليس بينهما ما يسمح بالتهادي ، واضطرب وأضاع نصف ساعة في التفكير في هذا ، واستسخف نفسه جداً لأن هذا الاعتراض لم يرد على خاطره قبل أن يشتري الهدية ، فقد أيقن أن ما هم به ليس إلا عملاً ينكره العرف والتقاليد بل العقل ، وكيف يفاجيء بهدية كهذه فتاة لا يزال ينقصه أن يعرف ما تنطوي عليه له ؟ وكيف يتخطى أهلها ويقصد إليها مباشرة ؟ أمن أجل أنه أتم دراسته في (لبيون) بنسى بلاده وعاداتها والأصول المرعية فيها ؟ وتناول العلبة وفتحها أسفاً وجعل يقلب القرطين ويتأملهما فجرى بباله خاطر آخر كان ثمغيصه أشد . هب شوشو لم يعجبها اختياره ، ولكن هل انتهينا من القبول حتى نفكر في الذوق الذي حدا إلى الاختيار . وكاد الشك يطير بلبه ويعصف بعقله فجعل طول النهار يتأمل القرطين من قريب ومن بعيد ، وفي الظل وفي ضوء الشمس حتى اقتنع بأنهما شر ما كان يستطيع أن يشتري — فضلاً عن حماقة العمل في ذاته .

والآن ماذا يصنع بهذين القرطين ؟ وتمنى أن يفقدهما ، وود لو يسرقهما منه لص ، وأخيراً استوقف مركبة وثب إليها وقد عطار

له حل جميل . واشترى قرعين آخرين ، وخرج بالزوجين وقال أهدى
كل فتاة واحداً ، فلا يبقى هناك اعتراض ، ويكون حل هذا إشارة
صريحة إلى أني أفكر في مصاهرة الأسرة . . ولكن رأسه تدلى وقلبه
هبط لما تنبه إلى أن أول ما سيخطر لأى امرئ هو أن سميحة هي طلبته .
مسكينة سميحة . . لو عرف إبراهيم هذا لأدركه العطف عليها . .

الفصل التاسع

« ابتعدوا عني يا جميع فاعلى الائم »

كانت شوشو راقدة في غرفتها وعيناها مفتوحتان ، تدبرهما فلا ترى أثراً لإبراهيم ، لا صورة ولا هدية ولا رسالة ولا بطاقة زيارة . جاء وذهب كالعاصفة ولم يخلّف إلا مثل ما تخاف من التحطيم — وابن هو الآن . في الأقصر ! يدفن الحب الذي خبيته نجية — « نجية أختها ويحبها — فكيف لو كانت امرأة أبي وضرة أمي » يدفنه بين أطلال طيبة وهو متكبر وعز الطبع فأما أن يمتخ هذا الحب ويدفنه وأما أن يقضي نجية معه « لا شك في ذلك . ولن يرجع من طيبة ، إذا رجع إلا بقلب سليم ما في هذا أيضاً . شك . كرامته عنده فوق كل شيء وهي أحق بالمراعاة من كل عاطفة . ألم يقل للشيخ على حين أراد أن يقنعه بوجوب التسليم على نجية قبل سفوه « قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه ؟ قد غسلت زجلي فكيف أوسخها ؟ » متمثلاً بالتوراة .

وطفر الدمع من عيني شوشو وهي تنصور عناد إبراهيم وصلابه ومرارة نفسه وانتساخ كل أول في لينة أو تساهله ، وكاد يسخطها هذا على إبراهيم . إذ كيف يقسو عليها هذه القسوة ؟ ماذا صنعت هي حتى يحطم قلبها ويدوسه بحذائه ؟

وهمس في أذنها الأنصاف « وقلبه هو ؟ ألم يتحطم ؟ أليس الحق أنه إذ يحاول أن ينتزع حبها من قلبه ينزف ؟ » .

فقلت « نعم . نعم . » ودفنت وجهها في الوسادة وتركتم دموعها تنهمر . وأفاقت . . مريضة . كل أعضائها يخذل بعضها بعضاً . وماذا يكون الممرض إن لم يكن منه ذلك ؟ قلبها تحسه هابطاً وروحها مسحورة وألمها ضائع والعزاء لا سبيل إليه . نعم هو يحبها . وهل

يمكن أن تنساه وهو واقف أمامها . النور الذي في عينه ، والنبرة التي في صوته ،
ووغاؤه لها . إن في وسعها أن تراهن بحياتها على حفاظه : ولكن ما جدوى
وفائه وقد محقت أختها حياتها ؟ ماخير أن يظل يحبها وقد ائتمرت بها أختها -
كلتاها - ليقضيا عليها ! والشيخ على يقول : ان بها حاجة إلى قليل من
الراحة ! آه لو علم ! إن حاجتها إلى ما هو أكثر من الراحة ، ولورآها وهي
تبكي وشعرها منفوش ووجهها على الوسادة وقلبا يتمزق لأدرك أن الراحة
لا تغني !

ولم يكن يحسكها في هذا اليأس الأسود الذي يخيظ بها والنقمة الماحقة التي
تشرع بها لأختها ، إلا يقينها بأنها محبوبة ، والأ ذلك المقدار من السعادة الذي
ينتجها هذا اليقين . بهذا الخاطر تشبثت بينما كانت عواطفها تزخر وصدورها
تعيث فيه عواصف الألم . ومن الذي يستطيع أن يسلبها هذا الحب مهما
حدث ؟ قد تكون الأقدار قد خبأت لها تجارب أخرى وآلاماً جديدة في
حياتها ولكن الأقدار نفسها لا قدرة لها على حرمانها الشعور بأن إبراهيم يحبها -
كلا ولا اليقين بأنه لن يحول أو يتغير . فقد فطنت شوشو بسرعة إلى عنصر
الثبات الهادي الرزين في أخلاق إبراهيم ، وحتى لو تغير إبراهيم أو حال من
عهدها فإن ذلك لا يغير الحقيقة الراهنة ولا يمحو السعادة الحاضرة ولا يحرمها
كثرها الذي ترضى به وتعيش عليه . وسألت نفسها وهي في هذه الحالة
النفسية التي يختلط فيها الجلل والألم : أكنت أستطيع أن أحس هذا السرور
الحنى الدقيق مثل هذه القوة لو لم أعلم من سلوك سميحة أن أميز بين الصحيح
والزائف ؟ لو لم تكن هناك عقبة ، لو أن سميحة لا تروهم أختها نجية أن بينها
وبين إبراهيم خباً ؟ أكنت أعترض بحب إبراهيم كنا أفعل الآن ؟ أكنت أعتد
بحبه لي - لي أنا وحدي دونها - عزاء وذخرا لي ، وكنزاً أطويه في أعماق
أعماق قلبي وطلسماً أدفع به الشقاء ، ورقية يبلغ من قوتها وفعلها أن تسلي
القلب لحظة وتنسبه أن كل رقية عيب وكل سلوى محال ؟

ودخلت عليها أختها سميحة وهي على هذه الحال فلم تأخذها بها رحمة وصاحت !

— وما شاء الله . ما شاء الله . طبعاً ياستى . معلومة . ربنا يكون في عونك .
فاحست شوشو بالرغبة في خنق أختها ، وأعلى الأكل في جلدتها بالسياط .
أليست بجرمة ؟ ألم تقض على نفسيين ؟ ألم توكل بهما الشقاء طول العمر ؟
ألم تقمع حياتهما في شبابهما ؟ ولكنها ملكت نفسها ومسحت دموعها واعتدلت
وقد زهاها أنها هي المحبوبة دون سميحة ، وأن سميحة خسرت مثلها ولم
تكسب ، ورمتها بنظرة احتقار مرة ونهضت متثاقلة إلى المرأة فاصلحت
شعرها في صقاتها ثم التفتت إليها وقالت :

— أنا المذنوبة ؟ ربما . على أنى أرجو من فضلك أن لا تلعبى دور الأمم .
لست أكبر منى إلا بعام ، فلست أقبل منك أن تعدى نفسك مربية لى . أكبر
منى ؟ ليتك كنت الصغرى ؟ أعنى ليتك أنت مكافى ، أنت المطلوبة بدلا منى ،
ولكن بخنك هكذا وأحب أن تكونى واثقة أنى لأعيا بك ولا أحترمك ، اعطى
هذا لتربى نفسك وإلا فساكون مضطرة أن أسوء أدبى عليك أمام الناس .
إن ما يعينى يعينى وحدى .

ورضيت شوشو عن نفسها لأنها استطاعت أن تكبح عواطفها وأن تنهض
على أختها التصارها ، وأن تصمد لها على هذا النحو ، وطاف برأسها أن
هذا تأثير إبراهيم ، تأثير روحه القوية التى تأبى أن تنهزم ، هى بلا شك روحه
التي أوحى إليها هذا الموقف الحازم . ولم تكن سميحة تتوقع من أختها هذا
القرء لأنها ألفت الطاعة والانصياع والأدب ، فاذهلها ما سمعت وصدمها
وآلمتها الوحشة ، وكان فيها جبن — والجبن والمكر صاحبان — فاشفقت
أن تسوء العاقبة وأن تفقد كل سلطان على أختها إذا لم تراجع ، وأيقنت
أن العصفور لم يعد فى القفص ، فاقبلت على شوشو تسمح لها شعرها وتلاطفها
وتؤكد لها أنها آسفة وأن العطف عليها هو الذى أطلق لسانها عما قالت وأنها
لا تحب لها أن تدبل زهرة عصفورها بالبكاء .

ولكن شوشو لم تلتن ولم تخدع بل زادها تحول سميحة إلى الملاحظة شعوراً بأنها وفقت إلى ما يجب عليها فنحت يدها عنها وقالت : وكفى نفاقاً . لا تحاولي أن تخدعيني : أليس أقول لك بصراحة أنني لا أحترمك ؟ فإذا تبين مني ؟ ان ملاطفتك أبغض وأثقل من سلاطة لسانك فاذهي عن من فضلك وإلا فانا خير مسئولة .

ولكن سميحة كانت أقوى من أن تظهر الهزيمة ، فقالت :
— كل ما أردت أن أخبرك به هو أن الدكتور محمود جاء وسيبقى الليلة هنا . وقد يسأل عنك فإذا نقول ؟ ان الأوفى أن تنزلي فما يليق أن يطلع على شيء .
فضحكت شوشو وقالت :

— الدكتور محمود جاء . يالها من فرصة ، أعني لك طبعاً .
فغضبت سميحة لهذا التعريض وكان غضبها حقيقياً لا تكلف فيه وثارت بشوشو تعنفها على هذا الكلام الجارح وتحتج على هذه اللهجة :
ولكن شوشو كانت تجد لذة في إيلاء سميحة فسرهما غضبها وعلمت أن الوخزة شكت قلبها وقالت :

— مهلاً . مهلاً . أليس الدكتور كل إبراهيم .. أعني رجلاً ؟ كل ما أشتاء هو أن أخرج للدكتور فيقع في خبائي وأقنصه كما قنصت إبراهيم فتضيق عليك فرصة ثانية . لذلك أكرر لك تهنئي بالفرصة الجديدة وأعدك أن لأرى الدكتور وجهي .

فلم تنطق سميحة هذه المكايدة وخرجت .
وعجبت شوشو لنفسها من أين لها كل هذا الهدوء .

الفصل العاشر

((ثم سمعت صوت السيد قائلا : اذهب))

« آسفة ! »

لم يستطع الدكتور محمود أن يصدق هذا .

« آسفة لأنها ... ماذا قالت ؟ ؟ أوه لا أدري ! لم يعد لي عقل أدري به شيئا .. آه لا تريد أن ترى أحدا .. هذا « الأحد » هو أنا ، لأسبب غير ذلك لا تريد والسلام . مامعنى هذا ؟ معناه ؟ وهل له غير معنى واحد ؟ أختها تخبرني أنها متعبة فأظهرتلى وأعرب عن استعدادي لعيادتها فتبعث إليها بسميحة تبلغها أنى سأعودها : : سأعودها .. هية ، ليست زيارة ولكنها عيادة .. عيادة طبيب لمريض . ، شيء عاды جدا ، ولكنها ترفض رؤيتى ، تأنى أن ترانى ، لا تريد أن ترى أحدا ... وأنا هنا واقف كالبغل ، مامعنى هذا ؟ هاها ! »

كلا . لم يستطع الدكتور أن يفهم ماحدث ، وله العذر ، وكلما أطلال التفكير فى الأمر زاد استغرابه واضطرابه ، وكان هذا أول ماحدث له من هذا القبيل باعتباره طبيبا ، وأول ما جرب الصدمات لرغبته فى الحياة فراح يقطع « الصالون » جيئة وذهابا ويحاول أن يضبط عواطفه ويقتض على الزمام الذى تغلت من يديه ويحدث نفسه بأن لهذا السلوك سرا لعله غير راجع إليه ، وعسى أن يكون هناك شيء يجهله هو ، ربما كانت الصدمة التى تلقاها ليس معنيا بها على وجه التخصيص ، وإنما هى صدمة كان أى إنسان عرضة لها بدلامته ، لو اتفق أى إنسان آخر كان بدلا منه . ولكنها التى لا يفهمه هو أن كل من فى البيت لا يستغرب أن ترفض شوشو أن يراها طبيب على الرغم من أنها متعبة ، وبمباراة أخرى مريضة ، فهل هذا معقول ؟

كيف يتلقون رفضها بالتسليم المطلق ومن غير أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض ، أو يبدو أى أثر للدهشة على أى وجه ؟ ؟ ليست هذه عادة الأسرة ، فان الطبيب أول ما يفكر فيه الكبار والصغار والنساء والرجال والخدم والسادة ، لأنفه انحراف ، حتى الزكام يستقدمون من أجله الطبيب إلى القرية ، ولوكانت المصابة به فاطمة الزنجية ! ولهم هنا فى الإسكندرية طبيب لا يعودهم سواء ، وينقدونه أجره فى المواسم الزراعية ، لا بعد كل زيارة فما معنى هذا ؟ ما الباعث لشوشو على الالباء ولأختيها على السكوت ؟

ووقف أمام البيانو ينظر إلى الصورة واللعب المرصوفة فوقه ، وأخرج سيجارة وقدح عودا من الكبريت ورفع له ليشعل به السيجارة ولكن خاطرا جال فى ذهنه فحنى السيجارة عن فمه قبل أن تشعل وسأل نفسه : « ولكن هل هى مريضة ؟ ان شكى عظيم ! كلا ! لا يمكن أن تكون متوعكة وتأتى أن يراها طبيب . كل ما أعرفه عنها وعن الأسرة كلها يحملنى على الاعتقاد بان المرض دعوى » . وهز رأسه كأنما أوشك أن يهتدى إلى السر ويقع على حل للغز ، وأشعل السيجارة وزم شففيه وأرسل الدخان خيطا طويلا إلى فوق كما يفعل المرء وهو يفكر ، وكاد يبتسم ابتسامة الرضى عن النفس والارتياح إلى ما أبدى من الذكاء والفطنة ، ولكنه عبس ولم يبتسم ، عبس لأنه تذكر هيئة نجية وهى تشكره على اقتراحه أن يعودها ، وتقول له : « أوه يابنى والنبي كتر خيرك ، أحسن البنت مش عارفه جرالها إليه : لو تشوفها ماتعرفهاش . مابقلهاش شكل . روحى ياسميحة ياخى قولى لها الدكتور جاي يشوفها . إياك على الله يابنى امال ، لحسن موريانا الصديد » فكيف لا تكون مريضة وهذا كلام أختها ، وتلك لهجتها ؟

ووقفت فى هذه اللحظة سميحة فى مدخل الباب وقطعت عليه التفكير بسؤال :

— يادكتور ابن عمى هنا ؟

فالتفت إليها وقال : « لا . اسمعى . »

فدخلت وحار كيف يسألها عن شوشو وكيف يتشأن أن يثير شكوكها
بسؤاله ، ولكن مهنته أسعفته فقال :

— كيف أخذك الآن أرجو أن تكون حقيقة في غنى عن الطبيب
فقلت وهزت كتفها :

— أختي وو ..

فلم يفهم هذه اللغة ، لغة الأكتاف المهزوزة ، والشفاه المملوطة ،
ولم يدر أيطمئن لما يتبينه في لهجتها من الاستخفاف أم يقلق لما تم عليه
حركتها من الامتناع والضيق .

فقلت سميحة ولا « ممطوطة جدا » — إنك لا تعرف شوشو يا دكتور
هي هكذا دائما . دعك منها فلا أمل في صلاحها :

فقال : « إني آسف لسماع هذا ، فقد كنت أظن أنها أعقل .. »
فقاطعت : « أعقل ؟ ها ها ! ليس في رأسها رائحة العقل . هل
يفرك منها ظاهرها ؟ آه لو عاشرتها ! ولكن الكلام عيب ، أرجو
أن تدع سيرتها ، فإنها تؤلني ، أتي أتحمس كلما رأيتها كل يوم . ولكن
ماذا نقول ؟ ربنا هو الهادي ! »

فلم يدر الدكتور ماذا يقول ردا على كلامها وتنقصها لشوشو وآله
أن يسمع هذه الزرابة ، ولكن كيف يدخل بين الأختين ؟ وسميحة هي
الكبرى ، فأسفها معقول . إذا صبح أن شوشو كما تصف ؟ كيف يمكن ؟
لأنها تبالي ولا شك ..

وكأنما أدركت سميحة أن الشك يخالج الدكتور فقلت :

— أنت معذور إذا لم تصدق ، لأنك لا ترى شيئا . ولو كنت غريبا
عنا لما كاشفتك بما في نفسي من الأسف والألم ، وقد ضاق صدري
ولم أجد أعرف ماذا أصنع ، حتى أختي نجيه وهي كأي أختها الحيل ،
بالطبع ليس هناك شيء معيب ، هذا بديهي ولكن تصور أنها مثلا
لا تعرف شيئا عن شئون البيت وتديره ولوازمه ، يكون معها الشيء

فخلقيه حينما اتفق وتكون غرفتها « كسوق الكانتو » والحادمة مشغولة فلا تكلف نفسها كنسها أو ترتيبها ، ولو ظلت شهرا على هذا الحال ، وتعطيها مبلغا فإذا سألتها عنه كيف أنفق اكتفت بأن تقول لك « في البيت » حتى كتبها التي تحبس نفسها في غرفتها أياما لتقرأها أنا التي أرتبها وأنظفها وأنفص التراب عنها ولا تستطيع أن تشتري لنفسها منديلا أو تفصل ثوبا .. وهذا كل ما استفادته من المدرسة ! الكتب ليس إلا ، وماذا أقول ؟ أقول تفكر

تتحسر ؟

وتنهدت .

ووقف هو كالأبله .

وظهر الشيخ على في الباب فسد فضاءه .

وتسللت سميحة فخرجت من باب آخر .

وقال الشيخ عل وهو يدنو من الدكتور ، أو على الأصح صاح به :

— في الحديقة يكون منظر ك أحسن . ليس هنا مكان التماثيل ، الغرفة

أضيق من أن تسع لتمثال كبير . في الحديقة . تعال نختبر المواقف وننتق أوفقها ، أوه ما هذا ؟

ومد يده فجس جيب الدكتور فصار وجهه كالجمرة .

وقال الشيخ على : « أتفاح هذا ؟ لماذا تحمله في جيوبك ؟ لا ليس هذا

تفاحا . أهو فحم كوك ؟ » .

وضحك وقد أعجبه منظر الدكتور يحمل في جيبه فحم « كوك » .

فابتسم الدكتور وقال « فحم ؟ لا لا ، ولكنه لم يمدد يده إلى جيبه ولم

يخرج ما فيه ، وكيف يخرج علبتي الخلقان ويربهما للشيخ على ؟ ومع ذلك

لماذا لا يفعل ؟ هل كان ينوى أن يقدمها سرا ؟ كلا ولكنه لم يكن يفترض

أن يكون الشيخ على حاضرا ساعة الاهداء ، ولا بأس بان يعرف الحكاية

بعد أن يتم الأمر أو يكون هو قد رجع إلى المركز .

واستحيا أن يخفي الأمر عن الشيخ على ، وخطر له أن هذه قد تكون

فرصة أتاحت للتخلص من الحلقان التي أنسبها لما صدمته شوشو برفض عيادته ، فأخرج العلبتين ، ومد بهما يده للشيخ على ففتحتهما هذا وقال :
... حلقان ؟ ها ها ! تكاثرت الغباء على خراش ! ! بل على العكس ،
تكاثرت على الغاية الخراشون .

فلم يفهم الدكتور ، وخيل إليه أن قريبه يهذى ، خراش وغباء ماذا يعنى ؟ ورفع إلى الشيخ وجهها كله علامة استفهام .

فقال الشيخ على ، وهو يدق كتفه بيده الكبيرة « لم يخطيء ظنى يا صاحبي ! وما صدف لك دواء هو خير من كل طبك الذي لا ينفع أحدا ، طبك الذي يخونك الآن ، طبك الذي ترفضه شوشو . . آه . . لقد فضحك وجهك . . فاسمع : دواؤك أن تخرج إلى البحر وهو من هنا قريب ، مائة خطوة ، ومعك هذان الحلقان ، فتلقبهما فيه وتلقى نفسك وراءهما هنا هو دواؤك . فلا أمل لك في شوشو . ومتى قال الشيخ على هذا فيجب على قريبه أن يصدقها فذهب إلى البحر . تعال معي فقد تحتاج إلى معونتي » .

القسم الثالث

لانى دعوت فاييتم ، ومددت يدي وليس
من يبالى ، فاننا ايضا اضحك عند بلبيتكم

الفصل الأول

كيف أصبح لك عن هذه

لو رأى القارئ إبراهيم في الأتصر بعد الذي سردناه لك في الفصول السابقة لحسبه من طلاب الآثار أو على الأقل من المولعين بدرس العاديات المصرية . فقد كان يقضى نهاره كله في الهياكل والمقابر ، والهزيع الثاني من الليل مكباً على الكتب . أو مدوناً ملاحظاته وآرائه فيما شهد في يومه ، وقد استغنى عن الأدلاء بطائفة متخيرة من الكتب التي وضعها العلماء والكاشفون عن الآثار أو المفتشون الأجانب التابعون للحكومة المصرية ، وكان يحلو له أن يجلس على صخرة بين الأطلال ويلهب يفكر — لا فيما يحيط به من المعاهد الدارسة ، بل في هذه الصحراء العارية التي تكتنف كل شيء ، والتي عظم وقعها في نفسه حتى لراح يتمنى أن يرزقه الله القدرة على نقل هذه الصحراء وحملها معه في حلة وترحاله وفرشها وبسطها حوله في حيناً يكون من الأرض — نعم ليت هذا في وسعها ! إذن لاستطاع أن يطويها كلما غادر بقعتها وأن يلفها مع ثيابه وأشياءه في حقائبه ، حتى إذا نزل مكاناً واستوحشت نفسه أنس بأن يخرجها وينشرها أمامه ويتأملها ويلكر بها لياليه فيها بما اشتملت عليه — فقد صارت نفسه فيما يرى كهذه الصحراء : تربة بكرت تغلوها الشمس ولكن خيرها دفين فيها ، فظاهرها مجذب ووجهها أجرد ، ولا علم لأحد بما في جوفها وبما كان يمكن أن يخرج منها لو أن الحياة لم توسعها حرماناً مما أغدقته على غيرها من رقع الأرض ، وكذلك هو : أخطأه الحظ في ناحية ، فأجذب ظاهره وبقي باطنه زائحاً بقوة الحياة المكنونة فيه .

ولم يستغرب إبراهيم نشوء هذه « العاطفة » في نفسه للصحراء ، فقد قرأ — أين ياترى ؟ ما أنحون ذاكرته في هذه الأيام — أن بعضهم

كان يقرأ وصفاً للصحراء الكبرى فأدهشه أن يحس أن أنفه قد غطته البقع
فأمسك عن القراءة مخافة أن تخرج على بدنه الحصف من لفح ما يصف
الكاتب .

وهز رأسه وتساءل وهو يدير عينه في الفضاء والخراب حوله .

— ماهي هذه المدينة ؟ أمي شرط مرتبط « بالإنسانية والمروعة » ؟ بانقطاع
العذاب أو التعذيب ؟ كلا فقد كانت أشور على حظ عظيم من المدنية وكان
أهلها مع ذلك يسامحون جلود الأسرى من أعدائهم وهم أحياء ، وكانوا
يقعدونهم على الخوازيق وكانوا يتركون الآلاف من الجرحى يتعذبون كما
يموتون في حومة القتال !! وروما أيضاً كانت مركزاً للحضارة في
أيامها ، ومع ذلك كان أبنائها يلتذون برؤية مناظر الفتك — فتك
الحيوان بالإنسان والإنسان بالحيوان ومشاهد الدماء سائلة منهما كليهما .
ومصر التي تهرني آثار مدنيها ماذا تقول نقوشها على جدران هياكلها ؟
ماذا يقول الهرم وحده ؟؟ في كم سنة بنى وكم روحاً زهقت في سبيل
حجارته ؟ .

« أم ترى للمدنية علاقة بحقوق الفرد في ظل الديمقراطية ؟ ولا هذا
أيضاً فإن أوربة وأمريكا متحضرتان ولكنهما تستخدمان الجموع المدربة
والجماهير المنظمة في جيوشهما وفي التجمعات الحرف فيهما وبذلك يتيسر
تحقيق تأرب القليلين باستغلال طاعة الكثيرين ، ويبلغون غايتهم كما يفعل
زعماء قبائل « الزولو » المستوحشة بقوة « العدد » ، وبفضل الكثرة
المدربة على الطاعة . والرأي العام ماذا يبقى للفرد من الحقوق في ظل
الديمقراطية ؟ .

« أم المدنية مرتبطة بالشرف والنزاهة ؟ حتى ولا هذا فإن الفساد
والرشوة فاشيان في أرقى الجماعات مدنية حتى لكان المدنية تعين على
استفاضتها .

« ماذا إذن ؟ أترى علاقتها بالفضائل الجنسية ؟ » .

«هنا ابتسم وقال لنفسه «إن جو المدينة أصلح ما يكون للردائل الجنسية»
وتلفتت عينه إلى ناحية الفندق الذى ينزل فيه .

ومل هذا السرد والتقى . ونهض وهو يقول «إلى أن يجيء ذلك اليوم
الذى يدرك فيه الناس — كل أحد — أن الرقى العقلى وحده ، أن الكولتور
الذى صمدع رءوسنا به الألمان — إن المدنية التى نلهج بها ليست هى الآخر بل
الأول ، ولا النهاية بل الابتداء ولا الغاية بل الوسيلة ، ولا الحصاد بل
الثمرة — إلى أن يجيء هذا اليوم فلن يكون رقى الإنسان مستحقاً للمذكر
إن روح الإنسان هو المهم .»

وانحدر إلى مقبرة أمنحوتب الثانى وهبط الدرج المنحوت فى الصخر
وعبر الجسر الذى أقيم فى هذا العصر فوق البئر ، ودخل القاعة ذات
العمودين ونزل سلالم أخرى إلى قاعة ذات ستة أعمدة ، وجدرانها مغطاة
بالنقوش والمناظر المنقولة عن «كتاب ما فى الآخرة» ، ومضى إلى آخرها
وأطل على تابوت الملك وأشار إلى الحارس فأطفا الأنوار الكهربائية ولم
يبق إلا المصباح الذى يلقى ضوءه على مومياء الملك الراقد وكأنه نائم ،
وقال لنفسه وهو يتأمله .

— إن هذه الأعضاء النحيفة المعروقة كانت فى حياة صاحبها مكسوة
باللحم قوية العضل ، وكان هذا ملكاً قوى الجسم وكان يتزعزع قوساً لا يقدر
أحد من حاشيته أو جنوده أن يتزعزعا . وكان حاكماً قوياً شديداً البطش
عظيم اليأس ، ولقد وسعه أن يضم شتات الدول العديدة والشعوب
المختلفة التى أدخلها هو وأبوه من قبله فى دائرة ملكه ، وكان قاصياً على
خلاف أبيه حتى لقيى عنه أنه ذبح بيده عدداً من الأمراء الذين ثاروا
عليه وربط واحداً من رجاله وحلقه مقلوباً يتدلى من السفينة — رأسه إلى
الماء ورجلاه إلى السماء — هذا كله كان منذ ثلاثة وثلاثين قرناً ومع
ذلك يحس المرء وهو ينظر إلى نضارة ألوان التابوت ودهان الجدران كأن
مصر القديمة ليست بعيدة منا كما كان يتصور — ثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة

فوقها ليست شيئاً - يعبرها الخاطر بسرعة وسهولة ولا يحس مسافتها
ولا يشعر بمشقة هذه الرجعة ! فهل كان هذا الزمن لا شيء على الحقيقة ؟
هل مسافة هذه الحقب الطويلة المديدة التي تشبه الابد ، وهم ليس إلا ؟
عجيب .. عجيب ! »

وانثى إلى غرفة صغيرة فيها ثلاث موميات مجهولة الأصحاب :
مومياء عجوز لا يزال شعرها الذي أشابته الأيام يلصق كالفضة ، ومومياء
فتى لا يتجاوز الرابعة عشرة على صدغه خصلة من الشعر ...

ونحى إبراهيم عينه وهو يقول : آخر كل شيء هذا .. آخر الحزن
والسرور .. آخر السعادة والشقاء ... آخر المجد والعزة والذلة والحمول ،
آخر الشهرة وآخر الخفاء .. باطل الأباطيل الككل باطل .. صدق ابن
داود .. صدق سليمان ..

وخرج من القبر وعاد إلى الفندق .

- ٢ -

ولم تبارحه صورة شوشو لحظة ، ولم تخمد وقدة حبه لها ولا انقطع
حنينه إليها ، لكن بضعة أيام بين هذه الأطلال والمقابر والمومياءات
والصحراء قللت من حدة غصبه على أختها نجية وإن لم تنقض عزمه المبرم
ومكنته من أن يتدبر ما حدث وهو ساكن . فاستطاع أن يقنع نفسه بأن
ردّها عليه ليس فيه ما يسوء ولا هو يجهز على الأمل ويمنع الرجاء أن يكون
له محل ، وماذا قالت له ؟ أنها لم تزد على أن قالت أن إبراهيم كشقيقها
وليس أبعث على سرورها من أن يكون زوج أختها ، ولكن شوشو هي
الصغرى ، هناك سميحة وهي أكبر منها ، فإذا تزوج شوشو فقد قطع
الطريق على سميحة ، وخلق بألسنة السوء أن تذهب تخلق أسباباً شائنة
لتخطئ سميحة . فهل يرضى هو هذا ؟ وهما أختان ولا فضل فيما ترى .

لشوشو على سميحة ، فإذا شاء أن يتزوج سميحة ، فهي له بلا مهر ولا قيد ولا شرط .

هذا كل ما حدث ، وهو عين ما كان يتوقع ، وصحيح أنه بلغه أن نجية خلقت أن لا تعطيه شوشو ولو ملأ حجرها ذهباً ، ولكن لماذا قالت ذلك ؟ ما الذي أنطقها بهذه الكلمة الجارحة ؟ إنه الشيخ على ! نعم هو . فقد أراد أن يحملها على القبول والتساهل ، وكان عنيفاً كمادته ، وهاجها بسخره ، فغضبت وقالت ما قالت ، ولا يزال صحيحاً أن عدواً عاقلاً خير من صديق جاهل .

وابتسم . . الشيخ على صديق جاهل ؟ كلا ! إنه الإخلاص بجسداً ، والذكاء مصوراً ، ولكن ذكائه خائنه هذه المرة ، فندت الكلمة الجارحة عن صدر نجية أكل ما تنطوى عليه من مرارة وخيبة أمل كانت سميحة مناظله . ومن يرد الكلمة بعد أن تخرج ؟ من بعيد العصفور بعد أن ينطلق من قفصه ؟

هذه هي المسألة ، فلا سبيل إلى إعادة الكرة . نعم لم يذهب الأمل ، ولكنه هو لا يستطيع أن يتقدم مرة أخرى طالباً أو خاطباً . كلا . هذا محال ومحال مثله أن يرى شوشو . . . وكيف يراها وأين ؟ وإذا لم تنقذ نجية إلى الرضى ولم تتقدم من لقاء نفسها إلى إبراهيم ، فكل رجاء صيب ؛ ويجب أن تراض النفس على مرارة الحرمان ؛ واحتمال البعد .

وشعر بالدم يغلي في عروقه وهو يفكر في كلمة نجية ، كيف يستطيع أن يرى وجهها بعد الآن ؟ ؟ كيف يمكن أن يصفو لها قلبه مرة أخرى ؟ لو ملأ لها حجرها ذهباً ؟ نجية تقول هذا . . . وهي مع ذلك مستعدة أن تزوجه سميحة بلا مهر ! ها ! وأدار وجهه . كأنما أراد لينقذ أن يراها ، وتصاب وجهه وثبت حملاق عينه

وصرت أسنانه وهو يقرضها من الغيظ وصار منظره مفرعا ، وكانت فتاة مصرية تمر به وهو لا يراها ، فوقفت وارتفعت يدها البضة إلى قلبها ، ثم رجعت من حيث جاءت ، وولت هاربة .

وزايلته النوبة ، وعأوده السكون ورجع يسأل نفسه ، كيف ؟ كيف ؟ كيف تكون رياضة النفس ؟ هذه هي المسألة ، لا تلك . كل شيء يهون إذا استراح القلب إلى الفراق ووطن المرء نفسه على احتمال عذابه .

غير أن الاضطراب لم يطل ، لأنه كان أصبح تفكيراً وأسلم نظراً من أن يدع نفسه يتخبط ، فلم يلبث أن سخر من نفسه وقال يعنفها ، ما سؤالى هذا عن الكيف ؟ إنه لا محل له . وسواء استراح القلب إلى الفراق أم لم يسترح ، فالفراق موجود ، أما العذاب فهل لم أحتمله إلى الآن ؟ لا أدري . كيف ، ولكن الذى أدريه أنى احتملته والسلام ، ولست أرى أنى نخرت أو وهنت فيجب أن أضغ حداً لتخليط النفس . نعم لا يجوز أن أسمع لها بأن تحبلى امرأة لا تعرف إلا البكاء .

وشوشو ! مسكينة مسكينة ! حزنها دفين فى صدرها . وليس لها ما يعينها على التسل ، بل كل شيء يؤجج النار التى فى قلبها ، ولا صديق بجانبها أو صديقة ، كل ما حولها عدو لها ، ما خلا الشيخ على وهو لا يسعه كثير ، ولو كان فى مقدوره شيء لما حدث ما حدث ، فخطبها أدهى ، ومصيبتها أعظم ، ألا أبرق للشيخ على أوصيه بها خيراً ؟ يحسن ولا يحسن ، ولو أمكن أن ترسل البرقية إلى غير بيته . . ولكن هذا غير ميسور ، وإذا وصل التلغراف فسيعلمون جميعاً بأمره ويسألونه عنه ، وربما كان الآن فى القرية فيفتحونه ويطلعوا عليه فيقع المحذور . كلا . ومع ذلك ما الحاجة

إلى إيصاء الشيخ على ؟ ثم إني . . نعم يجب أن أقطع الصلة الآن . . كل
القطع . . وفي خلال ذلك ماذا ؟

لا أعلم سوى أن قول القائل :

إن من مائة الزمان بشيء لحقيق إذن بأن ينسلي

يدور بنفسه ، صلتى . ولكن ذهني لايسعني باقتراح . فلندع
الأمر للمصادفة ، وبحسبي الآن كأس من الويسكى .

وصفق .

الفصل الثانى

« كل طرق الإنسان نقية فى عيني نفسه »

— ١ —

كان الشيخ حلى لا يزال راقداً فى سريره وإن كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ، ولم يكن نائماً ولكنه يتسمع ، وكان سريره يسد باباً مؤدياً إلى غرفة مجاورة ، وكانت سميحة وأختها الكبرى نجية فيها ، وكانت سميحة تقول وهى تخلع برقماً أسود تسدله على وجهها حين تريد أن تخرج متنكرة ، لأنه كثيف يغطى الوجه كله ما عدا العينين :

— أعوذ بالله من البيت يا أختى ! لم أر فى حياتى أقلر منه ولا أضيق :
غرفة واحدة فى الدور الأول لها نافذة مفردة مسدودة بالخصير والهواء يتغلغل منها . والبرد فيها شديد ، وهى جالسة على وسادة فوق الخصير ، وفى أصابعها خواتم من الفضة ، وفى أذنها قرطان كبيران من الفضة أيضاً ، وعلى ساقها خلخالان من الفضة كذلك . لا شئ من الذهب أبداً . كل ما تتحلى به من فضة . ووجهها سمح ونظراتها حلوة . وقد كنت أول من دخل ولكنها لم تنزل إلا بعد أن أزدحم البيت — الغرفة والسلام — بالنساء . وكان النساء يتناولن طعامهن — بعضهن جئن به معهن — طعمية ودقة وكسرات من الخبز المقدد — وبعضهن اشترين سميطاً وجبناً أو بيضاً من رجل يبيع ذلك فى سلة كبيرة جلس بها إلى جانب الباب . وماذا أقول لك ؟ لقد كان المكان كالزريبة ! أما الضوضاء فأعوذ بالله منها ! لقد صدعت لى رأسى . ومع أنى كنت لابسة هذا الإزار الخلق الذى استعرت من فاطمة ، فقد أحسست أنى غريبة بين هؤلاء النسوة .

فقاطتها نجية قائلة :

— وماذا قالت لك ؟

وكانت سميحة قد كورت البرقع وهى تتكلم فألقته على الكتبة وهمت

قليلا لتسحب الإزار من تحتها ثم جمعتها وكومتها وقذفت به وراء البرقع ونهبت ثم قالت :

— قالت ؟ لقد قالت لي كل شيء ! روت لي الماضي كله وكشفت لي عن المستقبل أيضاً . كيف عرفت يا أنحنى ؟ إن هذا لغريب والله ! لكأنني كنت في حلم حتى ما كنت نسيته أذكرني به . لقد ذهبت إطاعة لك فقط ، ولم أكن أعتقد أنها ستعرف شيئاً ، أو أنها ستنبئني بماض أو حاضر ، وكنت أقول لنفسي في الطريق : ومن أين لها العلم بشيء ؟ إن هذا كله دجل ولكني لم أكد أجلس إليها وأناؤها المنديل حتى قلبته في كفيها وقالت : « هي ! لا تصدق ! إيش عرفها دي رخررة ؟ معلش ! يمكن يعطى سره لأضعف خلقه . مين عارف ! أهو حاشوف بعينا ونسمع بودنا » وأقول لك الحق يا أنحنى لقد دهشت وخجلت من إنكارى قدرتها على الإنباء بالغيب ، وضحكت مستغربة لأنها كانت تتكلم وهي مطرقة وكأنها تقرأ في كتاب .

فقالت نجمة :

— ألم أقل لك ! ليس مثلها ، كل من رآها يروى عنها الغرائب ، ولكن ماذا قالت لك !

— « قالت لي ! وهل تركت لي شيئاً لم تقله ! حدثني عن شوشو وعن إبراهيم ابن خالتي وعن الدكتور محمود . ليس بالإسم طبعاً ولكن بالوصف . أبوه قالت لي « آل ! طيب ماعلهش ! بكره نعقل ونرجع نقول ياريت اللي جرى ما كان ! لكن نقول إيه ونعيد إيه ؟ هو الضفر يطلع من اللحم ؟ هي ! لكن ده مش ممكن . ولا لما نشوف لبن العصفور ، وازاي ده يجي ؟ ده كلام عقلا ولا مجانين ؟ لأ برده عقلا بس المكتوب على الجبين ، واهو عمل عملوه ولاد الحرام والسلام » .

نجمة مقاطعة . « شوفي يا أنحنى ناصحة صحيح ! وهل لم تصف لك شيئاً يفك العمل ؟ » .

فقلت سميحة : و آه ! قالت لى فى الآخر هاتى حاجة أقرأ لك عليها ثم
خديها واعطيها له لياكلها فيفك العمل بإذن الله . فقلت لها إنه مسافر وبعيد
جداً ، فقلت إنها تعرف ذلك ، فهاتى الحاجة أولاً وبعد ذلك تكون
إرادة الله .

فوضعت نجية كفها على خدها واثكأت بكوعها على ركبتيها وقالت :
— ولكن أى حاجة ؟ ألم تفكرى فى شىء يصلح ؟
ووقفت سميحة وهى تقول بصوت أعلى قليلاً :
— لقد فكرت فى كل شىء ، وهل يربكنى شىء ؟
ثم مالت فوق أختها وقالت :

« فكرت أن أشتري شركولاتة — صندوق كبير يصلح أن يكون هدية .
أقدمه لها تقرأ عليه ثم أرسله فى البوستة إذا كان لا يزال باقياً فى الأقصر .
فأقولك ؟ » .

فدنت نجية يدها حتى لمست رأس أختها ومسحته وقالت بلهجة الإعجاب :
« يهرسك ربى من العين . يهرسك ربى من العين »
وتلفتت يمينا وشمالا .

— ٢ —

قال الشيخ على لما سمع هذا :

« مهم ! شكولاتة مسحورة ! تحبب فيها إبراهيم ! » .

واستوى قاعدا على السرير . وكان الشيخ على — على الرغم من
نشأته الأزهرية واختلاطه الدائم بالفلاحين والعوام وخرافاتهم وأوهامهم —
لا يؤمن بشىء من ذلك ولا يطبق الصبر عليه ، وقد هاجه أن عرف أن
زوجه أغرت أختها بالخروج خلصة فى البكور والالتجاء إلى امرأة سوقية
دجالة ، وأنها هدمت بذلك كل ما بناه التعليم الحديث ، وزاد غضبه

أن زوجته تتغفله وتدور من وراء خديعته وتلجأ إلى مثل هذه السخافات معتقدة أنها ستجلبها وأنها ستحمل إبراهيم على الاقتناع بالتزوج من سميحة ، فهي إذن لم تعبأ برأيه ولم تكثرث لنصيحته ولم تحفل بما أمرها به من الكف عن محاولة التقريب بين إبراهيم وسميحة ، ولم تصدقه حين قال لها إن إبراهيم لا يطيق سميحة وأنه إنما يحب شوشو ، ثم هي لا يكفها أنها حالت بين شوشو وإبراهيم ، وأنها رفضت وساطته وكان واجبها أن تطيعه ، وأن أطلقت لسانها بما أطار إبراهيم إلى الأقصر وهو موغر الصدر مهيب الكرامة ، وأن جعلت إبراهيم حقيقاً أن يعتقد أن الشيخ على لا رأى له ولا إرادة ولا سلطان له في بيته ، لا يكفها كل هذا ، بل يجب أيضاً أن تتعلق بالسحر « والكتابة » وتجر أختها معها ، وتعلمها هذا الكلام الفارغ وتغريها بهذه المساخر التي لا تليق .

وهز الشيخ على رأسه ، وهو يفكر في هذا ، ويتأمل ما صار إليه أمره مع زوجته من الفتور ، ومع سميحة من الكراهية والنفور ، واثنتي خاطره إلى شوشو المسكينة التي لا صديق لها ولا معين سواء في هذا البيت ، والتي لا تبارح غرفتها مادام هو بعيداً عن البيت ، حتى حال لونها وغارت عيناها ونهضم وجهها وفقد جسمها نشاطه وليته ومرونته .

ومضى .

فلم تدخل زوجته ، فقد صار لا يجب أن يراها وإذا جاءت إليه صرفها من غير أن يرفع وجهه إليها وأمرها أن تدعو الخادمة .

ودخلت الخادمة فقال وهو مطرق :

« شوشو » .

فخرجت في طلبها .

ودخلت « زوزو » ابنته وقالت :

— بابا .

— نعم .

ورفعها إليه وأجلسها على رجله — فوق اللحاف . وقبلها .

— متى نذهب إلى أبي قير ؟

— اليوم .

— صحيح ؟

وصفقت يديها الصغيرتين ثم نهضت على ركبتيها وطوقته وأوسعته
في تقبيلها في عينيه وأنفه وخدييه وأذنيه .

ونقرت شوشو على الباب ثم دخلت متناقلة متحاملة تجر رجلها ، وعلى
شفتها ابتسامة ليست في عينها فقد لها الشيخ على ذراعيه وقد فاض لها قلبه
الكبير بالعطف والحب فأسرعت إلى يمينه وأهوت عليها تلتصقا ، فانتزعها
وهو يتكلم الابتسام :

— بل هنا . أسرعى فإن جلدة وجهي تأكلني .

فابتسمت له وقد شعرت بشيء من التسرية في حضرته ، وطبعت على
سحده قبلة بتوبة صامتة ، ثم مالت إلى زوزو وعانقتها ونمتها كأنها تفيض
عليها من ذلك الحب الدفين في صدرها المحبوس بين ضلوعها ، وأغرورقت
عينها الشيخ على وهو يراها وقد تعلق كل منهما بالآخرى ، ثم رفع وجهه
إلى السقف وقال متمتعا : « الله يجازيك يا نجية ! » .

ثم ضبط نفسه وكبح عاطفته وقال :

— شوشو .

خلعتت إليه وجهها الساكن الحزين وقالت :

« نعم » ولم تزد .

فقال وهو يردد « يا زوزو :

— زوزو تقترح أن نذهب إلى أبي قير ونقضى بقية النهار هناك ، وقد وعدتها فما قولك ؟

فقلت : « أمرك » .

فقال وهو يميل نحوها وبكاد السرير يميل معه :

— أنت معنا ؟ قولى نعم .

ولكنها لم تقل نعم ، وإنما قالت كالمستغربة .

— أنا ؟ حاضر .

فأحس الشيخ على كأن بعض ضلوعه يتقصف من فرط التوجع لها ، على أنه ملك نفسه وقال :

— لا أراك يسرك هذا .

فقلت بلهجة من ينكر أن شيئاً يسره أو الساخر من أن فى الدنيا ما يسر .

— يسرنى ؟ أوه . لماذا لا يسرنى ؟

فلجأ الشيخ على إلى المزاح ليرفه عن نفسه وعن شوشو أيضاً وقال وهو يقلد فتورها ويبالغ فى التقليد

— لأنك تقولين « أنا ! حاضر ! » هكذا .

فابتسمت شوشو — بشفتها فقط ، فقد خبا الضياء الذى كان فى عينها ولم يبق لهما إلا ظلام العمق ، وقالت :

— ماذا كان ينبئ أن أقول إذن ؟

فضى الشيخ على فى مزاحه وإن كان قلبه يتمزق وقال :

— لا تقولى شيئاً . كان ينبئ أن تقبلى على وتطوقين بذراعيك

وتقبلينى هنا وهنا . هيه ؟

فضحكت ، ورتت ضحكها فضية الثبرات ، ولكنها كانت ضحكة

قصيرة وكأنما اختصرتها شوشو ، واستغربتها ، ولكن الباحث على الضحك لم يكن قد انقطع مع الضحكة ، فنظرت إلى ذراعيها ممدودتين أمامها كأنما كانت تقيسهما لترى أيكفيان لتطويق هذه « الدبة » ، وجمال برأس الشيخ على خاطر كهذا فقهقه ، فارتج السريبر وفزعت زوزو في أول الأمر ثم أدركت أنه إنما يضحك فتهافتت على اللحاف ودفنت وجهها بين طياته وهي تضحك مسرورة جدلة .

الفصل الثالث

« من هذه الطائفة من البرية ؟ »

— ١ —

مضى أسبوع على إبراهيم وهو في الأقصر — وحده — لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد سوى موظفي الفندق الذين أفضى إليهم — كما هي العادة — باسمه ومهنته وما إلى ذلك ، حتى طعامه كان يتناوله وحده في أوقاته على مائدة صغيرة أصر على أن يتفرد بها على الرغم من ازدحام الفندق بالأجانب من كل أمة وبالمصريين كذلك ، وقد لفت الأنظار إليه إثاره العزلة وحرصه عليها وذهوله عن كل ما يجري حوله كأنه لا يرى ولا يسمع ، وإكبابه على القراءة والكتابة ، وعنايته بالآثار ، وقد التقى به كثير من النزلاء — رجالا ونساء — في معبدى الأقصر والكرنك وفي وادى الملوك ولاحظوا نفوره من الناس وشرود نظراته واستغراق خواطره له ، فلهجوا بأمره فيما بينهم وتلاخطوا بحديثه وهو غافل معرض عنهم كأنه ليس من بنى الإنسان ، وتساءلوا عنه ودفع الفضول بعضهم فسأل عنه كاتب الفندق فعلموا منه كل مدون في سجله — وما أقل ذلك — وما كادوا يعرفون أنه أديب وكاتب حتى استفاض الخبر وتجسم الأمر وصارت لإبراهيم شهرة واحترام لم يكن يدرى بهما في هذا الفندق ولو عرف الحقيقة لرحل للتو والساعة .

واتفق أنه كان عائدا مرة من وادى الملكات ، وكانت الشمس قد مالَت إلى المغرب ، فلما وصل إلى حيث التمثالان الكبيران قائمان بين الزروع ، حانت منه التفاتة إليهما فإذا على الحشائش فتاة مصرية الوجه ولكنها في ثياب أجنبية وقد مدت رجلها وأسندت ظهرها إلى قاعدة التمثال وحدثت في الأفق بنظرها ، فكبح البغل الذى يجرب عربته —

وكانت من النوع الذى يسمونه « السنكارة » وهى مركبة مكشوفة تسع اثنين على عجلتين عريضتين - ووثب إلى الأرض وقد طاف برأسه أن الفتاة متعبة وأنها تستريح ، وتقدم إليها وعرض عليها مركبته ، ولكنها شكرته ورفضت ، مؤكدة له أنها لامتعبة ولا تائهة وأن له أن يطمئن وأن يثق فى أنها ستعود سالمة .

وكانت الفتاة أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، وكان قدما نحىلا ولكن جسمها ناضج ، ووجهها ظريف الحركة حلو التعبير ، وليس فى مظهرها ولا فى ثيابها ما يدل على العامية ، وكان لونها على سمرة رائقاً صافياً ، ومع أنها كانت فى رأى العين صغيرة السن فقد كان فى سهاها ما ينبئ أنها فكرت كثيراً وعرفت فوق ما يعرف أترابها ، وكانت معارف محياها دقيقة جميلة ، ولكنه محيا أجهل ما فيه ما ينطق به ، ولعل السر فى ذلك أو الفضل فيه راجع إلى عينيها وفها ، فقد كانت العينان عسلتين وأهدابهما طويلة ، ولم تكن العين واسعة ولكنه لم يكن فيها شئ من المكر ، وكانت إذا رفعها فجأة يباعث من الدهشة أو السرور أو الغضب أو غير ذلك لا يسع المرء إلا أن يقتنع بحماها وفتنتها ، وكان حاجباها كثيفين ومقوسين وجبينها واسعا عريضاً نحىلاً للمرأة أن لصاحبه ملكة شعرية ، وعليه من شعرها الأسود خصل ملتوية يعيث بها النسيم . ولكن أغرب ما فيها فها ، ذلك أنه لم يكن من الصغر بحيث يفسد تناسب الوجه وحسنه ، ولكن الشفتين كانتا حادثين حاسمتين باردتين ، وكان لونهما سرياً ولكنهما لا تفتران عفوا مع كل خاطر ، وإنما تتحركان بالإرادة . وفى هاتين الشفتين ، وفى صلابتهما على الرغم من لينهما ، شئ يجعل الفتاة تبدو أكبر مما هى فى الواقع ، فعيناها البراقتان العسلتان ، وخداها المستديران - هذه هى كل معارف الفتاة الصغيرة . أما جبينها وفها فتلك معارف المرأة التى خلفت الشباب وراها ودبت بها الرجل بين وعور الحياة .

وشاءت الأقدار أن تمطر السماء فى ذلك المساء رذاذاً ضئيلاً بعد أن

ركب إبراهيم الزورق وهم صاحبه أن يدفعه إلى شاطئ الأقصر قبالة الفندق ، وقلما يتزل من المطر كثير أو قليل هناك ، فذكر إبراهيم الفتاة الجالسة فوق الحشائش المستندة إلى القتال ، فأمرع إلى سائق المركبة وأمره أن يعود إليها ليقلها ، ومضى هو بزورقه دون أن ينتظرها. أو يفكر فيها بعد ذلك .

— ٢ —

دخل إبراهيم حجرة الطعام الفسيحة متأخرا في تلك الليلة ، وجلس إلى مائدته كمائدته من غير أن يلتفت يمينا أو شمالا ، وكانت الفتاة على مائدة أخرى قريبة منه ولكنه لم يرها ولعله لورآها لما حفلها ، وكان جائعا وألوان الطعام شهية والتبيل حسنا ، فأقبل عليه ياتهمه بشره غير معهود فيه ، ولما قارب الانتهاء طلب أن ترسل إليه القهوة في حجرة المطالعة ونهض .

وكان يريد أن يكتب رسالة إلى ابنه ، فتناول القلم فجري بضعة سطوره ثم توقف ، ثم أمسك وأبى — أى القلم — أن يخط حرفا . فقرأ ماكتب وزاد تقطا هنا ووضع حرفا هناك . وأنه لكذلك وإذا بالخدام يضع أمامه صينية عليها إبريق فيه القهوة ، وإلى جانبها فنجانان ، وخرج الخادم إبراهيم يفكر في رسالته التي استعصت كتابتها عليه فجأة ، ثم هم بأن يصب القهوة فرأى الفنجانيين قصده هذا ، وخطر له أن الخادم ربما كان قد أخطأ وجاء بقهوة سواه ، ثم قال لنفسه « سبرجع الآن بعد أن يظن إلى خطئه » ورج ينتظر ، ولكن الخادم لم يرجع ومضت دقائق خيلت إليه أطول مما هي ، وخاف أن تبرد القهوة وتفسد ، وهو يحبها حارة ، فقال لنفسه « أنظر في إبريقها فإن كان مافيه قليلا فهو لي وحدي وإن كان كثيرا فلا شك أن هناك خطأ » وتناول الإبريق ورفع الغطاء فإذا به ملآن .

ولما رفع وجهه عن الوعاء التفت عينه بعين الفتاة التي صادفها في الطريق

وأرسل لها المركبة ، فارتد إلى الوراء ، وكاد الإبريق الصغير يسقط من يده ، لكنه استطاع بجهد أن ينهض والإبريق بين أصابعه وقال :
« لقد كنت أنظر في الإبريق هل مافيه لواجد أولائين » .
فنظرت إليه مستغربة ، ثم رأت الفنجانين وابتسمت وقالت :
ما أغباه ! لقد أمرته أن يرسل لى القهوة هنا ، فاختصر المسألة على ما يظهر ! وقد انتظرت كل هذه المدة ؟ » .
فقال إبراهيم : « لقد كنت أفحص الإبريق الآن . وكان ذلك أشبه بالمقامرة ، فإذا كانت القهوة لواحد أهملت الفنجانة الأخرى ، وإذا كانت لائين انتظرت » .

فابتسمت مرة أخرى وجلست قبالة فقال :
— بسكر ؟

ف قالت : « كلا ! لقد كنت أريد أن أشكرك » .
فقال مغالطا : « على الانتظار ؟ » .
قالت : « كلا . بل على . . » .

فقال مقاطعا وقد أدرك مرادها :
— على أنى لم أشرب القهوة كلها ؟

فابتسمت مرة ثالثة وقد راقها أنه يحاورها فرارا من الشكر وقالت :
— ألم تمر بى اليوم حائدا من وادى الملوك ؟

فقال : « نعم . برضى ا »

ففتحت عينها جدا وقالت : « برضك ؟ » .

قال : « لقد أردت أن أعرف لماذا تجلسين عند التهايل على الحشائش فى المطر ؟ أتسمحين لى أن أدخن » .

فأذنت له بابتسامة ، وفتحت حقيبتها وأخرجت منها علبة سجائر مذهبة ، وقالت بعد أن أشعل لها السيجارة :

-- ولماذا لا أجلس هناك . . في المطر ؟
فقال : « لا أدري ، سوى أني لا أعرف أن الناس يحبون التعرض
للمطر ، على أنك لم تكوني تعرفين أنها ستمطر » .
فقالت : « هذا صحيح . ولكنني أحب المطر . ما أقل من يحبونه
أو يذكرونه بالخير . والفلاحون . .
فقال : « إنه في مصر دائماً ، إما أكثر من اللازم وإما أقل من
اللازم » .

فقالت : « إن المطر يعبد في بعض البلاد » .
فقال وهو يرسل الدخان ولا ينظر إليها :
— إن ذلك يتوقف على المطر .
فقالت : « ماذا تعني ؟ » .

قال : « هل يفيد الأرض خضرة أو يفيد الإنسان الرمازم .
أما أنا فأصارعك أني أحب أن أنظر إليه منهداً — ولكن من وراء
زجاج النافذة » .

وكانا قد شربا القهوة — باردة — فنهضا وذهبا يتمشيان في حديقة الفندق
الواسعة والناس ينظرون إليهما في دهشة ، كأنما استغربوا أن يروا إبراهيم
ومعه إنسان ، والتفتت إليه فجأة وقالت :
— لقد كنت أفكر . .

فقال : « وأنا كذلك . . »

فصت في كلامها من غير أن تعبا بمقاطعته :

— كنت أفكر في أنك أقل الناس فضولا أو أكثرهم عدم مبالاة .

فقال : « أنا ؟ ربما ! أعني أني حقيقة لأبالي سوى ما أنا فيه ، ولا يجاوز
فضولي ما تأخذه عيني » .

فالتفتت إليه لتبين في وجهه هل يتكلم جاداً أو هو يريد أن يثنى

عليها ضمنا ، ولكن وجهه كان نحاليا من كل أمارات المزاج فصدمت
هنية ثم قالت :

— لقد كان ينبغي أن تسألني عن السبب . ان المرأة حين تتهم
الرجل بقلة الفضول أو قلة المبالاة يكون معنى هذا أنها تريد أن تخبره
بشيء .

فقال : « أهذا صحيح ؟ » .

فهزت رأسها أن نعم ، وخيل إليه أن هذه الهزة قد رفعت ما بينهما
من الكلفة .

وقال : « إذن أرجو أن تخبريني » .

فقالت : « إنك تتعب المحادث — لا تنهز فرص الكلام التي يتيحها لك » .
وابتسمت ، فقال :

— ولماذا ترينني رجلا عاديا جداً ؟

قالت : « لم أقل ذلك ، إنما قلت إنك قليل الاكتراث ، قليل
الفضول » .

فقال : « ولماذا ؟ أعني أرجو أن تذكر لي السبب » .

قالت : « ألم يخطر لك أن تعرف من أنا ؟ »

فقال بلهجة الجدة : « ولكنك عابدة المطر . فإذا أريد أن أعرف
فوق ذلك ؟ » .

فضحكت وهي تقول :

— لكن أبي لم يسمني هذا الاسم !

فقال : « إن آباءنا لا يعرفوننا كما نحن » .

فهزت رأسها موافقة فقال :

— إذا كنت تحبين أن أعرف من أنت ، فاعليك إلا أن تخبريني .

فقالت : « إذن أنت لا تعرف اسمي » .

فقال : « لا أعرف الاسم الذى اختاره لك أبوك » .

فقالت : « اسمى .. اسمى .. ليلي .. » .

فقال : « اسم جميل ولا شك .. ليلي .. نعم ، ولكنى أرجو أن تظلى عابدة المطر ؟ » .

فقالت : « لماذا ؟ » .

قال : « أخشى .. أخشى أن أصبح أنا المجنون » .

فضمكما . وعرفها بنفسه وهما راجعان إلى الفندق .

الفصل الرابع

« أن تكن سورا فنبنى عليها برج فضة
وان تكن بابا فنحصرها بالواج اوز »

— ١ —

بدأ ابراهيم يلاحظ أن الناس — ونعني النازلين في الفندق يتبعونه بنظراتهم ؛ وان رموسهم تتداني حين يظهر في مدخل الفندق أو على سلم الحديقة ، فظن ان معرفته ببليلى هى التى يرجع إليها اكثر انهم له والتفاتهم اليه ، وصافح مسمعه كلمات من هنا وهناك تبين منها ان نزول هذه الفتاة في الفندق حادثة ، ولكنه لم يستطع ان يفهم لماذا ، لأنه لم يكن يعرف عنها اكثر من ان اسمها ليلى وانها سارت على الأيام تصحبه في روحاته وغدواته .

ومن العسير ان نقول ماذا كان احساس ابراهيم نحوها على الدقة فقد كان يجد في محضرها روحا وابناسا ، ويحس ان الوحشة قد زابت ، ولكنه لم يكن يشاققها حين تغيب ، وكان ربما قضى النهار كله وحده فلا يفتقدها ، حتى اذا التقى بها شاع في نفسه السرور ولم يعن هو بأن يحلل حوافقه ، لأنه على الأرجح ، لم يشعر بالحاجة الى ذلك ، ولم يحس بأن لهذه المواطن الحاسا او ضغطا ، وكل ما هنالك ان وقدة نفسه كانت تهدأ حين يراها ويحادثها وان الاضطراب الذى فى صدره كان يسكن ، وان ألسنة الهوائف كانت تنقطع ، وان النجاوى كانت تخفت ، وانه كان كالذى صهرته الشمس ورأى شجرة قنواء فال إليها يستروح فى ظلها ..

وراق ابراهيم بعد ان فطن الى اهتمام الناس ببليلى ان يلاحظ مظاهر

ذلك . وان كان قد ظل عاجزاً عن تعليل هذا كله ، لأن الفتاة مصرية وأكثر
التزلاء أجنب على أن الأجانب كانوا محتشمين في الثفاتهم إليها . وكان الأمر
لا يعدو التهامس والنظر — خلسة على الأكثر — أما المصريون فكانوا أجراً ،
وكان أمرهم معها يشبه المطاردة وقد رأى ابراهيم أحدهم مرة يعترض
طريقها ويخرج من جيبه منديلاً فسقطت ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات
كأنها كانت في هذا الجيب مصادفة ، أو كأنما صاحبها قد نسيها فيه ، فسارت
ليلي في طريقها وداست الورقة بحذائها كأنما كانت بعض ما في البساط من
النقوش ولم تعر لا الورقة ولا صاحبها أدنى نظرة .

وفي مرة أخرى كانت ليلي تتكلم على التليفون فاندفع شاب إلى غرفته
وفتح بابها ولما رأى ليلي شرع يعتذر إليها ، كأن ما وقع منه كان عفواً ،
ولكن ليلي مضت في حديثها على التليفون وكان الباب لم يفتح وكأنما لأحد
في مدخله يكلمها معتذراً متأسفاً .

وكان هناك آخر لا تجلس ليلي في مكان إلا دار به ينظر حوله باحثاً
عن شيء كأنما من خواص ما يفقد أن يكون على مقربة من ليلي .

ورجل آخر في سن الكهولة كان يخيل لأبراهيم أنه يتحين فرصة ليخلع
طربوشه ويضعه على الكرسي الذي تهم ليلي بالقعود عليه ، ليجرها إلى الاعتذار
أو إلى الاصغاء إليه وهو يعتذر لها . وهكذا ..

وعنى ابراهيم بأن يحصى هؤلاء المصريين الذين يتحكون بليلي ،
فعد منهم تسعة عشر ، فأطلق عليهم رقهم ، وسماههم التسعة عشر
وكانوا جميعاً تنقصهم شجاعة الإقدام على مخاطبتها ، أو لعل الأصح
أن الشجاعة لم تكن تعوزهم ، ولكن شيئاً في وجه ليلي وهيتها كان
يصددهم ويبرزهم ، فقد كان في هيتها احتجاز ، وعلى وجهها وقار
مستغرب ممن هي في مثل سنها ، وكان الناظر إليها لا يسعه إلا أن يحس
ذلك .

ومن غريب ما حدث أن فرص التعرف بالمصريين كثرت فجأة بعد

أن نزلت ليلي في الفندق وصاحبت إبراهيم ، فلم يمض يومان حتى عرف إبراهيم مواطنيه جميعا وصار له بينهم احترام لم يعهده من قبل فإذا دخل الصالون ، ألح عليه كل من يكون موجودا منهم أن يجلس مكانه ، وكثر عرض السجائر عليه وتقديمها اليه والتبرع بإشعال الكبريت له ، وكان هو يعجب لهذا في أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن عرف السر لما تعددت الأسئلة عن ليلي ، فعلم أنه ليس محترما لذاته وأن مجده مستعار ، والضوء الذي عليه منعكس عن تلك المرأة .

وفي رابع يوم لاتصال إبراهيم بليلى ، كان عائدا قبيل الظهر من حديقة الفندق فقابلها على السلم فقال لها وهما يعودان الى الحديقة بعد كلام منقطع :

— اسمحي لي أن أؤكد لك أني لا أريد أن أثقل عليك بوجودي ، ولكني أحب أن أسألك كم ساعة في اليوم تستطيعين أن تتحملي ظلي ؟

وكان ينسم ، وفي وجهه ما يدل على أن للسؤال غرضا آخر وأنه ليس سوى تمهيد لسواه ، فقالت وهي حائرة عاجزة عن التكهّن فقد ألقت منه اللف والمحاورة والمفاجأة .

— اني هنا كما تعلم وجدى .

فقال وهو ينكت الأرض بكعب حدائه أثناء السير .

— إن هذا لا يكفي ، ثم أنه خبر لاجديد فيه فهل لك أن تبينني ؟
فقال بلهجة رقيقة .

— ألا تختصر الطريق وتفضي الى الغرض من السؤال ؟

قال : « حسنا . سأفعل . اني أريد أن أختار أحد الشرين ؟ » .

فرفعت حاجبها مستغربة وفتحت عينها جدا وقالت :

— أحد الشرين ؟

فابتسم وهو يقول : « معذرة .. لقد كنت أريد أن أقول ان عليك أنت أن تختارى أحد الشرين » .

قالت : « هذا أبعث على الدهشة .. أى شرين ؟ » .

قال : أنا أو التسعة عشر » .

فرددت قوله « أنت أو التسعة عشر ؟ ماذا تعنى ؟ » .

قال : « نعم . فإن فى وسعى أن أدخن كالمدخنة ، وأن أسبح فى الخمر كالسمكة ، وأن أأكل وأنام ما بدا لى — كل ذلك من غير أن اتفق مليا » .

وسكت فقالت : « كيف ؟ وما علاقة هذا بسؤالك ؟ » .

قال : انتظرى ، ولكن هذا يكلفنى جهدا اذا كان لا يكلفنى مالا واخلى بالمدخنة ان ينقطع مددها ، ويبحر الخمر ان يجف ، وبالموائد ان يطير عنها كل ما عليها من الالوان اذا لم افعل ما هو متوقع منى فى نظير ذلك كله .. اعنى بعبارة صريحة اذا لم اعرفك بالتسعة عشر ! » .

فصاحت « ما افطلع هذا ! »

قال : « لا تفزعى . قلن افعل شيئا من هذا . ولكن هنا تسعة عشر مصريا يريدون أن يعرفوك .. لقد عددهم .. واحدا واحدا .. وهناك غيرهم ولكنهم — معذرة — لا يعباون بك .. فإذا عرفوك .. » .

فقاطعت صائحة « لانتم هذا الكلام .. ارجو .. من فضلك »

قال : « اذن فلنتعاهد » .

فصمت قليلا ثم قالت « نتعاهد ؟ »

فقال : « نعم نتمشى معا نحو ساعة كل يوم هنا او فى اى مكان آخر تختارينه وفى مقابلة ذلك اتعهد بأن لا اعرفك بأحد من التسعة عشر » .

فأطرقت هنية كأنها تفكر وقال وهو يستحثها :

— اختارى أخف الشرين : انا واحد وهم تسعة عشر .

فقلت : « لا بأس . قد قبلت المعاهدة . ولكن يجب ان تقيى هؤلاء
(وضحكت) التسعة عشر !

قال : « لا تخافى . سأشترى مدفعاً رشاشاً اذا احتاج الأمر الى
ذلك » .

— ٢ —

وانتقلت بعد ذلك الى مائدته وصاروا يتناولان الطعام معا ، وتوثقت
اواصر الصداقة بينهما وصاروا لا يفرقان الا ليستريح كل منهما او ينام في
غرفته . غير انه بقى لا يعرفها الا باسم ليلي ، وهى لاتعرفه الا باسم ابراهيم ،
والغريب انه لم ينشأ ما يشعرهما بالحاجة الى استيفاء الاسماء ، ولم يعرض
بينهما ما يدعو الى التحدث عن الماضى وكانا ينتزهان ليلة في النيل في زورق
فقلت وهى مدلية يدها للماء :

— الى اكره الرجال .

ففضى ابراهيم ولم يجب كأن الأمر لا يعنيه وانسلطاب ليس موجهها
اليه ، فالتفتت اليه وعلى شفيتها ابتسامة عذبة وقالت :

— احسبني اسأت الأدب ؟

فقال : « كلا وانى لأعذر لك كلما ذكرت التسعة عشر — واعطف
عليك ايضاً » فالتمعت فى عينيها نظرة خبيثة وهى تقول :

١. من حسن الحظ ان الرقم لم يبلغ العشرين .

فقال وعينه الى السماء ، وعلى وجهه آيات الدهول :

— من يدري ؟ على أن الواحد المتعم للعشرين . .
وسكت .

فسألته وهى تدنونه :

— لماذا تقول من يدري ؟

فأرسلها ضحكة مفرقة وقال : « وهل في الدنيا من يدري شيئا ؟
قد يكون مذهب المرء واضحا والطريق أمامه ظاهرا ، ولكن الغاية
التي يصل إليها بعد الجهد والعناء من الذي يستطيع أن يقول أنها هي التي
كان يقصد إليها حين أخذ الطريق » .

وأحس أن كلامه فيه من الجدة أكثر مما ينبغي فقال : « وليس لنا
إلا الحاضر بالليل ، والواحد الذي يمكن أن يصبح متصفا للعشرين مصمم
على إختتام الحاضر الذي هو فيه » .

ولم يعودا يريان القنديل و (المبرد) ، والقمر يريق ضوءه على
صفحة النهر ، والنسيم الليلي يصافح خديهما . وأخذت الأقصر تنأى عنهما
وتغيب في الظلام كأنما أسلمتهما إلى النهر الخالد . وتناول إبراهيم الجدافين
بعد أن استراح قليلا ، فضرب بهما الماء فانطلق الزورق يشقه ويعوم
على ضوءه مخلفا وراءه خطا طويلا . .

فقالت ليلي ، وقد أحست فجأة أن قوة لانتخاب قد استولت عليها
واستبدت بها :

دعني أجدف فلاني أحب ذلك .

فابتسم وقال : « اذن فاجلسي أمامي .. هنا .. »

ونفس هو ووقف في وسط الزورق ، ومد إليها يده ليساعدها على الخطو
وجلست تجدف ، ولكنها كانت تخالط ، وتضرب المساء خفقا خفيفا
بمجداف بعد مجداف ، وكان ضربها ، تلحفته على وجه الماء ، فكان
رشاشه يطير إلى إبراهيم فيضحك والزورق يضطرب ويميل كل ميل ،
وهكذا سبحا على متن النهر ، والقمر يرسل أشعته على وجهها الأحمر
الصافي ، وحاجبيها الكثيفين السوداوين وعينيها الضيقتين الברاقتين ، فخيّل
لإبراهيم وهو قاعد أمامها أنها مقلان على أرض مسحورة منعزلة عن
الناس خارجة عن دائرة القانون والعقل أيضا .

وقالت ليلي وقد أراحت طرفي المجدافين على ركبتيها :
« ما أجمل هذه الليلة ! » .

فقال ابراهيم بصوت خفيض ولكنه متهدج :
« نعم . اليست كذلك ؟ » .

فانفجرت ضاحكة وقالت وهي ترد قبعتها عن وجهها إلى رأسها :
« هل تعلم ؟ انى . . . »
قال « ماذا ؟ »

قالت : أحس برغبة ملحة في أن أخلع هذه القبعة وألقيها في الماء وأرسل
جسم شعري — أرسلها للنسيم والقمر » .

فقال ابراهيم في طهجة فيها من الحزن نبرات :
« اذن فافعلى » .

ولكنها صممت قلقة ، ولم تستطع ان ترسل نفسها على سجيئتها فقال
ابراهيم :

« ألك تمنجلين ان تطيعى رغباتك ، وليس خجلك لاني معك وانى
أرى ما تفعلين ، فلو كنت وحدك لما اجترأت ان تطلقى لنفسك العنان ،
وان تفعل ما يهتف به جسمك ، لألك كفرتك — مثلى ومثل الناس جميعا —
تؤثرين أن توهمى نفسك انك فوق الحياة وفوق دواعيها وان كنت تعلمين
في أعماق اعماق سريرتك انك لست إلا مظهرا خثيلا من مظاهرها ، وان
كل مقاومة منك لطبيعتها وسنتها المخالدة واحكامها المبرمة التى لا مفر منها .
مجبلة للشقاء والألم . لماذا تحسبن الخجل والعار من رغباتك الطبيعية ؟ لماذا
تخفينها ؟ ان القوى المحبوسة في النفس تتطلب منفذا ، والجسم يتشد السرور
واللذة ويتعذب من جراء صده وحرمانه » .

فقال ليلي : « نعم . نعم » .

وغزت رأسها كتاب من الخواطر الجديدة ، ونلفت حولها ، وعينها

تقوم ، وتغلغل إلى اعماق نفسها جمال الليل والقمر الساهم وحسن النهر
الجارى بين القفار الخاملة ، ولج بها الشوق إلى تجربة القدرة على افادة
السرور بلا عجل او تردد .

ومضى ابراهيم فى كلامه فقال « انى احلم - حلم فقط مع الأسف -
بعصر لا يحول فيه بين الإنسان وسعادته ، عصر يستطيع فيه أن يباشر حريته
التي لا تعتدى على حرية سواه ، عصر يستقتر فيه ويمتصر من الحياة كل متمها
فى جرأة وحرية » .

فسأله : « ولكن كيف يكون ذلك ، أنرجع إلى الهمجية الأولى ؟ »
فقال : « من قال ذلك ؟ كلا . ذلك كان عصرا سخيلا ، ولم يكن
الإنسان فيه يقدر حريته أو يعرف قيمتها او حدودها فكانت الحرية فوضى
وكان هو لا يستحق الحرية التي لا يفهمها ولا يحترمها ولا يحس الاستمتاع
بها ، وعصرنا الحاضر ايضا سخيلا ، لأن التقاليد الخاطئة تتحكم فى
العقل تحكمها فى الجسم ، ولأنه تنقصه الهمة والذكاء والرشد . وإنما أحلم
بعصر لا يستنحى الإنسان فيه من نفسه ومن غرائزه الملهبة ومن مطالب هذه
الغرائز ، لا ينجعل ان يرمى طربوشه اذا شاء ذلك وان يمشى عارى الرأس
إذا احس ان هذا أكفل باشعاره الغبطة والروح ، ولا ان يشب فى الطرقات
ويرقص فى الشارع او يجلس بتيابه الأنيقة على الحجارة او التراب اذا
اشتبهى هذا ، لأن الوثب والرقص والجلوس على التراب لا يضير احدا .
فسأله بلهفة كأنما خافت أن يسترسل من غير ان يعرج على ما فى
رأسها :

— ولكن ماذا عن الحب ؟ إلا قيودا له يفرضها علينا ؟

فاكفهر وجهه ولكنه ضبط نفسه بسرعة وقال :

الحب يفرض قيودا ؟ لماذا ؟ ليس الحب هو الذى يفرض القيود علينا
يا فتاتى وإنما هى الغيرة ، اتفهمن ؟ انها الغيرة ! وليست الغيرة وحدها
هى التي تفرض القيود ، بل فضول الناس أيضا وتدخلهم فيما لايعنيهم ،

ونحوفنا من فضول الغير ، ذلك الفضول الذى نعبّر عنه برأى الناس فينا .
ما دخل الناس في حبي وبغضى وهو شئ يعينى وحدى دونهم ؟ لماذا نخاف
رأى الناس أو فضولهم ؟

فقلت لنفسها « لست أشعر بأى خوف الآن وأنا معك » .

ونظرت الى ابراهيم كأنما تراه لأول مرة ، واستغربت أنها تحسه قويا
طاغيا وان كان في رأى العين ضعيفا يابس اللحم على العظام ذابل الشفتين ساهم
الوجه . وانكشف لعينها ، وهى تنظر الى ابراهيم ، عالم بأسره من القوى
الزائخرة والعواطف الفائرة ، فهل تدخله ؟ وابتسمت لهذا السؤال ، وارتجفت
أيضا وهى تتخيل هذا العالم الذى تفتحت أبوابه لها . وكأنما أعدته بخاطرها
أو أوحته إليه ، فأسرعت أنفاسه هو أيضا فصار يلهث كأنما كان يجرى .
ولكنه كبح نفسه وتناول الجدافين وأهوى بهما على الماء يضربه بسرعة وقوة ،
فانطلق الزورق يفرق الماء ، وصار تحرير منغما في مسمعهما ، واقتربا من
الشاطئ الغربى فأراح ابراهيم احد الجدافين وضرب بالثاني قال الزورق .

وبلغا الشاطئ ، فوقفا ، ووثب ابراهيم أولا ، ثم مديده لليلى فوثبت
إلى جانبه ، ولكن الوثبة إلى أرض غير مستوية أفقستها توازنها فالت إلى ابراهيم
وأمسكت بكفه ووقعت بين ذراعيه . وطال التصاقها به على غير قصد منها أو
منه فاندلعت النار في دماثها وخرجت من بين شفتيها آهة دهشة وسرور حارة
واحتضنها وشد عليها ، ومادت الأرض بهما وخامت الدنيا في أعينهما ، وهمت
في أذنه وهو يتخنى بها على دهن الشاطئ « ماذا تصنع ؟ دعى بالله ! »
ولكن الصوت كان خافتا والأنفاس كانت سريعة ، وصدرها كان يعاو
ويهبط ويبغى صدره . . ولم يكن حولهما إلا الليل المقمّر وإلا رائحة النهر
والأعشاب البائلة على حفافيه ، والا الجو يسخن تارة ويبرد أخرى وسكون
عميق ، وفقد كلاهما وعيه وتراخت أعضاؤهما بعد قبلة طويلة اعتصرا
فيها كل ما في دماثهما من نار .

الفصل الخامس

كَلَّتْ عَيْنِي مِنَ الْحُزَنِ ، وَاعْضَانِي كُلُّهَا كَالظِّلِّ
« يَوْجِدُ بَاطِلٌ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ أَنْ يَوْجِدَ
صَدِيقُونَ يَصِيبُهُمْ مِثْلُ عَمَلِ الْإِشْرَارِ »

— ١ —

رسالتان بعثت بهما شوشو إلى إبراهيم ، ومضت الأيام ولم تتلق عليهما ردا ، وثالثة أنبأها الشيخ على أنه كتبها إليه ، ولا جواب أيضاً ، فما معنى هذا ؟ أيمكن أن يتلقى إبراهيم رسائل منها وأن يهمل الإجابة عليها ويدعها تمزق قلبها ؟ لم تعهد شوشو في إبراهيم هذه القسوة ، نعم فيه جفوة ولكن لمن يكره ، وإله لقاس ولكن على نفسه حين يريد أن يحكمها ويردها على مكروها ، وما ألفت منه شوشو إلا الخنو والرقعة والرفق بها حتى في ساعات ثورته وغضبه ، وهل تنسى ليلتهما على سطح البيت ، وكلاهما يعلم أن لا أمل هناك وأن الفراق لا محالة غدا ؟ ألم يعاطها الحب صرفا ؟ ألم يكن أخى عليها من أمها ؟

ولما جاء الغد ودعها وحدها دون أختها ، حتى الخدم لم ينس أن يصافحهم واحدا واحدا وهو يبتسم ويمزح ، ولم يتجههم وجهه إلا حين دعاه الشيخ على أن يسلم على نجية . حينئذ فقط عبس وقال : « قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه ؟ قد غسلت رجلى فكيف أوسخهما ؟ » ولم يعبا حتى بشعور الشيخ على ولم يحفل أن نجية زوجته ؟ فالذنب ذنب نجية وسميحة ، وسخط إبراهيم عليهما وحدهما ومقته لهما ، فكيف يعقل أن ترد إبراهيم رسائلها فلا يرد عليها ؟

لا بد إذن أن يكون إبراهيم قد زابل الأقصر ورحل عنها إلى أسوان أو إسنا أو غيرها ، بل هذا هو المحقق ، فما يستطيع إلا أن يعمل كل مكان

ليس على هواه ! ولو كان يسعها هي أن تنتقل مثله لما أطاقت الإقامة في مكان
واحد إلا أياما قليلات ، ولو كانت تذهب من بلدة إلى بلدة ، لعل الثقل
يفيد سلوى ! آه ليت هذا في وسعها ! إذن لا يمكن أن تتجمل بالصبر ،
إذن لمان عليها أن تحتل التزيق في صدرها ، والاضافر التي تقطع قلبها ،
والنار التي تندلع في عروقها وتصلبها الجحيم في الدنيا ! إذن لنجث من
رؤية أختها كل يوم — كل ساعة — كلما شاءتاها أن تراهما لا كلما شاءت
هي ! إذن لما اضطرت أن تحتل ما تكايدها به أختها سميحة التي سارت
في عرس تلبس كل يوم معرضا من معارضها تتجلى فيه ، ولا تدع شيئا
من زينتها وحليها الاليسنة وبدت في حفلة وفي عينيها سرور تلمعان به ،
وفي قلبها حبور ينضح به وجهها هو سرور الشجاة وحبور الانتصار
والفرجة بالخيبة التي منيت بها . وهي أختي ! بنت أبي وأمي وأنا وهي
من دم واحد ، وقد انحدرتنا من أبوين إثنين ! من يصدق ؟ بماذا أسأت
إليها ؟ أي شيء جنيت عليها ؟ ما ذنبي أنا إذا كان إبراهيم لم يحبها ؟ نعم ،
أنا أيضا أحبه ولكن هذا ليس من ذنوبي لئسها ، فما أرى حبي له قد نفعتني وإنما
ذنبي لديها إنه يحبني . وذلك ما لا حيلة لي فيه لو أن لي حيلة في نفسي ولقد
جأهت — علم الله — أن أصرفه عن طلبتي وعن التقدم إلى أختي ، ولكنه
لم يسمع لي ولم يعأ بي ، وليته كان قد أطاع إذن لا يمكن أن أصبر ، واثقة
أنه يحبني راجية أن يجيء يوم يقر فيه البعيد ويسهل فيه الصعب أما الآن
فلا أمل لا أمل ! حتى ولا في سطر من أنعزى به . يا لهول الظلمة الراكدة
التي تحف بي وتجم على صدري وتخنقني ! ظلمة لا يضطرب فيها خيط
ضئيل من النور ، ظلمة متحجرة لا يتغل منها شعاع واحد من الأول !
ولا بد لي من احتمال أختي هاتين ، أختي بنتي أبوي ، أختي اللتين
قضتا علي ، وسحقتا نفسي وحققتا قلبي — لماذا ؟ لماذا ؟ وارثت على السرير
وبكت ، وراح كيانه كله يهتز ويرتجف وامتدت كفها إلى شعرها المرسل
خشدناه كأنما أرادت أن تقطعه ، وصرفت أسنانها وهي تحاول أن تملك
نفسها وزجر عينيها عن البكاء ثم استوت قائمة وهي تقول : لماذا ؟ لماذا ؟

ونقر الباب ففزعت إلى المرأة فطالعتها في صقالها وجه محتقن وعينان منتفختان من البكاء وشعر منفوش فذعرت وأدركها العطف على نفسها ، ولم تدرك ما إذا تفعل ولكنها أسرع إلى القلة فأخذت منها ماء في حفتها مسحت به وجهها وعينها وتناولت منشفة ومضت إلى الباب تفتحه .

لم تخدع المنشفة والماء عين الشيخ على ، فتناول كفيها بين يديه وهو يقول لها بأرق لهجة وقلبه يتفطر :
« هنا إلى جانبي على السرير » .

وتولى هو عنها مسح وجهها بيمنه بينما كانت يسراه تربت لها على كفيها اليسرى ، ثم أسند رأسها إلى صدره وجعل يمسح لها شعرها بكفه الكبيرة ويسويه ويرقده ، واستراحت هي إلى ذلك فتركت رأسها كالطفلة على صدر أبيها ، ولكن الشيخ على لم يستطع أن يحبس حنوه الفائض فأغرورت عينه وسقطت دمة على جبين شوشو — حارة حامية ، فاتنبت ورفعت رأسها فأخذت عينا الدموع المترقرة في جفنيه .

هذه الدمة — هذه القطرة التي نزلت على جبينها — كانت لشوشو عزاء جيلا ، أدهشتها وأفرحتها وأحزنتها أيضاً ، وكانت حل النار التي في قلبها بردا واشهرتها شيئا من السلام والسكينة فنسبت نفسها لحظة ، وذهلت عن آلامها هنية ، ولم يبق أمامها إلا هذا الرجل الضخم يبكي لها ويستعبر من أجلها ، وقلبه الكبير يحنو عليها ويتوجع لها ، فدهشت كما يدهش المرء أن يرى جبلا يقتلع وفرحت بعطفه وتحنته ، وإن كان لا شك عندها في رثائه لها ، وأحزنها أنه يتألم ، وليست بنته كزوزو ، وأكبرت منه رقة قلبه ومروءة نفسه ، فهضمت وتناولت وجهه الكبير بين يديها الدقيقتين وطبعت بين عينيه قبلة شكر صادقة .

وقال الشيخ على وهو ينهض : « زوزو تنتظرنى فالحق بنا » .

ونخرج وتركها تصلح من شأنها .

لم يكن أغرب من منظر الشيخ على وبنته زوزو ، وهما يتقاذفان كرة صغيرة من المطاط وزوزو تحاوره بها وتلقبها إليه في حيث لا يكون إلى اليمين جداً إذا كان هو إلى اليسار ، وإلى اليسار إذا كان هو إلى اليمين ، أو تقلبها عالية فيبتطاع إليها مترقبسا هبوطها ليلقبها فتتسلل هي وتكون إلى جانبه فإذا دنت الكرة منه في سقوطها ، صاحبت به « ايه » ودفعته بيديها وفي ظننا أن تقلقله ! وهو يلهث من الجرى ، إلى كل ناحية وينفض عرقه وإن كان الجو بارداً ، ويخجل أن يقول لابنته « تعبت » ويعز عليه أن يخيب أملها فيه فيغالطها ويقترح لعبة أخرى لا تكلفه جريا ولا تتقاضاه وثبا ، وهي تصر على الكرة وتروح تدب برجليها على سبيل التأكيد أو الخوف من أن لا يوافقها ، وتقول بسرعة كأنما تريد أن لا تدع له فرصة للكلام والاعتراض ، ووجهها مرفوع إليه حتى لتكاد تقع على ظهرها .

— لا يا بابا ، لا يا بابا ، الكورة أحسن ، ماليش دعوة ، أنا مالى تقف هنا وأنا هناك ، لك على ما احذفهاش بعيد ، بشويش ، هيه ؟ أعمل معروف .

ولكن الحظ كان موافقا لأبها فقد ظهرت شوشو على رأس السلم ورآها الشيخ فنجأ وفرح بنجاته ، وبهذه الفرصة للمخلص من غير أن يتاج إلى أن يؤلم ابنته برفض رجائها وتوسلها فالتحنى عليها وتناولها ورفعها إليه بلا جهد وقبلها وأدار وجهها إلى السلم وهي معلقة بين يديه في الفضاء وقال :
— خالتك شوشو .

فصفت زوزو ، ونسيت كرتها وتوسلاتها وسرورها الذى كانت تفيدته من رؤية أبها الضخم يعدو ولا يترك الكرة ، ويلهث من هذا الجهد واحد يديه على وجهه يمسح بها العرق المتصبب والأخرى ممدودة لتلقف الكرة ، وإن كانت لا تزال بعيدة — نسيت ذلك كله لما رأت شوشو خالتها

فوازتها نفسها أن تجري إليها وأن تستقبلها عند السلم ، فراحته تحرك رجلها في الفضاء بسرعة وتحاول أن تتخلص وتنظر إلى الأرض فتراها بعيدة فتناشد أباها أن ينزلها ، وهو يعاينها ، ويدعي أنه يطيعها فيدنو بها من الأرض حتى إذا كادت تلامسها قلدها في الهواء وتلقفها بيديه ، وهي تصيح وتصرخ وتضحك أيضاً .

وصارت شوشو قريبة منها فالتفتت زوزو إلى أبيها وقالت :

— وحياة خدائي شوشو .

فوضعتها على الأرض في رفق ، وابتسمت شوشو وقد سرها هذا الدليل الصغير على سمو منزلها عند الشيخ على ، وأن زوزو الصغيرة تعرف هذا وتدركه وحنّت عليها قبلها ، ثم همت بأن تعتدل وتستوى واقفة ، ولكن زوزو دفعت ذراعها فجأة وطوقت عنقها ، فلانّت لها شوشو ، وتلقت قبلاتها الحلوة على شفتيها وخذلها وعينها ورأسها — من فوق السكبة (١) — وأذنبا ثم خرجوا .

— ٣ —

وكانت سميحة تنظر من سجنى الستار ، ونجية وراءها وقد اتكأت بيدها على كتف سميحة ، وراحت تميل رأسها ذات اليمين وذات الشمال ، وتشب محاولة أن تنظر كأنها من القرية التي بين السجينين . ولكن سميحة كانت قد جمعت طرفي السترين ولم تدع إلا شفا صغيراً لعينها ، ولما لم يبق شيء تنظر إليه أرخت يدها وتهدت وهي تدور وتواجه نجية . وقالت :

— اخرجوا . استريحى ينى .

وكانت لهجتها تتم على الأسف ، ونبرة صوتها تشي بالكمد المكتوم . ولا أسف هنا ولا كمد ، وإنما كانت تتكلف ذلك وتتصنع لتستثير نجية

وتغلى عنادها . ولم تكن تبالي في سبيل ذلك أن تمشى بالواقعة بين نجية وزوجها . فقد كانت الغاية عندها تبرر كل وسيلة ، فلم تحجم عن أن توقع في روع نجية بالتلميح المتوالي أنه لا يبعد ، إذا ظل الشيخ على وشوشو كما هما ، أن ينهى الأمر به إلى تطليق نجية والتزوج بشوشو ، وكانت أذكي من أن تصرح بهذه الدسيسة ، وأبقى من أن تزيد على الإشارة فكانت ربما نهدت فجأة وقالت :
— الأمر لله .

فتقول نجية : « ماذا يا أختي ؟ »
فتقول سميحة : « لا شيء » ربنا يستر ! ربنا يستر .
وتنصرف عن أختها وتدعها تفكر وتخمن وتقلب الأمر على كل وجهه المحتملة .

ثم بعد ساعتين ، أو يوم .. تعيد الكرة فتقول :
— إن إقامتنا معك يا أختي لا يعلم إلا الله ما قد تؤدي إليه .
فتقول نجية : « كيف يا أختي ؟ لماذا تقولين هذا الكلام ؟ لماذا تتكلمين كأن استنقل وجودك ؟ »

فتقول سميحة « وجودي أنا ؟ » يا ريت ؟ نهايته ! ربنا يعلم .
فتلح عليها نجية وتقول : « ألا تقولين ماذا في رأسك هذا ؟ إنك تفهمين أكثر مما أفهم .. فهل .. هل .. قولي .. تكلمي ..
فقاطعتها سميحة حتى لا يبلغ الأمر درجة المصارحة وتقول :
ربنا لوحدده هو اللي عالم بما في رأسي .. ده تبقى مصيبة .. لكن هو جنان ؟

وهكذا حتى اتجهت خواطر نجية شيئاً فشيئاً إلى هذه الناحية ، وعمت عن السبب فيما يبدو من حطف زوجها على أختها شوشو ، وساورتها الوسواس ودبت في صدرها الغيرة ، وإن كانت قد ظلت قادرة على مغالبة الظنون

ومدافعة ما تهمس به ، وبشيت تحتقد أن هذا بعيد الوقوع بل مستحيل ، غير
أن مجرد التفكير في هذا المستحيل غيض من وجهها كل بشاشة لشوشو والشيخ
على ، وأغراها بالتجسس عليهما ، وكان من الطبيعي أن تكل ذلك إلى سميحة
وأن تفتح أذنبا لكل ما تشاء أن تصبه فيها ، وزاد الفساد لأن الشيخ على أصر
على جفوته وإهماله لنجية ، ومنع شوشو عطفه وعنايته وصار لا يفارقها مادام
في البيت ، وكثر اصطحابه لها حين يخرج للرياضة والتنزه ، وكان الشيخ
على يتوقع ، بعد أن أعلن إلى نجية سخطه على مسلكها حيال إبراهيم ، واستياءه
لرفضها العمل برأيه ، ونقمتها منها أنها حقرت شأنه في نظر إبراهيم بأن أظهرته
له رجلا لا سلطان له ولا إرادة في بيته . — نقول إنه كان يتوقع من نجية بعد
أن أعلن إليها هذا وجفائها من أجله ، أن تندم وتحاول استرضاءه وتسمى
لتنأفه من نفرتة ، ولكنها لم تفعل لأن سميحة تكفلت بتوسيع الهوة بينهما
ولم تقصر في الدس والوقية ، وكانت سميحة تدرك أن الشيخ على لن يفهم
إلى البرضى أو يصفح عن نجية إلا إذا نزلت على حكمه وعادت إلى رأيه
بتزويج شوشو لإبراهيم ، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى ذلك إذا انتهت نجية
إلى واجب العمل على ترضي زوجها ، فلا اطمئنان لسميحة إلا مع استمرار
الجهلاء — على الأقل إلى أن ترى لها وسيلة أخرى وتهدى إلى حيلة جديدة .

ومن الأوهام الشائعة أن الأطفال آخر من يقطن إلى الحوادث التي تقع
حولهم والبواغث التي تفضي إلى وقوعها ، وكثيراً ما يطمئن الكبار إلى
جهل الصغار وعجزهم عن الإدراك والنظر والتمييز ، ولكن الأطفال كثيراً
ما يخزنون في دعوهم أسراراً يقفون عليها ، لو اطلع عليها الكبار لراهم
حقها وأعجبوا لقدرة الأطفال على التنصص والاستنتاج ونفاذ البصيرة ،
وليس بالنادر أن تكون سعادة الأسرة رهناً بما يبدية هؤلاء الصغار من الحكمة
وصدق النظر والصمت ، وهي صفات قد يكون رجعها إلى الإلهام
وما أخرى كثيرين من الكبار بأن يتلقوا دوساً في الكياسة من هؤلاء الصغار
المستجهلين .

ومن أجل هذا لم يكن صحيحاً أن عمى الشيخ على وشوشو عن حقيقة ما صار إليه الموقف في البيت ، وإن راحت زوزو الصغيرة تجمع نتفا من هنا وطرفاً من هناك وتضم هذا وذاك وتستخلص وحدها من الأزمة وطورها الجديد ، وإن لم يخل الأمر من أغلاط غير قليلة متعلقة بالوقائع والأسباب ، ولكن النتيجة التي انتهت إليها كانت في مجلتها صحيحة ، غير أنها ألهمت أن تمسك على ما خزنته في رأسها الصغير فلم تثرب به .

وهكذا صار البيت «مسكرين» . وتم انفراج الحال ووقوع النبوة لما عاد الشيخ على إلى القرية بغتة وأخذ معه شوشو وزوزو .

الفصل السادس

« هل انتهيت الى ينابيع البحر لو في مقصورة القمر لتسيت ؟ »

— ليلي

— نعم .

— لا أدري ماذا أقول ! ولكنى أدري أنى أريد أن أقول شيئا :
اظن أنك عطوف يا ليلي .. ولو أنى كنت شيئا هرما لودنى النظر اليك
شبابا بالغا .. شبابا باحساسى على الأقل ، ولو ان شكسبير عرفك لأكثر
نظم الأغاني وأقل من الروايات .

فأشارت ليلي بكفها البضة ناهية عن الاسترسال وانحنى له مارحقوقا قالت :

— أشكرك ، واسمع لنفسى ان أشك فيما تقول ، ولكن شيئا واحدا
أنا على يقين منه ، فلو ان شكسبير عرفنى لناولنى سيجارة .
فاعتذر لها ومد يده بعلبة السجائر ، وأشعل عود الثقاب .

وكانا جالسين فى معبد الأقصر فى الصحن المتسع الذى تحيط به
الأعمدة ، واليه يؤدى الباب مباشرة ، ويعرفه رجال الآثار بساحة
المنحطب الثالث ، وكان ابراهيم قد رشا الخارس فاذن لهما أن يدخلوا فى
الليل ، فاتخذتا مكانهما إلى جنوب الصحن ، وكانت الليلة مقمرة والأعمدة
أكثرها سليم ، فجلسا يتصوران ما كانت عليه هذه الساحة من الأبه والرونق
فى أيامها وإيام هذا الملك — المنحطب الثالث — الذى بلغت بلاده فى عهده
ذروة الغنى والرخاء ، وانطلق ابراهيم يحدثها عن هذا الملك وكيف انه
وهو يبنى هذا الهيكل اغتتم الفرصة فرسم لشعب طيبة على الخدران
سلسلة من المناظر تتعلق بارتقاة العرش وتبرره ايضا ، وذلك لأن
الشريعة المصرية كانت تقضى بأن يكون الذى يتولى الملك زوجا لبنت
الملك الكبرى أو ابنا لها ، ولكن اباء — نحوتمس الرابع — لم تكن

له ، على ما يظهر ، بنت فيتزوجها الابنت ملك لإقليم صغير في سورية اسمه
ميتاني ، وقد تزوج أمحوتب وهو صغير - - في - وهي ليست من أسرة
ملكية ، وأكبر الظن أنها لم تكن مصرية ، ولهذا شاد أمحوتب هذا المعبود
ليألف قلوب الرعية ويرضى كهنة طيبة ، وقد أريد بالرسوم والنقوش التي
تصور ميلاد الملك وتربيته هو كل شك في حقه في ارتقاء العرش .

وقال إبراهيم بعد أن أفضى إلى ليلي بهذا التاريخ القديم :

- أحسب هذا مثالي . .

فعطفت إليه وجهها وابتمت وهي تتوقع أن يفاجئها بملاحظة مضحكة ،
أو مفارقة غير منتظرة ، على عادته ، ومضى هو في كلامه فقال بلهجة
جادة :

« . . . أنا أيضا أرتقى عرشا أكبر ظني أن ليس لي فيه حق شرعي ،
فليتني أستطيع أن أشيده معبدا ضخما لإلهي المعبود ، أسوغ به ما استوليت
عليه ، ولم تكن ترتقب منه هذه اللفتة الجادة فغاضت ابتسامها ، وعجبت
لتعاقب الوجوم والبشر على وجهه ، والصحو والغيم في سماء نفسه ، وأحست
أن هذا لا بد له من علة ترجع إلى ما لقي في حياته وأنه لاشك قد قاسى
وتعذب ، فرق له قلبها ، وأرادت أن تجلو صدره فقالت :

- ما لوجهك فيه كل آيات التعاسة ؟

وزمت شفيتها وكانتا ترتجفان ، فألقى إليها إبراهيم نظرة عتب ، ولم
يقبل شيئا ثم التفت إليها فجأة وأمسك بكتفها المستديرتين ، فانتفضت
للمسه ، وقال :

- ليلي . ستشقين بسببي غدا ، غدا !

وهز كتفها بعنف ، فقالت :

- كلا ! لن أشقى . أو فلأشقى ! سيان ، انما تنشأ الأحرار لأن
الإنسان يفرض لسعادته ثمنا . ولست أتقاضاك ثمنا ، فدع هذا ، على أنك
أديت ولا تزال تؤدي لي ثمن سعادتي ..

فقال : وكيف ؟ مستغربا .

قالت : أأست تحميتي من التسعة عشر ؟ .

فابتسم ولكنه قال :

— ليلى . واجهى الأمر جادة . أرجو .

فقالت من غير أن تعبس :

— ماذا كنا نستطيع أن نفعل غير ذلك ؟ كيف كان يسعنا أن نقاوم .

لقد كانت لحظة شعرنا فيها أن كل حاجز بيننا قد انهار ، وأنها لحظة إذا أفلتت فبهيات أن تعود ! ويجب أن تبقى ليلتنا تلك في ذاكرتنا أنفس مائذخر وأجل ما استمتعنا به . فبالله عليك لا تمط وجهك ولا تقصد على تلك الذكرى !

فوجه إبراهيم وحار ماذا يقول ، وجلست هي على رجله وقالت له

وذراها حول عنقه :

— لعلك فكرت في الزواج ؟ هيه ؟ لا أستغرب أن تكون قد فعلت

فإن رأسك هذا دائب العمل كالزمن ، لا يني ولا يتوقف ، كلا يا صاحبي ، ان الزواج نقلة الى حالة أخرى . . لانعود بعده ليلى وإبراهيم ، كما نحن الآن ، ولا تبقى هناك متعة نستفيد منها من تلاقينه ومن خلواتنا . . لازواج بيننا . . فلنبق هكذا . . دائما . . أنت إبراهيم لأكثر . . وأنا . . ليلى . . لا قيد ولا رباط سوى هذا الحب ! . انظر . . الطليق كالعصافير . . ان في عينيك دهشة . أليس هذا بعض ما علمتني ؟ أيجلج التلميذ درسه وينساه أستاذه ؟ أوه لا ! لست وحدك معلمي . لا تخف ، الدنيا كلها علمتني . الحياة هي التي أجرت ارادتي وخواطري في هذا المجرى ، وما كنت أسالك كالتلميذة الا لأنني كنت أحب أن أسمع منك خواطر نفسي وهواجس ضميري بلسانك وبقوة بيانك . وكنت أخشى أن تخيب أملى فيك ، فلما صدقت فراستي كنت أصغى اليك وأنا أنفض من السرور والدهشة أيضا . . لقد خلقنا — أنا وأنت — لنحيا هكذا . . لسننا نصلح لذلك الحب التقليدي . .

ولكنك لم تقل لي قط أنك تحبني أوه .. لا .. لا نقلها .. لا تبذل المعنى
بلفظة . لا تبذره ، دعه يطل من العين فقط ويختلج على الشفة .. ويضطرب به
الجسم كله .. أو تتكلم العصافير ؟ والحمام ؟ لا تقل شيئا .. قبلي .. مرة
أخرى .. !

ولم يكن إبراهيم قد سلاشوشو ، ولكنه تسلى ، ولم ينقص حبه لها
ولكنه تعزى بحب سواها . وقد ينكر القارئ أن يتسع القلب الواحد لحبين ،
غير أن الواقع كان كذلك ، وعلى أنهما كانا حبين من طرازين متباينين ،
لا يمنع أحدهما الآخر ولا يزاحمه ولا يصعب لذلك أن يعيشا في القلب
متجاورين كما يتجاور في القلب حب الوالدين ، وحب البنين ،
وحب الأخوة ، وحب الزوجة ، وحب الصديق ، حب الأدب أو الفنون
أو غير ذلك ، وكلها محاب ولكنها مختلفة في مصادرها ومظاهرها وآثارها ،
واختلافها هو الذي يوسع لها ضمير الفؤاد . والنفس الإنسانية أعمق وأرحب
وأغزر موارد من أن تشقى أو تضيق بمعاشق شتى متنوعة ، وأين ذاك الذي
سبر غور النفس وفاض إلى أعماق أحماقها ونفذ إلى كل شعابها وتغلغل إلى
أخفى كهوفها وزواياها حتى يجوز له أن ينكر أن يتجاور فيها حبان لإنسانين
كما يتجاور حب لواحد وبنفس لآخر ؟ من الذي مسح هذا « التيه » المضل
ودرس طرقه وأحاط بمنعرجاته ، وألم بمبادئه ونهاياته ؟

وهكذا كان قلب إبراهيم يعمره حبان : حب شوشو الرائعة التي تستولى
على النفس محاسنها « جملة » - وكانت شوشو كما أسلفنا القول في ذلك
« فتاة » لا يحس الرجل مادتها ، ولا يلتفت حين يحادثها إلى « الشكل » وكانت
قد رتتها هذه على صرف المجلس عن التأمل المادى لمعارف وجهها وخصائص
عيناها ، ليس مرجعها إلى لباقة أو كياسة مكتسبة ، وإنما كان مردها إلى
تلك السداجة الخفية التي تذيب القلب وتشيع السرور في الصدر وتثير كرم
النفس ومروعتها وكان لها نجرة النفس للفريرة وحرارتها وخفتها ، وكان
لإحساس المرء حيالها أشبه بإحساسه حيال الطفولة الجميلة البريئة .

أما ليلى فخلق آخر . وجمالها مختلف جدا . وفتنتها مستمدة من عناصر
غير هذه ، فقد كانت أولى مزاياها اللين والمرونة حتى لكأنت تبدو ساكنة
وهي تنساب ، وكان جلسها لا يسعه إلا أن يشعر أن لها عينيْن اثنتين . والمرء
في العادة لا يجعل باله إلى هذا الإزدواج ولا يلتفت إلى تلك التثنية ، حتى
يلغى أن يستعمل لفظ المفرد ، والمعنى مثنى ، فيقول العين ويريد العينين ،
ويذكر الجفن وهو يعنى الاثنين لأن النظرة من كليهما واحدة . وهما توأمان
ومعناهما في الدمن مندمج ، ولكن ليلى كان لكل من عينيها إيماءتها ،
ولا اختلاف بين اللمغتين ، وإيهما المتجاوبتان ولكنهما على ذلك فيما يحس
الرجل مستقلتان . وكانت أمارات التفكير الكثير المرتسمة على عيها ربما
أطفاَت هذا الالتماع ، وإن لم تعف مع ذلك — إلا قليلا وإلى بضع دقائق —
على شيء من الدلال فيها لم يكن على هذا بادى التكليف بحيث ينفى صدق
السريرة . وكانت شفتاها — كمحاجبيها — تحطين حاسمين حادين ، وإن كانت
تقويستهما لينة رقيقة . والمرء يتوقع — ولا يستغرب منها — حين ينظر إلى
جبيها الوضاء الذى ترد عنه الشعر ولا تدعه يتسدل عليه — الصراحة والجراءة
صراحة النفس التى تأنف أن تغاط في الحقائق ، وجراءة القلب الذى ذاق
وجرب ، والعقل الذى فكر وتعب .

فبينما كان إبراهيم ينعم بحب ليلى وقربها ، وكانت هى تساقيه الهوى صرفا
غير مقطاب ولا مكدر ، وبلا قيد أو تخرج ، كان قلبه يتلفت إلى شوشو
وينثى بالصبوة إليها والتحرق عليها والتوجع لفراقها والبعد عنها ، وكان
في كلا حبه مخاضا : يجرى في هواه الحديد بغير لجام ، ويرتد إلى شوشو
بالقلب الكسير المستهام ، فكان جب ليلى الخمر يعب فيها العاشق الوهمان
يحسب أن سيفرق فيها وجده . فتستمر جوانحه وتضطرم النار في جبينه
وتتصصف أعضاله . وكان تحرر ليلى يفتته . وسداجة شوشو تسببه ، وكان
جب شوشو يتمثل له جاسما كالزهادة لمن لم يجد لعله نفسه شفاء في الرياء
والضرب في زحمة الحياة . وكان يبدو له — بعد أن انتهى إلى ما انتهى

إليه — بمثابة الرفض للحياة . ورفض الحياة — على كل محره لايزيد
النفس إلا إحماء . والزهادة قد تكون منجى ولكنها بأس ، وهى ، على كل
ما تدل عليه من القدرة على التمسك فوق مغريات الحياة ، قلما يفضى
إلا إلى أن تحسر النفس عليها ورضاها ، والسعادة لا تجنى فى الحياة بأن يرد
المراء يده ، بل بأن يمدحها إلى التمار ليحسبها .

وكان حين يفكر فى جبه الليل يتصور الهروب من النفس ، ويخيل إليه
أنه يسوم ذكائها اطفاء . وأنه يبيلدها وينشر الضباب على صفائها ولم لا ؟
أليس اللبيب هو الذى يحض نفسه مراحا ؟ أليس السعيد هو الذى يقهر
نفسه باللذة ويضئها ؟

فهما حبان مختلفان يمثلان فى مظاهرها وفى جوهرهما مذهبين مختلفين :
رفض الحياة والاستغراق فيها . ولكنهما من حيث النتيجة سريان .

وسواء من قال ليس سوى الأرض ومن قال لن تنالوا السماء .
وأبيقور — بعد — كزبنون ، كلاهما مخطيء . وكلاهما مصيب ، وقد
التقيا بأعجوبة من أعاجيب الحظ الساخر فى نفس ابراهيم .

بل هناك جب ثالث كان ملقى فى زاوية من نفس ابراهيم ، ولكن
كونه غير طاف على اللجة ليس معناه أنه غير موجود . وما أكثر ما كان
ابراهيم — حين يجيش صدره وتفور نفسه وتختلط الأعالي بالأسافل ويندفع
الراسب إلى مستوى الطافى — يذكر ماري ويشتاقيها . « أرى الضعيفة التى
تشعره بقوة ، المدعنة التى تؤكد له قدرته على القهر وتبرز له لذة الغلبة
ومتعة السيطرة ، فيبتسم ويود لو أنها إلى بجانبه ليوحى إليها ارادته وليشعر
بلذة الإسراع إلى الاجابة والامتثال .

وقال ابراهيم وهو يفكر فى ثالث قلبه :

« عجيب .. عجيب .. حين أذكر « ماري » أحس سطوة القوة ،
وصيال العزم ، وعتو الجيروت ، وأتصور شوشو فاحس وقار التجربة
وسمت العلم وأبهة الشيفوخة وحنو الأبوة ، وأكون مع ليلي فأراى
كأنى أعلم رقصة الحياة على ايقاع الشباب .. عجيب .. عجيب .. »

الفصل السابع

« حوط طريقى فلا اعبر ، وعلى سبلى جعل ظلاما »

لم يسمع الدكتور محمود الا أن يتسم ، وهو يقرأ الرسالة التى بعث بها قريبه الشيخ على مع أحمد الميت ، يأمره فيها أن يحضر ولا يذكر سببا مرجحا لذلك ، ويؤكد له فيها - بلا مناسبة - أن كونه طبييا ، مثل كون أحمد الميت ميتا - كلاهما كذب على الله والناس !

وكان الدكتور محمود يجاهد منذ عاذ إلى الإسكندرية ، أن يروض نفسه على السكون إلى اليأس من شوشو ، ولم يكن يدرى لماذا ينبغي أن يقنط ، وينفى عنان الأمل ، ولكن الشيخ على صده عن الرجاء ، والشيخ على بطبيعة الحال أدرى ، وهو ناصح غير متهم ، غير أن المسألة مع ذلك غير مفهومة ، فهل كل ما فيها أن شوشو اصغر من سميحة ، وأن الكبرى تتقدم الصغرى - وتسبقها إلى الزواج ؟ قد يكون هذا هو السبب ولكن لهجة الشيخ على تنهى ، بأن هناك شيئا خلافا لم ير أن يفضى به اليه ويطلع عليه ، فما عسى أن يكون هذا الشيء الآخر ؟

وكان الدكتور محمود أشرف من أن يخطر له أن يتسقط الأخبار أو يستدرج الخدم ومن إليهم ، لعله يظفر منهم بما يحل هذا اللغز أو يهتدى على الأقل إلى طريق الحل ، فوطن نفسه على الصبر وترك ظلمة الجهل التى هو فيها تحيط به من غير أن يحاول تبديدها أو إزاحة شيء من الضوء عليها ، وضاعف جهده فى عمله ليكون ذلك اعون له على الاحتمال ، وساعدته طبيعته وظروف حبه لشوشو على أن ينتقل بها وب نفسه إلى دائرة الأحلام والذكرى المحببة التى تشبهت بها القلوب .

وكانت ساعة القيام من النوم فى الصباح اقصى الأوقات عليه . فهو فى النهار ينصرف إلى عمله وإذا ثقلت عليه وطأة الوحدة لم يغد جليسا يسامره اما فى الصباح فالأمر على خلاف ذلك .

تبدو له الحياة اول ما يفتح عينيه عليها متاثبا ، وردية ذهبية ولكنه لا يكاد يفرك عينيه حتى تكرر اليه الذكري الاليمية بكل قوتها وقد زادها تكرار الهجوم منها وتكرار التضعف أمامها ، قوة على قوتها ، ففي كل صباح يفتح حياته بالشعور بمرارة الحرمان وقسوة الأقدار ، وفي كل صباح يهمس في اذنه قضاء الحظ ان حبه يجب ان يموت ، وفي كل صباح يرتد فرعا من هول هذا القضاء الذي لا لطف فيه .

ولو كان الدكتور محمود أصلب عودا لقاوم وكافح ورفض أن يلحن لهذا القضاء الذي فرضه عليه الشيخ علي ، أو على الأقل جدا . لطلب من الشيخ علي أن يبين له السبب فيما يقضى به عليه ليعرف في أى طريق يسير ، ولو كان من ذلك الضرب المرح الطروب الذي لا يعنيه من الحياة إلا مقدار ما يطلب من متعة تعود أمتع إذا كانت اخشن . لهز كتفيه ساخرا ولطابت نفسه بسرعة عن شوشو ، ولكنه كان من ذلك الطراز الذي يسه أن يعيث ولا يعيا بالصدمات. إذا كان لا يشعر بعاطفة قوية ، حتى إذا صار الأمر جدا ، انقلب حيا ضعيفا غير كفء لما تتطلبه العاطفة . وكأنيب مهنته — بما تنطوي عليه من تبعات جسام — قد عودته الشعور بالمسئولية وأفرغت عليه روح الجلد الصارم في شبابه ، وعلمته ان ينظر من أنفه الأسباب إلى أخطر النتائج ، فلما أدرك أنه قد أحب شوشو وأنها قد استولت على هواه واستبدت بقلبه ، استحال إنسانا آخر .

وقال الدكتور لـ أحمد الميت في الطريق إلى القرية .

— هل مرض أحد ؟

فقال الميت : « لا ، أبدا ، كلهم بخير » .

فقال الدكتور كأنما بناجي نفسه :

— اذن لماذا يدعوني الشيخ علي ؟

فهز أحمد الميت كتفيه ولوح بيده وقال — كأنما كان الخطاب له :

« نسألي أنا ؟ حصانك هذا أدرى مني . فقد تطوحت لحمل الرسالة لأهرب

من وجهه » وضحك .

فنظر الدكتور إليه بسرعة ، ولم تعجبه هذه الضحكة العصبية ، وشد
الاجام ثم أرخاه فأسرع الجواد وانطلق بخطف ، فكاد أحمد الميت الذى
فاجأته هذه الحركة يقع على ظهره ، وارتفعت يده بسرعة إلى قفاه ليرد العمامة
إلى جيبه ، ثم العباءة فوق ركبتيه وانحنى إلى الإمام قليلا .

وكان الدكتور يفكر فى أمر رفيقه وخرابة اعتقاده أنه مات ، وأنه الآن
غير حى ، وسلامة عقله فيما عدا ذلك ، فسأله :

— أحمد .. كم عمرك الآن ؟

فابتسم أحمد كأنما فطن إلى الغرض مما ظنه مداعبة ، ولم يجب فأعاد
الدكتور سؤاله :

— كم عمرك يا أحمد ؟ لماذا لا تجيب ؟

فرفع أحمد وجهه إليه مستغربا وقال :

— عمرى إيه ؟ سبحان الله العظيم . حتى أنت يا دكتور !

فافتقر الدكتور عن ابتسامة العارف وقال :

— دعنا من عمرك الآن وقل لى كم كان عمرك لما مت ؟

فأرسلها أحمد نظرة طويلة ساكنة إلى الطريق ، ثم طأطأ رأسه وثنى عينيه
إلى حجره وقال :

— إيه .. سبحان العالم . ده شئ مضى وراح . لو كان فى العمر بقية ما
وافى الأجل ؟

فلم يستطع الدكتور أن يتابعه فى أسلوب تفكيره ، أو أن يدرك البواعث
على هذا التعليق ، فسأله :

— ألا تذكر شيئا من حياتك .. أعنى قبل أن تموت ؟

فأدار أحمد وجهه وقال بلهجة جادة :

— أذكر إيه ؟ أنا مت واللى كان كان .

فقال الدكتور : « أصرف ذلك ، ولكن ألم نعلم قط ، أعنى ألا ترى فى
منامك شيئا من حوادث تلك الحياة الأولى ؟ » .

فلم يعجبه هذا السؤال وهز رأسه مراراً قبل أن يجيب :
— أبوه يحلم . لكن معنى ايش دراني إن اللي بشوفه هو اللي كان . . أهي
منامات تها ليس . .

فالح عليه الدكتور :
— وماذا ترى في منامك ؟
— كثير ماتعدش . مين فاكر ؟
فقال الدكتور :

— هل تذكر أحلام معينة ؟ هل ترى الحلم الواحد مرات ؟
فصمت أحمد هنية وهو مطرق ثم قال :

— أي والله برضه يحصل .
ثم رفع رأسه وقال :

— وأنت ايش درالك ؟

فابتسم الدكتور وقال :

— ألا تذكر واحدا من هذه الأحلام المتكررة ؟

فظل أحمد مطرقاً ، ولكن وجهه ظهرت عليه آثار الكد والتمعير
يجاهد أن يذكر ثم قال :

— مش جادر وحياتك يا دكتور . هم الدنيا بينسى الواحد نفسه
وعاد الدكتور يسأله :

— ألا تتكلم وأنت نائم يا أحمد ؟

فقهقه أحمد وقال :

— يعني منين أبجي نائم ومنين أسمع نفسي ؟

فسكت الدكتور ولم يسأله شيئاً بعد ذلك .

ولما قابل الشيخ على قال له :

— أحمد الميت يستحق أن يراقب وهو قائم . فلا يبعد أن يتكلم بما هو مستكن وراء الوعي ، والعلم بذلك وبأحلامه أيضا قد يفيد فإن شفاهه فيما أعتقد غير بعيد .

— ٢٠ —

اضطربت شوشو لما علمت أن الدكتور محمود قد جاء ، وكانت مع زوزو تلاعبها وتضاحكها ، وكانت الأيام القليلة التي قضتها في القرية بعيدة عن أختها قد ردت إلى خدما صبغته الأرجوانية وإلى عينيها اللامعة التي أطفأها الكمد الباطن ، واستراحت من مكابدة سميحة وبلادة نجية ، ونعمت بعطف الشيخ على وحلاوة روح زوزو ، وشجرت وهي معهما كأن المستقبل ليس حالكا كما كان يبدو لها في الإسكندرية ، وكانت تقضي أكثر وقتها مع زوزو ، وكانت زوزو طفلة ولا بد للأطفال من الثروة ، ولا سيما مع من يطمنون إليه ويحبونه ، فأفضت زوزو إلى خالتها ببعض ما تعلم ، ومالا تستطيع أن تعلمه أو تفسره على الوجه الصحيح ولم تكن تعلم ، وهي تطلعها على أسرارها الصغيرة أن ستكون لها عواقب كبيرة ، فمن ذلك أنها أنبأها أن خالتها سميحة ذهبت إلى امرأة « تين البخت » وأنها بعد ذلك اشترت صندوق « شكولاته » وأعطته للمرأة التي تين البخت وتركته عندها ثم عادت فأخطته بعد أن سحرت المرأة الصندوق ، وقد سمعت فيما بعد أن الصندوق أرسل إلى «خالها إبراهيم» في الأقصر .

وقصت زوزو أيضا على شوشو ما سمعته من الحوار بين سميحة والدكتور محمود ، وكانت زوزو تراها من الحديقة وهما لا يريانها لأن الشجرة تحجبها ، وروت لها ما تذكر من كلام سميحة وما قالته في أختها شوشو

فسألها شوشو : «وماذا قال الدكتور لها ؟» .

فقلت زوزو : « لم أسمع كلامه يا خالتي ولكن خالتي سميحة كانت

محتلة في ردها عليه . لا لم يكن كلامها يعجب الدكتور ومن الذي يعجبه
هذا الكلام ، إنه عيب أليس كذلك ؟

وقبلتها بين عينها ثم مضت في روايتها فحككت لها أن أباهما أخرج من
جيب الدكتور محمود علبة كبيرة فيها حلقتان من الذهب لها فصوص
من اللؤلؤ ، وضحك زوزو وقالت : « كان بابا يحسب في جيبه فحم
كوك !! »

ثم دنت منها حتى صار فيها على أذنها وتلفتت أولا ثم قالت :
« أقول لك يا خالتي بس اوعى تقولى انى أنا اللي قلت ؟ هيه ! بالك
الدكتور كان جاي ليه في اسكندرية ؟ - (وخفضت صوتها جداً) بس
اوعى تقولى (وألصقت فمها بأذنها) كان جاي بخطبك وبابا قال له
روح ارمى نفسك في البحر » .

وبديهي بعد الذي اطلعتها عليه زوزو ، ان تضطرب شوشو حين يحىء
الدكتور ، وأن يدور في نفسها ما كان من مغالته لها قديما ، وان تسر
وتدهش وتحزن في آن معا ، وان تتوالى أمام عينها صفحات حياتها ،
بكل ما حفلت به وما انتهت اليه ، وأن تتوجع لصمت ابراهيم الذي أعيها
تأويله إلا على أنه قد غادر الأقصر ، وذهب إلى مكان آخر وأن تسأل
نفسها فيم يحىء الدكتور ولا مريض هناك ؟ وهذا الدكتور مسكين أيضا ،
هواه لا سبيل إليه كهواها ، وقد احتل الصدمة في صبر وأخفى الجرح
الدائم الذي في صدره ، وعاد يمشى بين الناس كأنه سليم معافى ، وكأن
دم القلب لا ينزف . فليست وحدها في محنتها ! وأحست شوشو بالعطف
على الدكتور ، وشعرت كأن ما أصابه قد اختصر المسافة بينهما وأدناها وجعل
من الممكن أن يتصادقا وان كان صبراً أن يتحابا ، أو على الأقل أن تحبه
هى ، وهو لاشك يعذرها .. يعذرها ؟ ولكن هل هو يعرف ؟ أترأه قد علم أنها
تحب ابراهيم وأن ابراهيم يحبها وهل يعقل أن يصدده الشيخ على من خير أن
يطلعها على السبب ؟ ولكن الشيخ على ربما كان قد اكتفى بمثل عذر نجية -

بأن شوشو هي الصغرى وان سميحة أولى بالتقديم . غير أن هذا عذر لا ينهض ولا يقنع الدكتور الذي لعله يجهل أن الشيخ على عجز عن تدليله ..
ولم يدعها أحد إلى مقابلة الدكتور ، ولم تنزل هي إليه ، فقد كان الوقت نهارا ، والشيخ على في السلامك ، ومعه رجال كثيرون وحسبها هذا عذرا وبقيت طول النهار وحدها لا أنيس لها الا الخادومات تراقبن وهن يقمن بواجباتهن المنزلية وتتلقي أوامر الشيخ على من حين إلى حين بواسطة زوزو . وكانت شوشو ربما تمنى أن يصعد إليها الدكتور لتراه ولتقرأ في وجهه ما فعلت الصلوة في نفسه ، ولكن علمها بما أفضت إليها به زوزو كان يجعلها تخجل حتى أن تتصور أنه سيصعد للسلام عليها ، فيحمر وجهها ثم يعود فيستقع .

وجاء الليل فلصقت زوزو بشوشو أمام الموقد ، ثم رفعت إليها وجهها الصغرى وقالت :

— خالتي !

— نعم .

— خالي ابراهيم ..

فانفضت شوشو وقاطعتها ، صائحة بها :

— أين هو ؟ هل عاد ؟ أهو هنا ؟ هل تعلمين شيئا ؟

فضحكت زوزو وقالت :

— دعيني أتكلم ؟ ما هذه الأسئلة كلها ؟

فكبهت شوشو نفسها بجهد واضح وان كان صدرها قد ظل يعلو ويهبط

كالبحر وانتظرت فقالت زوزو :

— هنا ؟ لا لا ! سيكلمه الدكتور الليلة .

ولم تفهم شوشو وقالت :

— يكلمه كيف ؟ وأين ؟ وهل عاد حتى يكلمه ؟

فقالت زوزو وهي تضحك مرة أخرى :

— أوه ! ألا تصبرين يا خالتي ؟ كلا لم يعد . الدكتور سيكلمه في التليفون .

اتفق بابا معه على ذلك .

فسألها شوشو :

— في أي شيء يكلمه ؟ ولماذا لا يكلمه بابا ؟

فهزت زوزو رأسها وقالت :

— وهل أنا أعرف ؟ إسأل بابا .

— أسأل بابا ؟

فقالت زوزو بخبت :

— آه أسأليه . لم لا ؟

فاخفضت شوشو عن هذا وقالت :

— ولكن لماذا يكلمه في التليفون ؟ ألم يكن خيراً من ذلك أن يكتب له

خطاباً ؟

فقالت زوزو :

— خطاب إليه ؟ وهل هو يرد على الخطابات ؟ لقد سمعت بابا يقول انه

بعث له بثلاثة خطابات وبتلغراف ولم يتلق أي رد ، ويقول بابا ان

الأوفى أن يتكلم الدكتور بالتليفون ليعرف هل هو في الأقصر أو سافر .

إذن ابراهيم لا يرد على احد — لا عليها ولا على سواها . وما أطيّب

قلب الشيخ على الذي لا يزال معنياً بها ؟ وما أقساه حين يكلف الدكتور أن

يقوم هو بهذا العبء ؟ لا شك أن الدكتور يجهل ما كان .

وانتفضت شوشو وقد خطر لها أن ابراهيم في الأقصر وأنه يجهل

الرد على هذه الخطابات عامداً . من فرط مرارة نفسه . وعناده . .

وكبره .

وسقطت من عينها دمعة على خد زوزو النائمة على حجرها فهبت

تقول :

— نخالتي !

— نعم .

ومسحت لها دمعها ولم تتكلما .

الفصل الثامن

(ما اسمه واسم ابنه ان عرفته)

- ١ -

عاد ابراهيم وليلى مساء من الكرنك في مركبة الفندق الضخمة فلما دارت ووقفت أمام السلم استغرب ابراهيم من نفسه أنه لا يكاد يعبأ بذلك وأنه لا يحس القدرة على التزول وكأنما وطن نفسه على البقاء فيها فاضطجع وأغمض عينيه .

فالتفتت اليه ليلي وسألته :

ألا تنزل ؟ مالك ؟

وأحس هو في هذه اللحظة أن الدمع سيطفر من عينيه ، وسرت في بدنه رعدة ، فانتفض وزرر الجاكته ، وتلفت حوله كأنما يبحث عن معطف ، ولم يكن الجو باردا ، وأنكر من نفسه هذا الضعف الذى استولى عليه لغير سبب ظاهر ، فقد كانت صحته حسنة ، وكان يجد مع الصحة القدرة على امتلاك النفس وضبطها وحكمها ، فلماذا يحس بالحاجة الى البكاء ؟ ما هذا الذى يأخذ بمخنقه ؟ ما لصوته يشهد ؟ ماله يحس كأن عمره قد زاد بغتة عشرين سنة ؟

ولحمت ليلي هذا التغير المفاجيء الذى تم عليه امتقاع لوته وتهضم وجهه وذبول جفنه وفتور نظرتة ، فأعانتة على التزول ، وألممت أن تدعه وشأنه وأن لا تثقل عليه بالكلام ، وأن تركه يستعيد حالته الطبيعية على مهل ، فقد خطر لها أن لما بدا عليه سيبا متعلقا بماضيه الذى تجهله ، وأشاحت بوجهها عنه وهى تصعد معه وان كان قد ظلت تراقبه خلسة من حيث لا يشعر ، وكان هو يجاهد أن يسترد ظاهره الساكن وابتسامته ،

الساخرة ، وبعد لأى ما استطاع أن يتكلف ما يشبه المألوف منه .
وصعد السلم بمشقة واضحة ، وكانت رجلاه كأنهما مثقلتان بالحديد
وأحس القرة في عظامه ، وابتردت كفاه فنفض فيهما ، ودخلا الصالون
وهى إلى جانبه ترعاه بنظرها ، ويحنو عليه قلبها ، وتكاد تحوطه بذراعيها
من فرط اشفاقها عليه ، وقد أدركت أن علة ما طرأ عليه ، برد أصابعه
أونحو ذلك ، وجلسا وطلب هر كاساً من الكولياك ثم أخرى وثالثة ،
وشعر بالدفع فانبسطت أسارير وجهه .

وقال فجأة وبغير مناسبة ظاهرة :

— لست أشاطرك حبك للمطر . كلا ، أحب شيء إلى أن أستاذقني ظهري
ظهري وأن أنسى .

فسرها أنه عاد يتكلم وأن أول كلامه إشارة إلى أول لقاء وإن لم تدر
بماذا تجيب فقالت :

— أعرف ذلك .. أعنى منك .. ولكن ما أكثر ما تمنيت أن أكون
في قافلة .. حبي للمطر لا يمنعني أن أشتى ذلك .. قافلة من الجهال في
الصحراء .. أصوات الليل لا بد أن تكون بديمة .
فسكت قليلاً كأنما يفكر ثم قال كالذى يحدث نفسه .

— ان الذى يفعله المرء ليس مهما وإعما المهم أن يستطيع تسويغه .
فلم تفهم ليلى ولم ترى علاقة قريبة أو بعيدة لهذه الملاحظة بما قالته ،
وازداد ذهوله ، وتكرر منه الكلام الذى يشبه مناجاة النفس ، فنصحت
له بأن يذهب إلى غرفته ويستريح ، ورافقته إليها ودخلتا معه وحتمت
عليه أن يتناول قرصاً من الاسبرين وتركته لتأمر له بالشاي بينما يكون
هو قد خلع ثيابه وورق في سريره .



رقد إبراهيم وهو يسعل قليلاً وينكر من نفسه هذا السعال الذى لم
يعانه من قبل على الإفراط في التدخين ، وأحس وهو مستلق بألم في عظام

صدره وبصعوبة في التنفس وبرعدة تعاوده ، ولكنه عزا هذا كله إلى
البرد والتعب ولم يعره اهتماما وشرع يتسلى بالتفكير ، غير أن ذهنه كان
يأتي أن يخضع لإرادته ، وكانت الحواطر تمر برأسه بلا نظام ويقع بعضها
فوق بعض كأنها الجيش المهزم .

ودخل الخادم يحمل أدوات الشاي لاثنتين ووضعها على منضدة صغيرة
أدناها من السرير ثم خرج من غير أن يتكلم كأنما لم يكن في الغرفة أحد .
وكان إبراهيم أثناء ذلك لا ينظر إلى الخادم بل إلى السقف كأنما يفتنه
منه شيء ، ولكنه قال لنفسه « إن الخجل من أن أكون مريضا في
الأقصر — وفي فندق أيضا — هو الذي جعلني أتقي النظر إلى الخادم . أليس
عارا أن يصيبني برد في الأقصر ، في هذا الجو الذي يستشفى به الناس ؟
وليت من يدريني كيف أصابني ؟ » .

وسعل ، وشعر أن التنفس يوشك أن يصير عملا متعبا ، فأنصرف عن
التفكير ونسى معرة المرض في الأقصر ، ليتفرغ لهذا الجهد الجديد الذي
يفرضه واجب التنفس ، وأحس بكسل عن الشاي ويفتور عام فأغمض
عينيه ومضى يعالج أن يتنفس بانتظام وهدوء .

ولم يشعر بليل لما دخلت ، وإنما اتبته على يدها تجس يده فقال وهو
يتكلف الابتسام :

... أوه أنت هنا . لم أشعر بك .

فابتسمت له ولم تقل شيئا بل دست في فم ميزان الحرارة وقعدت
على السرير عند قدميه ، ثم مضت بالميزان إلى الشباك ووقفت هنيئة تتأمل
ثم نفضته ليسقط الزئبق ، وقالت :

— لا شيء يستحق الذكر .. نصف درجة بل أقل .. أربعة خطوط ..
والآن فلنشرب الشاي .

ورفعت في رفق كأنما كان وليدا ، وسوت له الوسائد ليتسنى له أن
يضطجع وهو قاعد ، فبدأ بمعالجة الشك في صحة ما أنبأته به عن درجة
حرارته وقال لها :

— فيم كل هذا إذا كانت المسألة أربعة خطوط ؟
فابتسمت وزحفت إليه وقالت وهي تناوله ميزان الحرارة .
— إذا كنت لاتصدقني فما عليك إلا أن تعيد الميزان إلى فك ثم تقرأه
بنفسك .. هذا هو .

فخجل وقال :

— معلرة ، هذا ذنب الحمير .

قالت : « الحمير » !

قال : « نعم .. حمير الأقصر . ليس في رأسي غيرها » .

فقالت : « لست أفهم .. » .

قال : « لك العذر ولكن الواقع أن أبرز الخواطر في رأسي وألحها على
مذ دخلت هذه الغرفة ، كثرة الحمير في الأقصر .. أحسب الأقصر قد
أعدتني بحميرها ! فقد صارت الحمير هي كل ما في رأسي .. »

فسر ليلى أنه يمزح ، ولم تكن تعلم أنه جاد . واطمأنت إلى أن ما به
ليس أكثر من برد بسيط تزيله الراحة والدفء .

ونقر الخادم على الباب ، فأذنت له ليلى فدخل يحمل بضع زجاجات
ووقف ينظر ما قامر به .

فخطر لإبراهيم من الخادم إلى ليلى مستغربا وقال :

— ماهذه الزجاجات كلها ؟ ليست نبيذ أو شمباتيا ؟

فضحكت وقالت :

— كلا ! ماء ساخن للتدفئة .

وأومات إلى الخادم فوضع اثنين إلى جنبيه وثالثه بين فخذه والرابعة
إلى قدميه ودس أطراف الغطاء تحتها لتثبت ثم خرج .

فقال إبراهيم :

— ما أسرع ما صرت ممرضة ! من أي مستشفى جئت ؟

فضحكت وقالت وهي ترفعه لتعد الوسائد لنومه :

— والآن ينبغي أن تنام .

فقال وهو يطيعها : « ليس ينقصك الا أن تقضى الليل إلى جانبي على هذا الكرسي .. ولكن كيف أنام من العشاء ؟ أحتاجة تحسبيني ؟
فقالت : « عالج . إن بك حاجة إلى النوم . أما أنا فسأتركك برهة
لأعطيك فرصة ؟ »

فعجب وسألها : « برهة ؟ هل تعين أنك راجعة ؟ »
فحنت عليه وطبعت على جبينه قبلة وقالت :
— نعم .



ولكنها لم تعد إلا بعد ساعة ، ذلك إن انتقلها إلى الغرفة المجاورة لغرفته استغرق من الوقت واستدعى من الأخذ والرد أكثر مما كانت تتوقع وكان الباب الذى بين الغرفتين موصدا والمفتاح ليس فيه ، فاحتاج الأمر إلى البحث عنه . يضاف إلى ذلك أن أشياءها كانت مبعثرة فاضطرت أن تقضى زمنا فى ترتيبها فى الحقائق قبل نقلها ولم تشأ أن تجلس وحدها إلى المائدة فى حجرة الطعام لئلا يثير لفظا لاضرورة إليه ، فأوصت بأن يرسل إليها فى غرفتها الجديدة وأن يعد لإبراهيم مرق يرسل مع طعامها ليصيب منه فى الليل إذا أحس بالجوع . وأمرت بأن لا يزعجه أحد فى أى حال من الأحوال . ثم مضت إلى الغرفة وفتحت الباب المتوسط ودخلت على أطراف أصابعها فالفته نائما . وأشعلت فى غرفتها سيجارة وراحت تفكر ماذا يكون العمل إذا اشتدت عليه وطأة المرض ؟ أن البوادر ليست حسنة لأن درجة الحرارة تسع وثلاثون لا نصف درجة كما كذبت عليه ، ولم تشأ أن تدعو الطبيب حتى لا يزعجه . ولكنها ستضطر إلى ذلك فى الصباح إذا لم يتحسن . ولن تنقصه العناية والحذب فلنأخذها قائمة بخدمته ساهرة عليه ولواجبناج الأمر إلى دمها ليلته له راضية مسرورة . ولكنها على

كل ما بينهما من الحلب والمخالطة لم يخطر لها يوما أن تعرف عنه أكثر مما عرفت أول يوم . أكثر من اسمه ! وهو أيضا لم يعن بأن يسألها شيئا ، وقد قنع كلاهما بصاحبه واستغنى عن كل سؤال ، وقد كان هذا حسنا ولذيذا إلى الآن . غير أن المسألة تغير وجهها فصار لأمر من أن تعرف بعض ما تجهل .

ولما وصلت في تفكيرها إلى هذا الحد : انتفضت كالجمومة فهضت وهي تقول :

— كلا كلا ! إنه بخير ، ولن أسأل عن شيء ! يا لله ! لماذا تغزوا رأسي هذه الحواطر المزعجة ؟ كيف يطاوعني قلبي أن أتصوره بسوء ؟ لا لا لا ! هذا محال ، محال محال .

وانكلمات على السرير ودفنت وجهها فيه ويداه ممدودتان عليه ، وجاهدت مستميتة أن تنفى من رأسها كل خوف وأن تفرغ على نفسها السكينة وترد إلى قلبها الطمأنينة ، ولكنها كانت تحاول ذلك فقد ظل الحلب المستغرق يوسوس لها بالخوف ويحسم الأمر فلم تطق صبرا ، وعادت إلى إبراهيم تنظر إليه وكان لا يزال نائما ، ولكن ابتسامة كانت على شفتيه ، كأنما سره في منامه حلم ، فنازعته نفسها أن تقبله غير أنها كبحت رغبتها بجهد عفاة أن توقظه ورجعت .

وهكذا انقضى الليل في وساوس وهواجس ، تتخللها اغفاءات قصيرة وأصبح الصباح ولم تدق طعاما ، ولا نوما هنيا .

— ٢ —

لم يتغير جو الغرفة وإن كان إبراهيم قد أصبح أسوأ حالا مما بات على أنه سرعان ما وطن نفسه على المرض وراض نفسه على احتمال متاعبه ومقتضياته وكف عن المكابرة . من غير أن يفقد سكينة نفسه ، وكان التنفس سريعا شاقا والسعال قد صار أسوأ والألم في جنبه أحد ، ولكنه

مع ذلك كان يتنسم للطبيب الذى دعته ليلى ويسأل وكأن الأمر يعنى إنسانا غيره :

— والآن يا دكتور ألا تحدثنى عن هذه البنيمونيا ؟ إن اسمها لا ينقل لى أى معنى ولا يحدث فى ذهنى أى صورة . وأحسب أن من حقى أن أعرف شيئا عن عدوى الذى يهاجمنى إذا كان يراد منى أن أقاومه . وكان صوته غير ضعيف ، ولكن الألفاظ كانت تخرج متقطعة فقال الطبيب :

— لا صعوبة فى إفهامك ما هى ، الرئتان مكتظتان بالدم — على الأقل واحدة منهما عندك ، والهواء مضطر أن يخلى المكان للدم ، فالرئة لذلك لا تكاد تعمل ومعنى هذا أن واجب الرئة الأخرى مضاعف ، وعلى القلب عبء هذا الإجهاد أظن هذا كل ما هناك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى السقف ويرسم بخياله عليه صورة قلبه المكدود ورتبه اللتين تهيب أحدهما بالأخرى أن تبذل أقصى ما فى طوقها لإمداد صاحبهما بما يحتاج إليه من الأوكسجين وقال :

— إن هذا ممتع جدا ولا شك .

فسأله الطبيب وهو لا يكاد يفهم :

— ممتع ؟ كيف ؟

وقال لنفسه : « إن البنيمونيا هى البنيمونيا ، وكل شئ فيها إلا الامتناع » فسأله إبراهيم :

— وما هو العلاج ؟ اذكره لى بدقة . فإنك كلما زدنى بيانا كان ذلك أعون لى على مساعدتك . ألا تريد أن أن أساعدك على العلاج ؟ » .

فابتسمت ليلى كأنما تباهى بعليها وقال الدكتور :

— ليس شيئا كثيرا ، مسكن فى الليل ، وآخر لمساعدة القلب : وقليل من الكونياك كل بضع ساعات ، ولزقة لتخفيف التهاب وتهوين الألم

الذى فى جنبك . وأهم من هذا كله أن تكف عن الكلام فإن الحرارة
عالية والكلام يضررك ولا ينفعك .

فقال إبراهيم :

— لا تخف . ولكن الأمر فى أرى يحتاج إلى ممرضة فهل من سبيل
إلى واحدة فى الأقصر ؟ .

فتدخلت لىلى وقالت للطبيب :

— لا داعى لهذا — اليوم على الأقل ، وعسى أن لا نحتاج غدا إلى
شئ ، فإنه كما ترى مريض لا يتعب .
فابتسم إبراهيم وقال :

— مهلا ! سترين كيف أتعبك ! فلا تكونى واثقة جدا .

وأحسن إبراهيم وهو يقول ذلك كأنه انتقل إلى عالم جديد لا تبلى فيه
المرأة إلى أن تضيق إلى ليلتها الساهرة ، ثانية وثالثة إذا احتاج الأمر ، غير
عابئة بأنها تقضى نهارها وليلها مع مريض مقضى عليه بالصمت . أهو الحب
الذى يقويها ويشد أعصابها ، وطافت برأسه صورة شوشو وتمنى لو أنها إلى
جانبه ترعاه وتمنوه عليه وتغمره بطهارة نفسها — وابنه ؟ ابنه ؟ هل كتب
عليه . . ؟ وكيف نفسه مشجعا متصبرا ، وأراد أن يتكلف البشر ويتصنع
الاطمئنان كما فعل وهو يحادث الطبيب . ولكنه هز رأسه متأففا ومط فمه
مستنكفا ، فإن التكلف لا يكون بين المرء ونفسه . ومن عسى أن يخدع ؟
إنه مريض طريح وليس فى بدنه ذرة من الصحة . كل من حواه أصحاب
إلا هو فإنه أسير المرضى . . وهو وحده الذى يحمل عار هذا . . وسيقول
كل من يسمع بمرضه « مسكين مسكين ! » حتى نجية إذا اتصل
بها الخبر ستقول أنه مسكين . وسيدركها العطف عليه ، لقد أرادت أن
تخطم له قلبه وأن تقصف له ضلوعه ولم تعبأ بذلك ولم تبال ما تهدى
إليه من آلام العمر كله . ولم تحس أنها صنعت أو يمكن أن تصنع سوءا
ولكن قلبها سيتفطر إذا علمت أنه مريض وأنه مصاب ولو بزكام ! أليس هذا

عجيبا ؟ بل سميحة أيضا ! سميحة التي لاشك أنها تبغضه مستأنسا مخلصه .
نعم مخلصه . ما في هذا ريب .. وإن كانت هي التي جنت عليه وعلى شوشو
إذن سيعطف عليه الناس ؟ ألا أنه لمسكين حقا ! وعز عليه أن يكون موضع
عطف أحد من الناس — قريبا كان أو غير قريب — وأنف أن يرثى له أحد .
واستكبر أن يكون ذكره مقرونا بالشفقة عليه فإن العطف يضع المرء في
متزلة دون الناس فبأى حق يعطفون عليه ؟ ماشأئهم هم ؟ ليكن مريضا
وليكن مشفيا على الموت أيضا فإن هذا الأمر لا يعنى أحد سواء ! وأقسم في
سره لأن كان لابد من الموت ليفعلن

ولكن ما الداعي إلى التفكير في الموت ؟ ألم يقل له الطبيب :

« إني أهنتك مع ذلك ، فإنك مصاب بأهون أنواع الليمونيا لابللك
الطراز الحديث منها الذي نسميه « برونكو - بنيمونيا » وهو ضرب لا نعرف
أين نحن منه لأن الحالة لا تكاد تتحسن في موضع حتى تسوء في موضع آخر
أما « اللوبار بنيمونيا » فأبسط ، تبدأ بسرعة ويطرد الأمر فيها إلى الأزمة
بغير قلب وبدون محاورة ، وقد تستمر ثمانية أيام أو عشرة ، والمهم هو
الأوكسجين والنشاط ، الحيوية على الخصوص . الإرادة . فلا تنفق حيويته
في شيء آخر ولا تبعثر إرادتك وقوتك ونشاطك . وسنعطيك كل ما من شأنه
أن يزيد حيويته أو على الأصح يحفظها ويدخرها . ولكنك أنت العامل
الأكبر في الشفاء فلا تقلق ولا تنزعج لأن الانزعاج يضعف الحيوية .

ولم يعجب إبراهيم هذا الكلام ، ولم يرقه أن يكون هو العامل الأكبر
في الشفاء ، وود لو أن الطبيب اعتمد على عنصر أجنبي عن نفس المريض ،
عنصر لا يتأثر بخوالج النفس وعواطفها وما تحيى به من الذكر والآمال ،
وجعل وهو ينظر إلى السقف ينحى على الطبيب ويتهمة ، وكان واقفا وهو
يفعل ذلك أنه ظالم له ، ولكنه شعر أن الظلم لذيذ ، وقال لنفسه أن هذا
الطبيب قوى صحيح فني وسبعه أن يحتمل مقدارا عظيما من الظلم من غير
أن يضيره ذلك .

وقال لليلي، وهو ينظر إلى السقف، كأنما يحجل أن ينظر إليها وهو مريض :
— ألا تظنين أن الأوفى أن تطلي ممرضة لتساعدك ؟

وقالت وهي تدنونه وتمسح فيه بالمنديل :

— غدا نرى . لا داعي لذلك اليوم . وقد وافقني الدكتور . وفي هذا مايطمئن . ولذلك أصر على الإرجاء .

فسره تعلقها بما يطمئن، ولكن الحاجة إلى الاطمئنان معناها أن هناك داعيا إلى القلق، فلم يرتج إلى هذا الخاطر . وذهب من أجل ذلك يلح عليها ويقول :

— أنا أرى أنه لا بد من ممرضة، إن المريس يجعل الغرفة كالسفينة الجارية أعني أن آلاتها لا بد أن تغل دائرة ليلا ونهارا : بلا توقف . والليل والنهار ليساقى البحر سوى اسمين .

وابتسم لنفسه وقد أعجبه هذا التشبيه، وخيل إليه أن تشبيه هذا جعل مرضه يبدو طبيعيا . وذهب يفكر في غرفته كأنها سفينة، ولكن ليلي أصرت فكف عن الكلام وأغمض عينيه وقد أسخطه على نفسه أنه أظهر ضعفا بالحاجة على ليلي أن تدعو ممرضة . ونسى أنه تعهد للطبيب أن يساعد نفسه، وهاهو الآن يبدو ثقيلا جبانا خوارا ويفضح نفسه أمامها ! ولماذا ؟ هل كل ما يصاب بهذا المرض يموت ؟ كلا ! فلماذا يخشى هو أن يموت ؟ وهبة مات فإذا إذن ؟ أنه سيلقى أجله على كل حال، فما الداعي إلى هذا الوجع السخيف ؟ أى معنى لهذا القلق المزرى ؟ وعلى أنه سيشفى لا محالة . نعم فإن أكبر عامل في الشفاء هو المريض نفسه . ولو أن الشيخ على مكانه لتغلب على المرض بقوة الإرادة — إرادة الفوز . ولو أن أمه هو كانت هي المريضة لغلبت المرض بقدرتها المدهشة على الاستخفاف به، أو إذا شئت فقل بعجزها عن إدراك حقيقته ومدى خطورته — لا بل بقوة الاستخفاف، بالاستهانة، بالإيمان القوى الذى يجعل النفس تتلقى كل ما يصيبها باطمئنان وابتسام وقلة مبالاة بما يكون، وبثقة بأن المصير خير على التحقيق، وأنه لا موجب للاكتراث .

وسكنت نفسه وهو يتصور أنه يتنسم للموت وتهش لاستقباله وتهز
كتفها استخفافا به وفرحا بما بعده من جنة الله ورضوانه . وأحسن بأنه قد
صار أهلا لأن يكون ابنها ، وخلصت أنفاسه ، وخف الألم الذى فى جنبه ،
وارتاح وهو يشعر بما أحدثته فضيلة الإرادة وبنجاحه فى تغليب العقل على
الجسم وتحكيم الروح فى البدن فقد كانت فكرة واحدة كافية للتأثير فى أنسجته
بل فى عضلات قلبه .

وقال وهو يتنسم :

— إلى الآن أحسن . . لقد أفادتنى !

فقالت ليلي وهى تحنو عليه :

— ماذا ؟ ما الذى أفادك ؟

فقال من غير أن يحول عينه عن السقف :

— أرى !

— ٣ —

من الممكن أن يغتفر القارئ لليلي أنها فتحت عدة خطابات باسم
إبراهيم واطلعت على ما فيها . ولا شك أن هذا غير جائز ولكنه لا شك أيضا
أنها ألقت نفسها مرغمة على ذلك ، فقد كان إبراهيم لائعا ولا مستيقظا ،
ولم يكن فى وسع أحد وهو ينظر إليه أن يعلم أيهما هو ، أما الواقع فذلك
أنه كان بين اليقظة والنام — يلهي ، وكان يحلم بشوش ويرى نفسه فى بيته مع
أمه وابنه وكانت شوش تترامى له فى حلمه كأنها سيدة البيت ، وسره هذا
الحلم فرأى يعجب لماذا لم يخطر له أن يرى هذا الحلم من قبل ؟ وكانت شوش
تبدو له رائحة بينة العطف بارعة فى إدارة البيت كفؤا لمطالبه ، وكان هو
يحس أن مجرد وجودها شفاء ، وأن نظراتها سماوية وأن حركاتها تفرغ أعضاءه
وترعى جفونه وتشعره السعادة ، وأن كل أمرى يعيدها ويستوحىها ويستمد
منها الهدايا والإرشاد .

وتعلق إبراهيم بهذا الحلم وصار يتشبث بصورة ويسحر نفسه بمناظره
وكانت أنفاسه كأنما تعالج الخلاص من شرك وكانت مناظر هذا الحلم
تروح وتجيء بين خيوط هذا الشرك فالأمر مختلط ولكنه على هذا المديد .
ولم يكن يدري أن ليلي واقفة إلى جانبه تنظر إلى وجهه وتلاحظه وهو
يربده ثم يصفر ، وتسمعه وهو يناجي شوشو ، ولا كانت هي تدري من
عسى أن تكون شوشو هذه التي يذكرها في منامه . وقد حسبها - ولها
العذر أختاله وإن كانت الفرة قد همست في أذنها لعلها زوجة أو حبيبة .
ولكنها لم تسمع إبراهيم قط يذكر أحدا من أهله أو أقربائه . وأغرب
من ذلك أنها كانت تراه يتلقى الخطابات فينظر إلى الظروف ثم يلبسها في
حبيبه من غير أن يفتحها ، وكان هذا يسر ليلي منه لأنها اتخذته دليلا على
أنه لا يريد أن يشغل نفسه عنها حتى ولا بخطاب ، فلو أن له زوجة أو حبيبة
لادعه الشعور بالواجب أو الحب إلى قراءة هذه الكتب ولما وسعه في كل
مرة أن يصبر حتى يخلو بنفسه ، وكيف يمكن أن تكون له حبيبة أخرى ؟
ألم يهبها نفسه كما وهبته نفسها ؟ ألم يقطعها قلبه كله ؟ أكان من
المستطاع أن لا يزل لسانه أو تثنى حركة واحدة بأن له سواها ؟ كلا !

وصرفها طول هذياته ، وهي إلى جانبه ، عن هذه الحواطر الشخصية
فمادت تفكر فيه هو وفي واجبها حياله ، فلم يبق عندها شك في أن واجبها
الأول أن تتصل بأهله إذا كان له أهل ، وصحيح أن الطبيب قد طمأنها
قليلا ولكنه لم يستطع أن ينفي مخاوفها كلها . وقد علمت منه أنه لا يزال
أمامه بضعة أيام قد تكون نحسة وقد تزيد ، قبل الأزمة ، ولا سبيل إلى
الجزم بشيء قبل ذلك ، وإن كانت الحالة العامة ، وحالة القلب على
الخصوص ، لا تدعو إلى القلق .

ومن غير المعقول أن نسأل إبراهيم عن أهله وهو يكابد كرب هذا
المرض . فإن مجرد السؤال قد يضعف حالته النفسية ويوقع في روعه أن
صحته ساءت وأنه في خطر ، فالطريقة للعلم بما تجهل أن تبحث بين
أوراقه لعلها تهتدي إلى شيء .

ولم يكن أسهل من ذلك لأنها تتولى كل ما تقوم به المريضة والأهل تعاونها في ذلك إحدى خادمتي الفندق كلما هد السهر قوتها ، فهي التي تسقيه الداء وتقدم له الغذاء المسموح به وتغير له ثيابه ، وتفعل غير ذلك كل ما يحتاج إليه ولا تكمل أمره للمخادمة الا بضغ ساعات في الليل تنامها في غرفتها المجاورة له ، وقد استغربت وهي تبحث في حقائقه أن ترى كل الرسائل غير مفضوضة ، وزاد عجبها أنها جميعا موضوعة في ظرف كبير أصفر فليس عدم قراءتها يراجع إلى نسيان ، فان آية العمد هنا لانخفاء بها ، ولا بد أن يكون لذلك سر ، واحمر وجهها وهي تقول لنفسها وفي يدها الرسائل ، أترى لشوشو التي يهدى بها علاقة بهذا السر ؟

وننصف ليلى فنقول إنها طردت هذا الحاطر وهي تمضي إلى غرفتها بالرسائل وآلت أن لا تقرأ منها إلا بقدر ما تتطلب الضرورة ، ولكنها لم تكدر تفض واحدة حتى ألقت نفسها تسرسل في القراءة وقد ذهلت عن كل شيء حتى عن مريضها - إلا سطور الشكوى المرة والفجيرة القاسية التي ينطق بها كل حرف مما كتبت شوشو في رسائلها التي لم تلتق عليها ردا ، وننصف ليلى مرة أخرى فنقول إنها لم تشعر بذرة من الغيرة ، كلا . ولا بشيء من الشهادة أو السرور الذي كان خليقا أن يفيدها إياه علمها - الناقص - أن إبراهيم لا يجازي شوشو حبا بحب ، بل لا يعني لسبب ما حتى بقراءة رسائلها ، ومن أين لها أن تعلم أن حب إبراهيم لشوشو دفين في صدره وأن البركان كأحر ما يكون وإن كانت فوهته لا تغلف بالحمم ؟ وإنما الذي شاع في نفس ليلى هو العطف على شوشو ، عطف هو من كرم النفس لا من الشهادة المتنكرة حتى لقد بكت عيناها وهي تتصور الهول الذي تقاسيه شوشو والذي تم عليه رسائلها

وأضحكتها رسالة الشيخ علي - أضحكتها عبارتها وإن كانت مع ذلك قد كشفت لها عن جانب العناد والصلابة من نفس إبراهيم وأرتها مبلغ ما فطرت عليه هذه النفس من الوعورة ، فلم يلبث ابتسامها أن غاض ، فلم يبت

تفكر فيما تدل عليه هذه الرسالة العجيبة . ولم يخالجه شك في أن إبراهيم يطوى بين أضلاعه حكاية غريبة الأطوار .

ولكن اطلاعها على هذه الرسائل لم يفدها شيئا ولم يدينها من حل المشكل وكل ما عرفته أن هناك فتاة أو امرأة — فتاة على الأرجح فإن الجرح جديد — تحب إبراهيم — وأن أهلها واقفون في سبيلها ، وأنها في جحيم من العذاب والمكابدة ، وأن هناك رجلا اسمه « على » ظاهر بين السطور أن له دالة على إبراهيم وأنه يحاول أن يتألفه من نفرتة ، ورسائل شوشو من الاسكندرية ورسالة « على » من بلدة اسمها « م . . . » وقد تكون أو لا تكون هناك علاقة تنتظم هؤلاء الثلاثة : « إبراهيم ، وعلى ، وشوشو ، وطوت الرسائل وهمت بإعادتها إلى حيث كانت وإذا بالخدام ينبئها أن إبراهيم مطلوب إلى التليفون ، فماذا يجيب ؟

فسألته : « من الذى يطلبه ؟ » .

قال : « أرى أن يذكر لى اسمه . ولكنه يتكلم من بلدة م . . . » .
فنهضت وقد طاف برأسها أن لعله « على » صاحب الرسالة وقالت :
— حسنا . سأخاطبه بالنيابة عنه .

ومضت تعدو إلى التليفون ، وكان الذى يخاطبها هو الدكتور محمود لا الشيخ على ، فعلم منها أن إبراهيم مريض وأنه مصاب بالبنيمونيا وأن له ثلاثة أيام ، ووصفت له الحالة ونظام العلاج بأدق ما تستطيع ، ولم تستطع هى — من ناحيتها — أن تعرف أكثر من انه الدكتور محمود ، وأنه سيكون فى الأقصر بعد غد .

ولم يسألها من هى ، ولعله ظنها ممرضة ، وكان واضحا من لهجته ولهفته ومن إعلانه إليها انتواءه الحضور إلى الأقصر أن له بإبراهيم صلة وثيقة ، ورجحت أن يكون من ذوى قرابته الأدين ، فعادت وهى تحس أن مسئوليتها قد خفت ، وإن لها الآن أن تطمئن من ناحية الاتصال بأهله .

الفصل التاسع

(من هو جاهل فليعلم الى هنا)

نقر الخادم على باب الشيخ على ودعاه أن يوافي الدكتور محمود في حجرة المطالعة ، وكانت الساعة لم تتجاوز السابعة ، فوقف يتمطى ويلعن الدكتور ويتسخط منه هذا النشاط ، وكانا قد وصلا إلى الأقصر قبيل منتصف الليل ، فطلب الدكتور محمود من عامل الفندق أن ينيء السيدة التي تتولى أمر ابراهيم أنه قدم وأنه يريد أن يراه أول شيء في الصباح .

ودخل الشيخ على غرفة المطالعة فلم يجد بها أحدا ، وكان جائعا وقلقا فلم يستطع أن يستقر في مكان ، وجعل يروح ويحيى وهو يغتم ويتمم ، وأنه لفي إحدى هذه الروحات والغدوات وظهره إلى الباب ، إذا بصوت ناعم حلو يقول :
— بونجور يا دكتور .

وذكر بالصوت صوتا آخر يشبهه . فهم أن يلتفت إلى مصدره ولكنه تردد فلإن الخطاب ليس موجها إليه وإن كان يعلم أن ليس في الغرفة سواه ، فهل دخل غيره وهو لا يشعر؟ وخطا خطوة وهو يتوقع أن يسمع رد الدكتور على التحية ، ولكنه لم يسمع شيئا فعجب وتوقف ودار على عقبيه وإذا به يرى الفتاة التي أسمعته ما يكره في عيادة طبيب الأسنان في الإسكندرية ، وكانت مقبلة عليه وعلى ثغرها ابتسامة وضيئة ، ويدها كأنها تنبأ للمصافحة ، ولم يكذب يراها حتى جمد في مكانه وند عن صدره صوت لا يحسن وقوعه في أذن فتاة ولو كانت دمية بغیضة . ولم تكذب هي تراه حتى كأنما صدها جدار ، وغاضت الابتسامة ، وامتقع وجهها وارتفعت يدها إلى خدها .
ولكن الشيخ على ضبط نفسه بسرعة فابتسم وهو يقول :

— معذرة فاني لم أنس العلفه ، ولم اتوقع أن نلتقي بهذه السرعة .
فابتسمت بجهد واضح ، وتلفتت يمينا وشمالا ، وفي عينيها كل
امارات الحيرة والتردد والدهشة ، ولحظ الشيخ على هذا ، فرده إلى ما كان
بينهما من التناوب ، وسره ارتباكها وما توهمه من تحجلها لما كان من تطاولها
عليه ، وأراد أن يسري عنها فقال وهو يدنو منها :

— لا تخافى فإني وديع كالحرة وإن كنت ضخمنا كالفيول . وما تحملت
مشقة السفر لأخذ بثأرى بل لأعود مريضاً . وقد كانت بيننا حرب فليكن
بيننا صلح .

ولم يصدق الشيخ على أنه هو الذى قال ذلك . ورضى عن نفسه لما قاله ،
فلج في الابتسام واجترأ فمد يده الكبيرة .

ولم يخالج ليل شك حين سمعت هذا الكلام منه انه هو الدكتور قريب
إبراهيم ، فلم يبق لها مفر من أن تبقى إلى المحاسنة وأن ترد نفسها عما
همت به من الخاشنة ، وأحست أن كونه قريب إبراهيم من شأنه أن يرفع
الكلفة فتناولته كفها البضة وقالت وقد عاد وجهها يرف .

— انى مسرورة بلقائك . وأؤكد لك أن وجودك هنا من أكبر نواحي
ارتياحي واطمئنانى .

وضحكت وهي تضيف إلى ذلك :

— لقد صدق المثل مرة أخرى : إلى أوله خصام آخره صلح . .
أليس كذلك ؟

فدارت الأرض بالشيخ على ، ولم يعد يدرى أواقف هو على رأسه
أم على قدميه ، وشاعت السعادة في جسمه وفشت فيه الغبطة طولا وعرضا ،
واهتز كيانه كله وهو يضغط كفها اللينة ويرفعها إلى شفثيه وينحنى
عليها ويطيح فوقها قبلة صامتة طويلة .

فاضطرم وجهه ليل واضطربت ، وأسرعت فجذبت يدها وقد راتج
عليها فلم تعد تدرى ماذا تقول ، وأذهلها هذا السلوك الجريء
وتنازعها عوامل شتى متضاربة ، وكبر في ظنها أن هذا رجل

مستهر . وأرعبتها نظراته الناطقة بأشياء المطمئن إلى تحقيق رغبته الواثق من وقوعه على فريسته .

وبينما كان الشيخ على ميل كالجبل ليثم كف ليلي ، وعينه معلقة بعينها ، وعلى وجهه آيات الافتتان ، كان الدكتور مقبلا ، فلما هم أن يدخل أنحدت عينيه هذا المنظر فكاد يجمد في مكانه ، فما رأى قربه قط في مثل هذا الموقف ولا كان . يجري له في وهم أن للشيخ على عهداً بذلك ، ومنعه احترامه لقربه أن يقدم على مفاجأته أو يجترأ . على مقاطعته ، فارتد على عقبه وذهب من حيث جاء وقد نسي إبراهيم لحظة وانصرف تفكيره إلى تصابي الشيخ على ومنظره وهو كالقيل يحنو على غزال ، فضحك وقال :
— ولكن من عسى تكون الفتاة ؟

ويخطر له أن لعلها ممرضة إبراهيم ، فما كان يظن أن التي كلمته في التليفون إلا ممرضة ، وله العذر ، ومن أين يعرف حقيقة الصلة التي بينها وبين إبراهيم ؟

وقال لنفسه أن هذه الفتاة لا يد أن تكون الممرضة ، فما يعقل أن يستطيع الشيخ على أن يصل بمثل هذه السرعة إلى لثم الأكف إذا كانت الفتاة أجنبية أي إحدى النازلات في الفندق ، ولكن ماذا يمنع أن تكون صاحبة له التقى بها مصادفة ؟ وما دام الشيخ على يعرف كيف ينحني ويقبل أيدي الفواني فلماذا لا تكون له صلات مجهولة بنساء أخريات ؟
وحار الدكتور ماذا يصنع ، ولبتصاب الشيخ على كما يشاء وليغازل من يحب فإن هنا لا يكاد يعنيه ، وفي وسعه — أي الدكتور — أن يدعه وما يختار لنفسه ، والمهم عنده هو أن يقابل الممرضة ليعود إبراهيم من خير أن يزعيجه أو يحدث اضطرابا أو يثير في نفسه المخاوف من جراء مرضه ، لا بد من الاتفاق مع الممرضة قبل العيادة لتقوم بما يلزم من التمهيد فكيف يلقاها ؟ ان مواعده معها — ونظر إلى ساعته ، فألفاها قد جاوزت الوقت الذي عينته — في حجرة المطالعة ، وحجرة المطالعة يشغلها هذا اللون جوان وصاحبه ، فما العمل ؟ أيبعث إليها

بالخادم يدعوها ؟ إن معنى هذا يكون أنه سينيب عنه الخادم في مفاجأة قريبه ومقاطعته إذا كانت الفتاة هي المريضة ، وابتسم وهو يحدث نفسه بأن مقاطعة الخادم لهذا الفصل الغرائبي لن يسوء وقعها في نفس قريبه أولا ، لأن الشيخ على لن ينجعل على الأرجح من خادم غريب ، وثانيا لأن الخدم ... على الأرجح أيضاً ... أقدر على اتخاذ الموقف .

واستقر رأيه على ذلك .

ولم تكن ليلي أقل اضطرابا وحيرة ، فلإن عليها أن تحتمل - من أجل إبراهيم - جرأة من توهمته طبيبا وقريبا لإبراهيم ، ثم لا بد لها من صده وإلزامه حدود الأدب فلكت نفسها بجهد وقالت :

ألا تجلس ؟

قال الشيخ على إلى الكرسي وانحط عليه ، وقد نسي أنه على موعد مع الدكتور محمود في هذه الحجرة بعينها ، وأنه قد يدخل عليهما في أية لحظة ، ودار في نفسه أن ما تحدث عنه وهو يمزح من خطف هذه الفتاة التي أوجعته في عيادة طبيب الأسنان ، يوشك أن يتحقق فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

... قلما تصدق الأحلام ، ولكن حلمي في هذه المرة صادق . ولعل هذا لأنه من أحلام اليقظة .

فلم تفهم ليلي ، وخافت أن يكون هذا الكلام مقدمة لما تكره فقالت :

— أرجو أن تنتظر لحظة . لن أغيب طويلا . .

فنهض وهو يقول بلهفة :

— ولكن لماذا المهبين وتركيني بهذه السرعة ؟

فعمجبت لسؤاله ولكنها لم تر بأسا من الشرح فقالت :
دقائق ، فإن الواجب يقضى باتخاذ الحيلة إتقاء لعواقب المفاجأة .
أليس كذلك ؟

— يا عصفورى البديع ! .

ولما اختفت زاد على ذلك :

— لقد كدت والله آكلك !

وراح يتمشى .

ومن عجائب النفس الإنسانية أن الحالة التي تكون مسئولية عليها هي التي
تكسب المعاني ألوانها . بل هي التي تعين للألفاظ معانيها .

ولم تكذب ليلى تسير بخطوات حتى قابلها خادم وقال لها باحترام :

— إن الدكتور محمود ينتظرك ياسيدتى فى الصالون .

فوقفت وسألته مستغربة :

— الدكتور محمود ؟ من عسى أن يكون ؟

فقال الخادم :

— الذى وصل أمس يا سيدتى :

فدهشت ليلى وقالت :

— ولكنى كنت معه الآن . منذ نصف ثلثة ، وقد تركته هنا .

وأشارت إلى غرفة المطالعة . فقال الخادم مصرا :

— كلا ياسيدتى . ان الدكتور محمود فى الصالون وأنا آت من عنده

الآن . .

فتلفت ليلى كالخائرة ثم قالت :

— إذن من الرجل الآخر الذى هنا ؟ .

فقال الخادم : « لا أدري يا سيدتى » .

فأيقنت ليلى أنها كانت مخطئة حين توهمت أن هذا الرجل الذى

كانت معه هو الدكتور ، وثارت نفسها سخطا عليه لانه تركها تظنه طبيبا ،
وتحدثه بلا كلفة ، ومع أن الشيخ على لا ذنب له في هذا الخطأ ، ومع أنها
هى المسئولة عما توهمت ، فقد راحت تنحى على الشيخ على وتتهمه وتلعنه
وأحست أن كفها التى قبلها قد اتقدت فيها نار ، ووقفت راجعة وهى
لا تعى ما تفعل ، واندفعت داخلة إلى غرفة المطالعة : وما كادت عيناها
تقع عليه حتى صاحت به :

— أيتها الوحش ! كيف تجرؤ ؟

وكان الشيخ على يبتسم حين رآها مقبلة ويهم أن يفتح لها ذراعيه
فأحس حين سمعها كأنما وقع على نافوخه جبل . وتكررت الابتسامة
على ثغره فصار وجهه مشوها ، ولم يستطع أن ينطق بأكثر من « ايه ؟ »
بصوت مبحوح متهدج .

فصاحته به مرة أخرى .

— وحش . نعم . وثور ايضا . هذا أنت ويجب أن تعلمه .

ودارت خارجة وخلفته واقفا كالثقال .



سلم الدكتور محمود على ليلى سلام طبيب على ممرضة ، بأدب وبابتسامة
المتواضع ، وأشار إلى كرسي وقال بلا تمهيد :

— كيف مريضك الآن ؟

فلم يعجبها هذا منه ، وكانت أعصابها لا تزال متوترة مما وقع بينها
وبين الشيخ على ، فتجاهلت سؤاله وقالت بلهجة جافية :

— لقد انتظرتك في غرفة المطالعة . هناك كان موعدا .

فرمى إليها الدكتور نظرة فيها من العجب والسخر معان ، وقال وفي ظنه
أنه سيردها إلى مستواها الذى يجب ألا تعدوه :

— معلومة . ذهبت ثم تراجعت .

وكان يحسب أن هذه الإشارة كافية ، فقالت ليلى بالحاج ولكن بفتور
— لماذا تراجعت ؟

فزاد عجب الدكتور واعتدل في كرسيه قبل أن يجيب وقد خطر له
أنه ربما كان مخطئا ، ولعل الفتاة التي رآها مع قريبه غير هذه .
— رأيت في الحجرة ناسا .

واقصر مترددا . فتجههم وجهها وقالت وقد انتوت أن تعلن الحرب :
— أتستطيع أن تفسر لي هذا الكلام ؟

فلفت وجهه إليها بسرعة وسألها :
أى كلام ؟

فقالت وهي تسدد إليه نظرها :

— كون وجود الناس يردك عن مقابلي ؟

ومع اعتقاده أنها ممرضة وإن كانت في ثياب غالية ، كان في لهجتها
من العنف وفي نظرتها من القوة وفي هيئتها من السم ما أكرهه على احترامها .
ففرك كفيه وطأطأ رأسه وهو حائر لا يفهم وقال :

— أرجو الملعدة إذا كنت لا أفهم ما تقصدين إليه .

فقالت بلهجة الإصرار :

— هل كان موعدنا على خطوة ؟

فرفع رأسه فجأة وقال : « سبقتك » .

ولكنها لم تهتز وألحت عليه :

أجب من فضلك !

فدار حتى واجهها وقال :

— أرجو الملعدة مرة أخرى ، ولكنى لا أفهم عن أى شيء تتكلمين

فظلت ثابتة الحلق لا تحول نظرها وهي تقول :

— أريد أن أفهم لماذا منعتك وجود الناس أن تقابلني هناك بدلاً من أن تدعوني إلى هنا ؟

فأحس كأنه أمام محقق وقال متهرباً :

— هل كنت هناك ؟

فلم تدعه يتمحول بها عن الميدان الذي اختارته للمنازلة وقالت :

— أجبني أولاً من فضلك .

فأطاعها وهو لا يدري لماذا بطيعها وقال :

— اعتذر للمرة الثالثة ولكنني حين هممت بالدخول أحسست أن وجودي

غير مناسب . . . أعني . . .

فزادت شدةً عليه وسألته مقاطعة :

— ماذا تعني ؟ لماذا أحسست بهذا !

فتلعثم وقال :

— ألا تعفيني ياسيدتي ؟

فقالت : « بل يجب أن تقول فلان الأمر يعني » .

فرأى الدكتور فرصة سائحة للتخلص وسألها :

— هل كنت أنت الواقفة مع الشيخ علي ؟

فقالت لا أدري مع من كنت واقفة ، ولكن الذي أدري به أنه وحش

قليل الأدب » .

فكأنما شكته بـشيخ عمي فوثب إلى قدميه وهو يقول :

— سيدتي !

فقالت : « أيعنيك أمره ؟ » .

فقال ، وهو يعود إلى الجلوس :

— انه قريبى يا سيدنى .

فلم تهزم وقالت :

— ان كونه قريبك لا يمنع ان يكون كما اصفه : وحشاً قبليل الأدب .

فتتمم : « ولكن .. ولكن » .

فقالت : « قد عرفت ماذا هو فى رأى ، واطنك رأيت منه معى مايكفى لاقتناعك يأنى لا اظلمه . ألسن تقول انك ارتددت فلماذا ؟ لقد تركنى اتوهم انه هو الدكتور وارفع الكلفة بينى وبينه من اجل ابراهيم فجراه الخطأ الذى اوقعنى فيه على تقبيل يدى ومغازلتى . . . والآن دعنى منه : وقل لى بماذا تشير قبل ان تعود ابراهيم ؟

ولكن الدكتور لم يستطع ان يتابعها على نقل الموضوع بهذه الممرعة واستغرب ان تذكر ابراهيم باسمه مجردا من كل تلقيب ، وشك لأول مرة فى انها ممرضة ، بل أيقن انها ليست كذلك ، فن ضاها .. تكون ؟ أيسألها ؟ نعم هذا واجب انقاء لكل سوء تفاهم يحدث بعد ذلك . فقال :

— فهل تسمحين لى بتعريفى بنفسك ؟

فقالت بفتور : « اوه ! يمكنك ان تدعونى ليل ، لا بأس .

« لا بأس ؟ ماذا تراها تعنى ؟ وبدأ يقول :

— هل افهم انك

فقاطعتة قائلة : « لا تفهم شيئاً من فضلك . ان ما فعله معى قريبك يكفينى فى يومى هذا .

فعاد الدكتور يعتذر ، ونفض يده وهو يائس من محاولة الفهم واتفقا على ان ليلى تتولى مصارحة ابراهيم بحقيقة السبب فى حضور الدكتور والشيخ على ، وذلك لأن ليلى اضرت على أن الحقيقة اولى واخف ضرراً ، وقامت ليلى لتضى ما اتفقا عليه .

ولم تكذب حتى خفف الدكتور إلى الشيخ على في غرفة المطالعة فلم يجده ، فراح يسأل ويبحث حتى وجده يتناول طعام الإفطار فقعد أمامه وقال بلا مقدمة :

— ما هذا الذي فعلته ؟

فرفع الشيخ على وجهه الكبير وقال وهو مقطب :
— أهي مطاردة ؟ أم مؤامرة ؟ كل وأنت ساكت ولا فليست والله مشغولاً عما يصيبك .

.. فابتسم الدكتور وقال :

— سمعا وطاعة . ولكنني أردت أن انبهك إلى أنها ليست ممرضة .
فصاح به الشيخ على .

— أتريد أن أقطع لسانك بهذه السكين ؟

فضحك الدكتور وقال :

— وتأكله مسلوفاً أم محمرا ؟

فلم يجبه الشيخ على وأقبل على الطعام يلتهم منه ما لا يحسب الحاسب ، ولما فرغ اضطجع على كرسيه وقال :

— هل عند هؤلاء الناس قهوة ؟ أعني الكفاية من القهوة ؟

فأمر بها الدكتور ، ثم قال وهو ينظر إلى الساعة :

— سأدعك لأرى ماذا صنعت ليلى . . .

فاعتدل الشيخ على وسأله :

— ليلى ؟ من تكون هذه أيضاً ؟

فقال الدكتور وهو يرد الكرسي إلى الوراء وينفض :

— ليس المسئول بأعلم من السائل ، كل ما أعرفه أنها ليست

معرضة وحتى هذا عرفته استنتاجاً .

فعاد الشيخ على إلى الاضطجاع وقال :

... قد عرفت على الأقل اسمها . وسرى .

فقال الدكتور وهو يبتسم :

— أرجو أن تحذر فإنها ليست فتاة عادية . ثم أننا نعرف من أمرها شيئاً ، اعنى علاقتها بإبراهيم . ان في المسألة على ما يبدو لى لغزاً .

فقال الشيخ على متحكماً :

— واذت الذى ستحلّه ؟ هيه ؟ امثلك مقدماً !

ثم قال بלהجة الجلد :

— متى ارى إبراهيم ؟ انى لم اجد لأجل الغازأ بل لأراه ، ومتى رايته واطمانت نفسى فلان الوقت يتسع لحل ألغازك .

فقال الدكتور : « سأخبرك بعد ان اقابل ليلى » .

فقال الشيخ على : « ما أسرع ما صرت تتكلم عنها كأنها اختك الا بأس ، وأنا ماذا اصنع بنفسي بين هؤلاء الناس الى أن يجيئنى الاذن ؟ »

فقال الدكتور : « يمكنك ان تمشى فى الحديقة قليلاً ، او تنتظر فى الصالون ، أنها مسألة دقائق او نصف ساعة » .

فنهض الشيخ على وهو يندم ويقول :

— أتمشى . انتظر . انفلق . ماذا بهم ، ألسنت وحشا ؟ ثورا ؟ أليس كذلك ؟ ولى حوار أيضاً ؟ هيه ؟

وخرج يدب ويرج الأرض .

الفصل العاشر

« ولا يعلم ان الاخيلة هناك وان في اعماق الهاوية ضيولها »

— ورأيت هذا الفيل الطيب القلب ؟

وابتسم ، وبوده لو يستطيع ان يضحك ، ولكنه كان اضعف من ان يحاول ذلك او ينجح لو انه حاوله ، وكان — وهو ينظر إلى سقف غرفته — يتصور الشيخ على يميل على ليلى ويرفع كفها الرخصة ليقبها فيتركيانه كله من غرط السرور بهذا المنظر ، وقال وهو يحول وجهه إلى ليلى :

— لرا التف عليك خرطومه ياليلي لما أفلت ابدا . اتعرفين انه بعد أن قص علينا ما فعلت به في الاسكندرية ، انلرنا جميعا — ولا سيما زوجته — ان يخطفك ؟

فضحكت ليلى ، ووسمها الآن ان تضحك بعد ان روت لإبراهيم ماجدث بينها وبين الشيخ على في الأقصر والاسكندرية جميعا وعرفت ما حفل به الموقف من عناصر الخطأ المضحك وقالت :

— لقد غفرت له ، فاغفر له انت ايضا ..

فقال إبراهيم مقاطعا : « ماذا ؟ »

قالت : « تقبيله يدي .. اتغفر هذا ؟ »

فابتسم إبراهيم وقال وكأنه لم يسمع :

— ولا يزال فيلنا هائجا ، بلهله حقيقة الموقف ، وأحسبه الآن يصب غضبه على رأس الدكتور محمود المسكين ، اني اعرف الشيخ على وأكاد أكون على يقين ما يفعله بالدكتور الآن ..

فقالت ليلى وهي تهض وتمسح لإبراهيم جبينه :

— يحسن إذن أن أدعوها الآن فقد بدأت أخشى أن يحيق بالدكتور
سوء . . .

فقال إبراهيم : لا لالا ، إن غضبه لا يضر أحدا ، ألم أقل لك إنه
فيل طبيب القلب ؟ . .



وقال إبراهيم وهو يمد كفه ويصافح الدكتور محمود والشيخ علي .
وعلى فمه طيف ابتسامة :

— أشكركما جدا . تفضلا . أحسب زوجتي قد أخبرتكما بكل شيء
تفضل هنا يا دكتور . إلى جانبي .

قال ذلك بصوت عادي متزن النبرات لا أثر فيه للاضطراب . . وإن
كان ضعيفا خافتا بسبب المرض ، ومن غير أن ينظر إلى ليلي أو الشيخ علي
فأما الدكتور فاستغرب أن يكون إبراهيم قد تزوج في هذه الفترة القصيرة
ولكن الخبر لم يصدمه ، لأنه لم يكن يعرف شيئا يجعل زواج إبراهيم من أية
فتاة أمرا موجبا للدهشة وشعر بأن عليه أن يعتذر ليلي من توهم أنها ممرضة
ومما أدى إليه ذلك من استخفافه بها . حين التقى بها في الصالون ، فالتفت إلى
ليلى وقال قبل أن يجلس :

— لقد كنت سيء الأدب فأتأس الصبح .

وعجب ليلي التي كانت تطفر إلى جانبيها وهي تدعوها إلى غرفة
إبراهيم ماذا أصابها فجأة ، فقد كان وجهها مستقما وجبينها مقطباً وفي
نظرتها سهوم وشروء ، ولاحظ أن ابتسامها له وهي تقبل اعتذاره ،
متكلف ، فمعجب ، وقال لنفسه : لم أعد أفهم شيئا ، فإن هذه الألغاز
أكثر وأشد تعقيدا من أن أقوى على حلها . حسن ! إن واجبي الأول هو
نحو هذا المريض . وبعد ذلك يتسع الوقت لحل الألغاز إن كان حلها سبيل .
وجلس .

وأما الشيخ علي فقد وجم ، ودارت به الأرض ، وكاد يعثر وهو يفعد

على الكرسي : وكان كرسيا من القش له ذراعان ، فلما هبط عليه ألفاء
لا يتسع له ، فنهض ليتخذ سواه ، ولكنه كان قد انحسر فيه فظل عالقا به
ومرتقعا عن الأرض وراءه ، فثارت ثائره ونسى أنه في حجرة مريض
وانتزعه بعنف ثم تناوله ورماه بقوة ، وصاح بهم جميعا :
— إن لم تحطموا هذا الكرسي حالا . .

وأمسك ، وقد تذكر أين هو ، فسار إلى الكنية وانحط عليها فانت
متوجعة وأغمض عينيهِ وراح يفكر في إبراهيم وعناده وكبره ، وفي هذا
الخلق الوعر الذى دفعه إلى الزواج من فتاة غير شوشو التى يحبها وتحبه .
نعم يحبها ، فما كانت ذرة من الشك تخالج الشيخ على أن إبراهيم لا يزال
وسيقظ يحب شوشو كأحر ما أحبا ، بل كان الشيخ على وإثقا أن مرض إبراهيم
ليس البليمونيا فإن هذا هراء أطباء سخفاء ، وإنما الذى به هو من أثر الصراع
المائل بينه وبين نفسه ، وليس هو بالشيخ على إذا لم يكن ظنه صائبا ، بل
هو لا يعرف إبراهيم إذا لم يكن الأمر كما يتصوره . وكر الفكر به إلى
شوشو المسكينة التى لم يكن ينقصها أن تهوى على أم رأسها هذه الضربة ،
شوشو التى اضطره سفره أن يعيدها إلى الاسكندرية . . إلى مكابدة سميحة
وغباء نجية وكثافتها ، ولقد صار واجبه الآن نحو هذه الفتاة أقسى وأفدح
فماذا يصنع ؟ أليس الأولى به أن يطير راجعا إلى الاسكندرية ؟ ماذا
يصنع هنا فى الأقصر ؟ إنه ليس بطبيب ، وقد خرج الأمر من يديه فيما
يخلق إبراهيم ، وهو هنا لا تنقصه العناية . له طبيب يعالجه وهذا طبيب
آخر معه . وثم هذه الفتاة المجنونة ترعاه وتسهر عليه ، فليس إبراهيم هو
الذى يحتاج إلى العناية بل شوشو .

وتوجه الشيخ على وهو قاعد على الكنية وجعل ينفخ ويثلوى غير شاعر
بمن حوله أوعاىء بهم . وكانت عيونهم لم تتحول عنه منذ رمى الكرسي
وأضحكهم بثورته ، ولم يلبثوا أن رأوا وجوهه وتململه فغاض الابتسام ،

وإن كان لم يقطن أحد إلى ماني رأس الشيخ على خير إبراهيم ، ولم يثقل
الموقف غير الدكتور ، فقد التفت إلى ليلي وقال :

— هل تسمحين بأخذ الشيخ إلى مكان آخر ريثما أفحص الأستاذ ؟

فقالت ليلي وهي تندنو من الشيخ على :

— تفضل معي .. دقائق ثم نعود ..

فانتبه الشيخ على ووثب ، وهو يقول أو يصبح على الأصح :

— معك ؟

فلم يسعها إلا أن تبسم وقالت :

— نعم . وثق أني سأكون وديعة جدا .

— ٢ —

وتقدمته ليلي إلى غرفتها ، وأوصدت الباب وراءه وقالت وهي تسير
إلى الكنية :

— هل أدهشك أني زوجة إبراهيم ؟

ولم يكن يتوقع أن تفاجئه بهذا السؤال ، وخاف أن يكون تمهيدا
لهجوم جديد فعلمة ثالثة ، غير أن ليلي كانت تبسم ، ولا ينسأمتها مسحرها فقال :

— لا توالخديني ، إنني لم أفق بعد . ماذا كنت تقولين ؟

فقالت ليلي ، ممضية عزمها على الوصول إلى غرضها من أوجز

طريق :

— أقول إنه في وسعي أن أؤكد لك أنك تستطيع أن تعتمد على .

فتذكر العلفتين ، وقال :

— لاشك . لاشك . وهل هذا أول عهدي بك ؟

فجلست إلى جانبه وهي تكتم الضحك وقالت :

— دغ هذا الآن ، وقل لي هل تعرف شوشو ؟

فغام وجهه بل أربد ، ونسى التي بجانبه وهو يقول :

— أعرفها ؟ لاحول ولا قوة إلا بالله ! مسكينة . مسكينة .

فقلت ليلي :

— أعرف ذلك . أعنى أنها مسكينة . ولكن هذا كل ما أعرفه فزدني بها علما ، حدثني عنها .

وكان في لهجتها من الخنو ، وفي وجهها من آيات العطف ما بهت له ، وطاق برأسه كخطف البرق أن لعل إبراهيم — بإثارة منه للصراحة والاستقامة — قد ذكر لها طرفا من علاقته بها ، ونحاف إذا هو أجابها إلى ما تطلب وحدثها عن شوشو ، أن يجاوز القدر الذي رأى إبراهيم أن الحزم يقضى بالاكتفاء به ، والصراحة لا تنوجب أكثر منه ، فقال وهو يحاورها :

— إذا كنت تعرفين أنها مسكينة فقد عرفت كل شيء . . فماذا تبغين ؟

وأدركت ليلي أنه متردد ، وفطنت إلى الباعث له على ذلك ، وشاورت نفسها بسرعة فاقتنعت بأنه معذور مادام يعتقد أنها زوجة إبراهيم وابتغيت أن من الإحراج القاسي أن تطالبه بالصراحة أو تدفعه أو تستدرجه إليها مادام أن هذا هو اعتقاده ، وقررت أن تخطو الخطوة الخامسة وتهدم كل حائل دون الوقوف على الحقيقة فقالت :

— إذا كان ما يدعوك إلى التردد هو ظنك أني زوجة إبراهيم . . فوئب إلى قلبه وقال :

— ظني ، ظني ؟ لست إذن . .

فجذبتة إلى الكنبه ورفعت اصبعها إلى فمها محذرة وقالت :

— لا ترفع صوتك لئلا يسمعا . كلا . است زوجته . ولم أكن أتوقع أن يقدمني إليك على أني زوجته . لقد فاجأني بذلك كما فاجأك تماما . . ولا شك أنه فعل ذلك مدفوعا بمروءة نفسه . . الشهامة هي التي ألبأته إلى وضعي في هذا المركز . . إلى رغي هذا المقام . أراد أن ينقذني . . أنفسهم ؟ . أيعنك الآن مانع أن تحدثني عن شوشو ؟ لقد قرأت رسائلها

إلى إبراهيم .. رسائلها التي لم يفتحها هو ولم يقرأها .. فتحتها أنا . وجدت
نفسى مضطرة إلى ذلك . لأعرف هل له أهل فأبلغهم أنه مريض . لاشك
أنى ارتكبت ذنباً فظيماً .. ولكنه كان ذنباً لا مفر من ارتكابه ، ولو كان
أى إنسان آخر . مكانى .. لو أن مدير الفندق الذى لا يعنيه من أمر إبراهيم
شئ . كان مكانى لما اجترأ أن يسأله عن أهله وهو مصاب بهذا المرض
الخفيف . واكنى مع الأسف لم أتبين من الرسائل شيئاً سوى أن من تدعى
شوشو تقاسى مثل أهوال الجحيم ؟

فقال الشيخ على ، والدمع يترقرق فى جفنيه :

— هل قلت إن إبراهيم لم يفتح هذه الرسائل ؟

فقالت : نعم . وجلتها بحفظة فى ظرف كبير وليس بينها واحدة
مفوضة حتى ولا رسالتك أنت .

فهز الشيخ رأسه وقال :

— لم يكذب ظنى . ما أعمق الجرح الذى فى صدره !

ووضع يده على كتف أبلى وقال بصوت يفيض عطفاً ورقة :

— لقد كنت أصم حين سمعت أن إبراهيم يقول إنك زوجته ..
معدرة . فليس لشوشو من يحنو عليها غيرى . لست أباهاً ولا أخاهاً —
ولا هى لها أب أو أخ ولكنى ابن عمها ، وزوج أختها . غير أنها مع هذا
أقرب إلى قلبى من زوزو — زوزو بنتى . أفهمين ؟ أحب إلى من بنتى
فهل تعلميننى ؟

فهزت رأسها أن نعم . أفهم وأعذر — ومضى هو فى كلامه فقال :

— واكنى لم أفقد ثقى بالله . كان شئ يهدس فى أذنى أن الله أكرم
وأعدل من أن يرى شوشو بقاصمة الظهر إنها حيوان ، صدقنى .
لا تصدق إبراهيم . لا يخذلك ظاهره الساكن ، إنه بئر لا قرار لها . لا أعنى
أنه كاذب أو غاش . ولكنى أعنى أن ما يدفنه فى صدره لا ينشر . وهو

قامس جداً . . . على نفسه . . . مجنون إذا شئت وإكته جنون رافع لأنه
جنون الإرادة القوية .

وقص عليها الحكاية ثم حلق في وجهها وهو يسألها :
— فهل لك في حلقى ؟ أتوسم فيك القدرة على ما عجزنا جميعا
عنه ، وإن كنت لا أعرف مكانك من نفس إبراهيم على التحقيق ، ولكن
حسب أى امرئ ماسمعا منه الآن .
فقالت ليلي مقاطعة :

— لقد كنا — أنا وإبراهيم — حبيبين أيضا ...
فقال الشيخ على : « كنا ؟ ماذا تعنين ؟ » .
قالت : نعم كنا . أما الآن فلانى أنحى مكانى لشوشو .
ولم يكن يبدو عليها شيء من التزيق الذى احتملته فى صدرها حتى
استطاعت أن تنطق بهذه العبارة . وراع الشيخ على ظاهرها الساكن الذى
تكذبه نظرتها الميتة ، فلم يملك نفسه فجذب رأسها وطبع على رأسها قبلة
أبوية وقال :

— لست امرأة ، إنك ملك . لم أكن أعرف أنكما .. تالله ما أغبانى !
كلا ! لست أقوى أن أسلبك إبراهيم . إنه لك . وأنت أيضا أهل لذلك .
وفى هذه اللحظة سمعا نقرا فهضت ليلي خفيفة لتفتح الباب .

الفصل الحادى عشر

« مثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون »

وضعت ليلي يدها على أكرة الباب الموارب بين الغرفتين ووقفت منصتة لا تنظر ، فقد كان السكون المقيم فى غرفة إبراهيم راعيا ، ولعل القارئ يعرف ذلك السكون الذى يسود النفس فكأنه يسلخس الجسد وينفذ إلى القلب ثم يذهب بفرد ويشدو بمدح لاشيء . أو لعله جرب ذلك الشعور العميق الذى يستولى على النفس فجأة ويشيع فيها ويفشو . . . والذى لا سبيل إلى العبارة عنه — ذلك الإحساس الذى يخيل للإنسان أنه دودة تضطرب فى أحشاء الزمن . أو أنه راقد بوجه من الخشب وهو يعجب لنفسه ولما حوله ويقول فى أعماق سريرته : « ما هذا ؟ ما معناه ؟ من أين جاءنى هذا الخشب المتشن ؟ وما هو معنى أن يكون الإنسان حيا ؟ » وما أظن إلا أن كل إنسان قد جرب ذلك السكون الذى يجعله يتوهم أنه يحلم بنفسه وأن حياته وجسده وكل شيء — كل أولئك ليس سوى حلم يتراعى له ، وإن كل ما يبدو لعينه ويحده قلبه ويحده صدره ويقع له — هذا كله قد حدث من قبل فى مكان آخر ووقت غير هذا . . .

ومضت ليلي خفيفة إلى السرير ففتح إبراهيم عينه ببطء على مواء الليل — فقد كان النوم لا يؤاتيه فى النوم — وقال :

— من أين جاء هذا العرق كله ، لكأنى فى مغطس :

ولم يكن الكلام موجها إلى أحد بعينه ، وأعله لم يكن يحسب أن فى الغرفة سواه ! ولكن ليلي حنت عليه ودست يدها تحت المسلاة البيضاء ثم قالت وقد أشرق وجهها وتهللت أساريره وأن كانت الظلمة قد حالت بين إبراهيم وبين الرؤية :

— مبروك . . مبروك .

فرغ إليها عينا فيها من الدهشة والسرور الغاضض معان وقال :

— مبروك ؟ ماذا تعنين ؟

— إنها آية الشفاء ، ألم تكن تعلم ؟

فقال : كلا .

فقالت وهي تضحك :

— نعم ، وقد كنت جالسة انتظر . فقد أنبأني الدكتور محمود — ما
أصدق فراسته — أنه يتوقع أن تكون الليلة هي الفاصلة ، فلما أن يشتد
المرض ويتماقم الحال ، ولما أن تهبط درجة الحرارة ويكثر العرق
ويبدأ التماثل للشفاء ، وهذا هو الأرجح فيما رأى ، وقد حقق الله
ظنه ، ألا تحسن أن الحمى قد خفت كثيرا ؟

فلم يجبها إبراهيم ، ولم تلج ليلي في الإجابة ، لأنها كانت أعرف
به من أن تثقل عليه ، ثم لأنه كان عليها أن تغير له ثيابه وتلبسه أخرى
جافة . وذهب هو يفكر في العرق الشافي الذي أنبأته ليلي أنه بشير
التعافى . وقال لنفسه إذا كان هذا كذلك فإن أول ما يجب عليه هو
أن يعمر نفسه حتى لا تبقى في بدنه قطرة من الماء كأنما كان هذا شيئا
تنفع فيه الإرادة .

والفتت إبراهيم ليلي — على نور الكهرباء — وقال :

— والآن ماذا يجب على أن أصنع ؟

وقالت : « تنام وتعرق ولا تعهد نفسك بالتفكير . وبرضى أقول
ذلك فلاني فرحة . . . »

قال : « سمعا وطاعة . اطفئي الأنوار إذن واذهي إلى غرفتك فما
أظنك اغتمض لك حمن في ليلتك هذه — ليلة الفصل . هه ؟
فابتسم له قلبها في عينيها ، والتمته ومضت عنه في صمت .



ولكنها لم تنم ، فقد تمثلت لما شوشو . . لا على حقيقتها بل في

صورة أفن من الحقيقة وأروع وأبعث على العطف — وتعاقبت على ذهنها صور من الجمال والشقاء والكمد لم تطلق معها الاستقرار وودت لو أن عندها منها صورة ، وتذكرت ما دار بينها وبين الشيخ على وعجبت له ولنفسها كيف تصارحاً بسرعة على ما كان بينهما من الجفوة وفساد الحال ، وأحست أن قلبها يغمره الإكبار للشيخ على الذى وسع قلبه كل هذا العطف والاخلاص حتى لقد أقاض عليها من مروءته وأعداها بكرم النفس فبدلت له الوعد بالتضحية فى سبيل شوشو ، وإن كان حبها لإبراهيم واسعاً عظيماً ، وجرها ذلك إلى التفكير فى إبراهيم . أترأه يحبها ويحب شوشو فى آن معا : أما أنه يحب شوشو فهذا مالا مجاز للشك فيه بعد الذى سمعته من الشيخ على وإن فى صمت إبراهيم فى الأحيان الكثيرة وشروء ذهنه واكتسابه وتلقيه ما يجيء به الأيام باستخفاف من لم يعد يحفل ماذا يكون غد — لدلائل على أنه يطوى أضالعه على هم مخامر ، وأى هم هناك غير حبه الخائب ! ولكن لماذا يخاب هذا الحب . ولم يؤت ثمرته ؟ إنه متبادل إذا صرح ما سمعته من الشيخ على ، ومع ذلك يابى إبراهيم أن يفض كتب شوشو إليه وإن كان يدخرها ولا يلقى بها فى النار أو يمزقها . فكأن إبراهيم يقاوم حبه لشوشو لسبب ما . ولكن بقية من الرقة أو الضعف أو الحنين الذى لم يغلب تغريه بالتحفظ بهذه الكتب فما أقواه وأضعفه . وأقساه وأرقه . ومن أولى من ليلى أن تستخلص من هذا كله ما يحفل به من دلائل الحب المكتوم والوجد المغالب والكبرياء العvisية ؟

وأما أنه يحبها — أى ليلى — فهذا أيضاً لا يرتقى إليه الشك فما تخفى آيات الحب . وليست ليلى بالتي يلتبس عليها التصنيع بالاخلاص فقد سحرت الدنيا وخبرت الناس وطوقت فى الأرض وتعلمت كيف تميز بين الصحيح والزائف على صغر سنها . ولئن خدعها رجل فلن يخدعها رجل ثان . وإبراهيم ، ألم يقل لها إنها ستشقى بسببه ؟ ولكنها لم تشق بل سعدت . وإذا كانت قد وطئت نفسها على الحرمان وآلت أن تخفق

حبها له من أجل شوشو فإن في ذلك سعادة لاتعدها سعادة الحب الرخي
المطمئن . وهي التي قاست وتعذبت حقيقة ان يدركها العطف على أمثالها .
وسيفنى لما حب إبراهيم تنعزى به . ولكن هل يبقى ؟ هل إذا اتصلت
أسبابه بأسباب شوشو يظل تصبو إليها نفسه ؟ .

وجاهدت ليلى لتخمد ثورة الأنانية مخافة ان تطغى فتعنى على استعدادها
للإيثار والتضحية ، وتعصف بعزمها على إنكار ذاتها . وأرعبها أنها بدأت
تحس أن هذه ليست أنانية وأن الإخلاص للنفس راجب مقدم على الإخلاص
للغير . وان الانسان لا يطالب بالإيثار إذا تقاضاه بحق النفس . وأن هناك
حددا معقولا يجب أن يوضع ويلتزم . وان الدنيا لاتزيد بذلك فردا سعيدا
ولا تنقص واحدا شقيا ثم إنها لم تكن لها يد فيما كان فليست عليها تبعة
ولا يلزمها واجب من أجله . وماذا تصنع بنفسها بعد ذلك ؟ كيف تنتفع
بالعيش بعد رد إبراهيم إلى شوشو ؟ وهل لو كانت شوشو مكانها
أكانت تقدمها على نفسها وتؤثرها كما تنوى أن تفعل ؟ ثم ألا ينبغي أن
يكون لإبراهيم رأى في الموضوع ؟ أمى كل شيء وليس لإبراهيم وزن ؟
لماذا أعلن إبراهيم إلى قريبه أن ليلى زوجته إذا كان يشئ أن يرتد إلى
شوشو ؟ أليس في هذا دليل قاطع على أنه اراد ان يحسم الموضوع ومثل
إبراهيم لا يرد خطأه ولا ينكس على عقبه ، وإنه لمن الطراز الذي
يهون عليه أن يمضى إلى الجحيم ولا يهون عليه أن يتلفت أو أن يرى
الناس فيه ضعفا أو يحسوا منه الحنين إلى ماضى نفسه عنه .

والشيخ على لاشك يعلم ذلك ، فإنها ابرز صفات إبراهيم ، وإن
كان لا يتوقع بها بل لعله لا يفتن إليها او يقدرها قدرها ، كالشلال الذي
ينحدر بقوة الراغبة غير المحسنة ، واستراحت ليلى إلى هذا التشبيه وإن لم
تحف عليها المبالغة فيه ، وقالت لنفسها إذا كان في وسع الشلال ان
ينثى راجعا في تدفقه ، فإن في مقدور إبراهيم أن يكر إلى شوشو ،
وقد يتلهف على هذه الكرة . ولكنه لا يستطيع ، لأنه لا يريد بل

لأن الكرم ينأى طبيعته ، ولم يسر ليلى أن إبراهيم قد يشفق ويتلهف إليها
قلبه ولكنه لا يقدر أن يرجع . وأحست أن هذا لا يكون فوزا لها بل
امتهانا لوجودها ، وأنكرت من نفسها أن يخطر لها أنها تقبل هذا
الموقف ثم جعلت تسأل نفسها : ألا يمكن أن يكون هذا هو الواقع ؟

وزاحت تتصور أن إبراهيم لا يحبها ولكنه يتسلل بها ويتعزى ! وأن
مزيها عنده أنه كان حقيقا أن يحبها لولا أنه أحب شوشو ، وحز في نفسها
هذا وأوجعها ، وإن كانت قد جعلت تنفيه عن خاطرها وتطرده وترفض
أن تصدقه ، وأبى لها احترامها لنفسها إلا أن تكرر إلى الثقة بإخلاص
إبراهيم وصدق سريره في حبه لها . ولكن هذا الخاطر المنفى كان من
فضله مع ذلك أن شحذ عزمها على الوفاء بعهدتها للشيخ على :

الفصل الثاني

« وقالت سارة : قد صنع الله لي ضحكاً »

حارت ليلى ماذا تصنع ، وكيف تقى بعهدها للشيخ على أن تكون حونا له في سبيل شوشو ، وكثيرا ما كانت الوسوس والهواجس تساورها . وربما قالت لنفسها إن هذا عهد ليس فيه ذرة من العدل وإنه ما من امرأة يجوز أن تكلف مثله لفرط منافاته للطبيعة ، والواقع أن ليلى اندفعت وهي مضطربة إلى بدل هذا الوعد الشاذ ، وكانت ساعة فاض فيها كرم النفس ومروعة القلب ، وقد وسعها — وإبراهيم مريض — أن تحتفظ بهذا المستوى ، فلما عوفى إبراهيم وعادت إليه الصحة واستغنى عن رعاية ليلى ، بدأت الشكوك تخالجها والشبهة تدور بنفسها . وساعدها على ذلك أن إبراهيم صار أكثر صمتا وأقل كلاما . وأشد شروداً ، وأنها تحس ، وهي معه كأنه يندودها عن نفسه ، ويمنعها أن تطلع على مايطرف برأسه . ويشعر — بصمته وجهامته — مثل شوك القنفذ ، فكانت تقول لنفسها : « ما لي أنا واشوشو ؟ لست أعرفها ولا انا رأيت وجهها ، فليس لها في حياتي وجود ، ولا لها في ذاكرتي محل ، إن هي إلا اسم — لم تبلغ حتى أن تكون خيالا — أربعة حروف لا أكثر — أربعة حروف لا ترسم في نفسى صورة ولا أجد لها في ذهني تخطيطاً . ومع ذلك تشغل هذا الحيز كله وتسد في وجهي فجاج الحياة وتسود في عيني نور الضحى فلماذا ؟ من وهم أنا خالفته ؟ أتراني أخشى أن يتلف قلب إبراهيم ، وأن ترده الصبوة إلى شوشو ؟ كلا فقد عرفت خلقه الوعر . وأنه ليحبها ما في ذلك شك — ولكن من أين جاءني هذا اليقين ؟ أمن أجل أن الشيخ على يزعم ذلك يكون هو الحق ؟ وأن إبراهيم ليحبني أيضا — أيضا ؟ أقول أيضا ؟

واضيعتاه إذن ! بل هو يحبني وحدى ولى قلبه كله — كل لفظة وكل صبرة
وكل حنة وخفقة . لي أنا وحدى وكيف يمكن أن يشرك في غيري ؟ لست
مغرورة . ولقد فتحت الدنيا عيني جيدا — فتحتها حتى لا غمض لهما —
فلو أن في قلبه حبالها — لشوشو — لأحسست التفاتة قلبه . . للمحت طيف
هذا الحب في عينيه . كلا . ليس على هذا العرش سوى .

ومن مناقضات النفس الإنسانية أن ليلى ربما ساءها وكرها أنها وحدها
التي تستوى على هذا العرش وأنها استطاعت أن تقنع نفسها بأن ليس لها
مزاحم ، فتعمد إلى غزلها فتنفذه لتثبت لنفسها أن لها شريكا ، بل إنها
هي التي تجاهد لتزحزح شوشو وتخل لنفسها مكانا إلى جانبها . وتحس
أن هذه القدرة على العزل ثم النفص ، وعلى الإثبات ثم النفي ، قد
أفادتها سرورا وإن لم تفرها راحة وسعادة .

ثم حدث ما قوى عزمها على ماوافق طبيعتها ويلائم مزاجها .

ذلك أنها كانت عصر يوم في غرفتها تفكر في ثوب تلبسه . فلما أعيهاها
الاختيار نادت إبراهيم ليعاونها . وكان الباب بينهما مواربا كالعادة .
فأقبل عليها يسألها ما الخبر ، وفي هذه اللحظة نقر الخادم على الباب فضمت
إليه تفتحه فتناولها خطابا قدت يدها ، ولكن يدها ظلت تلور حول
الخطاب لا تقع عليه . وتعلقت عينها برسم مستدير على الورق الذي
يكسو الخائط وأحست كأن الغرفة تدور بها وترجع أيضا . ولحقت إبراهيم
وهو مقبل عليها يسألها وفي وجه آية القزع :

— ماذا جرى يا ليلى ؟ اجلسي .

وسندها بذراعه وقال الخادم وقد تقدم لمعاونته :

— إن لونها مجتمعة جدا ياسيدي .

وقعدت ليلى على الكرسي ثم تهتت وقالت : « كلا . لا شيء »

إن رسم الورق هو الذي أدار رأسي .

قالت ذلك كأنها تعتقد بإخلاص أن الرسم هو الذي أحدث لها هذا

الدوار لسبب غير مفهوم وعلة ليست بالواضحة . وذهب الدوار بأسرع
ما جاء فقالت باسمه :

... لقد انتهى كل شيء . أفقت تماما .

فقال إبراهيم : « ما أغرب هذا » وضحك .

وفتحت ليلى الخطاب في سكون ، وكان من الشيخ على ، الذى واطب
على الكتابة إليها كل بضعة أيام وأحيانا كل يوم بأسلوبه الموجز المضحك ،
ثم مدت به أصبعين إلى إبراهيم في صمت فقرأ فيه :

« منى أراك ؟ لا للشوق إليك فلا تغترى ! أما إبراهيم فلا أدري
لماذا جهد أن يشفى ؟ أو بعبارة أخرى لماذا تكلف أن يعرض مادام أنه لم
يكن بنوى أن يموت ؟ سليه بالله لماذا يعيش ؟ وأجيبى أو لا تجيبى فانك
مثله أو شر منه » .

وفى ذيل هذه الأسئلة التى لا تستحق طابع البريد ، امضاؤه ، وهى
أغرب من الأسئلة ، فقد كان لا يوقع باسمه كاملا ومجردا بل بهاتين
الكلمتين « الشيخ على » وإن كان كما عرف القارىء لم يعرض على
زى الشيوخ .

ولم تقل لإبراهيم أن هذا ليس بأول كتاب منه ، ولعلها لم تطلعه
عليه إلا لخلوه من كل إشارة إلى ما تأمرا عليه ، ولم يجر لإبراهيم
فى بال أن هذا الكتاب حلقة فى سلسلة طويلة بدأت بعد أوبة الشيخ
على إلى بلده ثم إلى الإسكندرية . فلما قرأه ضحك وضحكت ووقف
الأمر عند هذا الحد .

وشامت المقادير أن تتلقى ليلى بعد بضعة أيام كتابا آخر من الشيخ
على .

وكانت جالسة مع إبراهيم فى الشرفة المطلة على الحديقة الخلفية وكانا
قد طلبا الشاى وذهبا فى انتظاره يتحدثان ، فتناولته بكف غير ثابتة

وجعلت تنظر إلى الخط الواضح على الظرف وتتأمل اسمها مكتوبا بالخط الجليل على خلاف بقية العتوان . فخيّل إليها أنه ليس اسمها بل اسم امرأة غيرها ولعله اسم فتاة غريرة حديثة عهد بالدنيا والحياة والحب والأنوثة الناضجة على الخصوص . وأحست أن رأسها يدور ويدور . ونظر إليها إبراهيم فأزعجه اصفرار وجهها واتساع عينيها وثبات حملاتها وأن حول جفونها مثل مدار الكهف .

واضطرب رأسها واختل توازنها وقالت : « هذا هو الدوار مرة أخرى ! أترى سيغنى على هذه المرة ؟ » .

وكانت تسمع بوضوح مدهش تنفس إبراهيم إلى جانبها ، وتراه وهو يميل إليها وكأنه يتهيأ للوقوف ! ونقلت الخطاب من أصابعها إلى الأرض فصوبت عينيها إليه واتبعت نظرتها ! وهي تظن أنها تفعل ذلك عادة وإرادتها وكانت الأرض فيما يبدو لها تدور بسرعة فقالت لنفسها « سيغنى على هذه المرة . ولكن ينبغي ألا يحدث ذلك وعلى وجه الخصوص أمام كل هؤلاء الناس . وإبراهيم لا يزال ضعيفا فهل قره يقوى على حملي ؟ » . واضطربت رجلاها وإن كانت جالسة . وشاع في نفسها شعور جديد بعدم الاستقرار وبانتفاء كل اتزان فتمتمت في ضعف « أوه ! » .

— ٣ —

قال الطبيب بصوت رقيق : « لقد أضى عليك . هذا كل ما حدث » . وتبين لها شيئا غريبا لأنها راقدة في سريرها في غرفتها . وأن ليس معها سوى الطبيب — على كرسي إلى جانب السرير — فرفعت عينيها إلى وجهه فألفته مشرقا وضاحا ولكنه مع ذلك ناطق بالعطف عليها .

فقالت : « ماذا ؟ » .

فقال : « ينبغي أن تكوني أشد عناية بنفسك . ولعله أولى بك أن تستريحى الليلة في فراشك » .

فقلت وهي تحس أن كل مقاومة من جانبها قد زالت ، وأن استسلامها تام :

— أظن أني حامل . . . و . . . يجب . . .

فقال الطبيب : « أوه ! هذه هي المسألة إذن ؟ » .

وعجبت لنفسها كيف وسعها أن تنطق بهذه العبارة في بساطة ومن غير تردد . ولم تقل للطبيب أهي زوجة إبراهيم أم خليلته بل لم تعبأ به ماذا عسى أن يظن . على أن الطبيب لم يعجب ولم يظن شيئا ولم يعن إلا بالخالة التي أمامه ، فقال :

— حسن ، سري . أظنك تستطعين أن تجلسي الآن ، هيه ؟

وبعد نحو ساعة كان معها إبراهيم يحادثها ويؤنسها وهو جاهل بتلك الحقيقة الضخمة التي تنطوى عليها انطواء حقيقيا لا مجازيا . لأنها لم تفض إليه بشيء مؤثرة أن تكتم الأمر حتى تفكر على مهل .

الفصل الثالث عشر

« في وقت المساء ، ذا رعب ، قبل الصبح ليسوا هم »

يا جمال المرأة ! إنه فتنة الحياة كلها مختزنة في ركيانها الدقيق فما أصعب ألا يراه الناس كما يجب رؤيته ويحسوه كما ينبغي أن يحسوا ! بل ما أغرب أن يكون في الناس من يجنيه ! فهل يفعلون ذلك لفرط إحساسهم به ودقة إدراكهم له أو لعمى عنه وبلادة تفكيرهم وتحمل جلودهم أن يحترق ؟ وماذا ترى فيهم ؟ أمى ؟ العلوم ؟ أم ترى الذي يضلهم هو « الفن » ؟ أم هي الفلسفة التي تغويهم وتميل بهم إلى الأرباب المزيفة ؟

لا ندرى ولا نظن أن هناك من يدرك ، وكل ما نعلمه أن ليلي كانت راقدة إلى جانب إبراهيم وأنها كانت تراقبه من خلال أهدابها الطويلة السوداء ، وأنه كان يجتلي في صقال عينها تلك الفكاهة العميقة المجهولة التي لولاها لثقلت وطأة الكروب على كاهل هذه الحياة الأرضية .

ولثمتها ، غير أنه أحس أن اللثمتان عيث وباطل ، ولها فراشات تتساقط إلى نار الجوع التي يحسها طافية ، ومع أن ليلي جهدت أن تسقيه حتى تغثيه ، وأن تعطيه حتى ترضيه . فقد كان يحيل إليه وهو مستلق إلى جانبها أنه يستطيع أن يرى الكون وأن يقدره ، مختزلا في جسم جميل ، ولا يستطيع أن يستحوذ عليه ولا يدخل في مقدوره أن يجعل استيلاءه عليه تاما كاملا ، وكان هذا الشعور يكاد يخنقه وكان يعني نفسه بأن يسألها : « لماذا يعجز الإنسان عن الاستيلاء على جسم جميل واحد ؟ لماذا يشعر أن وراء ما يتأمل ، شيئا آخر يشتهي ويراغ ، شيئا أفق وأمتع ؟ أمى طبيعة الحب الخبيثة الماكرة ؟ أم هذا سر المرأة وسحرها ؟ وتالله

ما أفضال هذا الجسم الذى يشيع فى نفسى الرغبة ! علوا وسفلا؟ وبأيت من
يمكن يدي من طيف ذلك الحب الخادع الساحر ؟

واسودت نظراته ولمحت ذلك فسائمه باسمه :

— قل ، قل حالا !

فقال بلهجة اليائس :

— ليس لى حيلة . بزغى هذا .

فعدت ذراعها البيضاء العارية وجذبت إليه وجهه وقالت :

— بل يجب أن تكون لك حيلة .

فقال وهو يبتسم ابتسامة فيها من الرضى والمرارة معا :

— كل ذلك حلم . لا أنت حقيقة ولا هذا . ليلى !

فضمته إليها وهى تهمس فى أذنه :

— أوه ! أهذا كل شيء ؟

واغرورت عينها بكرهها ، وإن كان ثغرها قد ظل يفتر ، ورأعها

ما تضمره لهذا القاب الذى يدق .

— وبلى ما أحقرنى ! سامحني .

وحنا على عروس أهوائه يقبلها ويرد الدموع عن مقلتيها ، وهى تنهد .

وهو يشعر أن جوعه قد صعد إلى السماء وهبط إلى الظلال وحدث نفسه

أن قد صدق من قال إن الحب قوامه التطلع .

ونظر إلى وجهها مرة أخرى فألفاه ساكنًا : شعرها على الوسادة

وعيناها مغمضتان وأهدأها مرسله على خديها ، فأهوى على كتفها وجيدها

يلتمهما فقالت :

— هل تعرف فيما كنت أفكر ؟

ولم تنتظر جوابه فقالت وهى تضحك :

— فى الشيخ على . هل تصدق ؟ أحسبى سأتزوجه يوما ما .

فقال بلهجة ساكنة :

— بل ستزوجيني أنا يا فتاتي البلهاء .

وكان هذا ما تخشى أن تسمعه وإن كان مما تحب . فتكلفت البشر وقالت
تعالبه وفي مرجوها أن تنأى به عن هذا الموضوع :

— صحيح ؟ بلديتك ؟

قال : بلديتي !

قالت ملحة : أتعني ما تقول ؟

قال : نعم .

قالت : وتتجشم متاعب الزواج ولا تكل ولا تمل ؟

قال : أعدك .

قالت مسترسلة في حبسها :

— يا للحبيب الطيب القلب ، السخي النفس ، العريض الأمل !

وقريبا ؟ جذا ؟

قال : ليلي ! هل تسخرين مني ؟

قالت : كلا ! لست أسخر .

قال : إن هذه اللحظة رهيبية في حياتي . فأنصتي من فضلك . هل

توافقين على الزواج مني ؟

فرقص قلبها ولكنه هبط أيضا في صدرها . ثم هبطت نفسها وقالت :

— يا حبيبي المسكين هل جئت ؟

فقال : « إذن كنت تسخرين مني »

قالت وقد غيرت خططها بسرعة :

— هل أتزوجك ؟ أنا ؟ إنه يسألني !

قال وهو جائر ماذا يفهم :

— ليلي !

خلم تمهاه وقالت :

— هل تستطيع أن تتصور أن لا أتزوجك ؟

فابتسم وهو يقول :

— هل أستطيع ! ؟ كأنى كفتت عن أن أتصور ذلك ؟

قالت : يا لغباء الحبيب ! وهو أديب أيضا !

قال : أعيدى على مسمى .

فأسرعت تقاطعه :

— إني أحبك ؟ لا شك في ذلك ! هذا قرار لا رجوع فيه . اهل

نحبي أنت ؟

فأثكأ على ذراعه وقال :

— ابقى عينك مفتوحة فلانى أريد أن أنظر فيها

قالت وهي تهز رأسها :

— لا أستطيع .

ولمعت حينها ورقص الضحك فيهما وهي تقول :

— إبراهيم ! شفتاك . . الأحمر !

فقبلها غير عابيء بما علق بشفتيه من الدهان فقالت :

— هذه القبلة ناقصة . لم تبلغ كمالها .

فسألها ضاحكا : أنظنين هذا ، ولكن من أين علمت بكل هذا ؟

فشعرت أن سؤاله فتح لها بابا إلى إمضاء عزمها فقالت :

— لا تكن غيبا .

قال : أضي أنا ؟

قالت : نعم يا حبيبي . هذا ما تعلمته في السيارات وأنا عائدة إلى بيتي

بعد السهرات .

قال : ليلى !

قالت : نعم ولكنه علم لا خير فيه . ليس فيه حياة . إنها لثمات لا تبعث الإحساس الجنسي .

فناى عنها قليلا وهو يحدث فيها لئيبين أجادة أم هازلة . وأيقنت من وقع كلامها فمضت تقول :

— نعم لثمات فائرة ليس فيها حرارة أو قدرة على الأعداء . من رجال من كل صنف وطبقة : من كبار وصغار — من أقوياء وضعاف — من ظرفاء وثقلاء — من مؤمنين وملاحدة — من ضباط وو . .

فصاح بها وقد عيل صبره :

— ليلى ! لا أحتمل هذا !

فجالت بعناد : كذلك لم يكونوا يحتملون . أظن جمالى كان يتركهم مبهورين .

قال : حسبك ! أمسكى !

قالت : يا ملاكى العزيز سأترفق بك . ولكن ماذا تصنع بوجهك ؟ أدركه إلى .

فقال متكلفا : أحارل أن أنسى ما ضحك هذا . ما أعطر شعرك !

فلم تدعه وقالت : الماضى لا ينسى . إنه أنا .

قال : لا يمكن أن يكون هذا صحيحا .

فألقت إليه نظرة حافلة بالالغاز وقالت وقد اكتفت بإثارة شكوكه :

— يالك من غي ، سأقبل جبينك .

ووثبت إلى الأرض وخلفته شارد الذهن موزع القلب ، يتصور هذا

الماضى الذى أطلعت على فهرس كتابه ، ثم سمع صوت حرير فالتفت

فرأى قميصا يزل عن جسمها إلى البساط وهى تتناول قميصا غيره بأقل

ما يتصور من الاحتفال أو العجلة ، فصاح بها :

— ليلى ! اقسمى !

فأحست أنها تنتزع أحشائها وهي تقول :

— ألم أقل لك أنك غبي ؟ نعم أقسم بالله وكتابه :

— ٢ —

ثنى إبراهيم وجهه إلى الحائط وقد تنفس الصعداء — وهذا غريب
ثم ذهب يفكر وهي تحسبه قد أولاها ظهره ريشما ترقدى ثيابها ، فخيّل
إليه أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة باخلاص إلا بعين يمتزج فيها
التشاؤم والتسامح وأن الدنيا حافلة بالسوء والمقاييع ، وأن الحياة فنا —
أقوى فنونها — التثييط — وأن الإنسان يعيش في سنين وسنين ، ويتصل بمن
لا يحصى عددهم من الناس ولسكن ما أقل الموافق منهم ، والذي يسعدك
أن يتوثق ما بينك وبينه من غير أن يكون هناك مقدار من الملل أو الاحتقار
أو الامتناع أو اللجل . واننا نعلم ذلك ونحن نسعى في الدنيا ونبغى
الناس ، وإن خاتمة كل حياة الأسف والندم هما جبل ينمو معنا طالعا
من تحت أقدامنا ، وقلما نعرف اسمه في صبانا ، وما أكثر ما نتوهمه
جبلارائعا جليلا ، وانه لرائع وجليل ولكنه مخيب للأمل ، ويعلمو
الجبل أمامنا ويتضخم ، ونحن نصعد فيه ونتوغل فرحين بالحياة مغتبطين
بالعيش ، ثم لالئبث على الأيام أن نتسهل وندير عيوننا فيما حولنا
ونرجع البصر فيما خلفنا وراونا فتأخذ عيوننا شقوق القضايح وفداقد اليأس
وأودية السقوط ، ومع ذلك نظل نصعد في جبل الندامة ، وماذا عسانا
نصنع غير ذلك ؟ ويجيء يوم نهزم فيه ، وتكل أرجلنا ، وتجف
أنسجتنا ونعي بالاصعاد فنقع على قبة مريحة وننظر إلى جداول الحياة
المنحدرة ، الحياة التي تظلي تترقرق ويظل وادها خصيبا وإن جففت
نحن ونشفتنا واحدا بعد واحد ، فتتعالى بذكرياتنا وتبدولنا هذه الذكريات
أجمل وأسبى من الحوادث التي ولدتها .

والمصادفة أصل كل حادث في هذه الدنيا التي ينحيل إلى المرء أن
الحياة قد حدثت فيها بالمصادفة فإذا لم تكن هي الأصل — أو إذا كان
هناك من يشق عليه أن يعدها كذلك — فلا أقل من أن نعرف بأنه ما من
حدث إلا لها فيه أصبع غليظة ، وإن كل تغير أو انقلاب أو اتجاه جديد
لا يخلو من بعض نواحيه من مصادفة كان لها فضل كبير فيه ، والواقع على
كل حال أن المصادفة كان لها تأثير حاسم في هذه الفترة من حياة إبراهيم
فقد كان ، كما عرف القارىء ، يلهج بالزواج من ليلي . ولم يكن ذلك
ليسترها أو يستر نفسه كما فعل حين عاد الدكتور محمود والشيخ على ، ولا
ليصحح مركزها ، فما كان يجرى له في وهم أن يركزها حاجة إلى التصحيح
ولا كانت وهي أنبأته بالحياة الجديدة في أحشائها ، وإنما كان يدفعه إلى
ذلك حبه لها ونزوعه إلى الاستقرار من ناحية وإلى المكابدة والعناد من
ناحية أخرى ، غير أنه بعد أن صارحته ليلي بما أوهمته أنه ماضيهما
الحالك ، تردد وأشفق ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون إلى
الواقع أو الإضراب عن التفكير في المستقبل مقبلا إلى الماضي ، ومع
تردده وإشفاقه كاد حبه لها يطفئ على إحجامه ، وكادت معاودة التفكير
الهادئ توسع في عينيه ماضيقه العرف ، لولا أن ليلي مدت يدها
فجأة فألقته .

وكان من المتفق عليه فيما بينهما أن الرحيل قد آن جدا ، فقد
غاب عن أمه وابنته شهورا ، وعن عمله كذلك وإن كانت صلته به لم
تنقطع إلا في فترة المرض ، وكان المقرر أن تسبقه ليلي — إلى الاسكندرية
موطنها — على أن توافيه بعد ذلك في القاهرة . وفيما عدا ذلك لم تكن
هناك خطة مرسومة ولا نهج واضح ، لأن ليلي كانت تتلفت وإبراهيم
كان مضطربا .

وفي عصر اليوم الذي استعدت فيه ليلى للسفر في مسائه دخل إبراهيم
غرفته فلمح خطابا ملقى بغير عناية على منحة السرير ، وكان الظرف
مقلوبا وحرفه غير ملصق ، فتناوله بغير احتفال ، ولم يكده يلقبه
ويرى خطه حتى قعد على السرير وراح يقرأه وهو ذاهل وكان مما
قرأ فيه :

— . . . نعم يا صاحبي . . . هذا آخر كل حب . . . الملال — الفتور
. . . ولست أكتسبك أنى ملكت وأنى أصبحت أشعر بالفتور حين يناديني
قلبك المضطرب . المستقبل كما ترى لأمل فيه ، وخير لي نولك أن تقصر من
الآن وما زالت في القلب صبوة . .

و . . . ولو أن حبك لم يحجب نظرك . . . أو أنك لم تسلم نفسك
لعاطفتك واثقا من استجابتي لها مطمئنا إلى ذلك لما استطعت أن أخدعك
عن حقيقة ما أظهر واكنت حقيقا أن تفطن إلى تكلفي . . نعم كنت
أتكلف . . أتصنع الدوبان بين ذراعيك وأنت تضميني وتعصرني . .
أتصنع أن أبدوك كأن روحي كلها قد صارت على شفتي وأنت تمصها
وتعضها ، وأطالت من عيني وأنت تحديق فيها وتمسح لي شعري
. . هي صناعة أتقنها يا صاحبي بالمرانة والتدريب فلا عجب أن
خدعتك . .

ولم يستطع أن يقر أكثر من ذلك فقد كانت الصدمة عنيفة وعلى غرة
وكان الاشتزاز أقوى ما أحس ، ودار رأسه واسودت الدنيا في عينيه ونحيل
إليه أن هذه ليست نخبة أمل فحسب ، بل أنها جنازة كل أمل وكل
حلم وكل خير — بل جنازة النفس الإنسانية .

وبعد عراك عنيف استطاع أن يصد نفسه عن الاسترسال في هذه الخواطر
المقنعة ، فوضع الخطاب في ظرفه وألقى به على المخذة . وشاءت المقادير أن
يرتقى الظرف مقلوبا كما كان — أي أن تكون الكتابة إلى أسفل ، وإن يكون

طرفه المفتوح إلى أعلى ، ونهض وفتح النافذة واعتمد على حافتها وأخذ ينظر وكأنه يعالج أن يرسل لحظة إلى قاع هاوية ، ولبت كذلك لا يدري كم ، وإذا بالباب يفتح في خفة وهو لاه بخواطره لا يشعر بما حوله ، ودخلت ليلي على أطراف أصابعها ، ورمت إلى السرير نظرة وإلى إبراهيم أخرى فوقع من نفسها جموده وذهوله ومضت خفيفة إلى السرير فتناولت خطابها ودعته في صدرها وهي تحسب — لأنها وجدته كما تركته — أن إبراهيم لم يلتفت إليه .

ودنت منه وسألته في رقه : مالك ؟ .

فسرت في بدنه رعدة منها وقال ببطء وبجهد واضح :

— لا شيء ! صداع بسيط .

ثم ابتسم سخرًا من نفسه واحتقارًا للعالم كلها ، فذولا عرق شعوره في هذه اللحظة بهوان الحياة ، لصفعها أو ركلها أو بصق في وجهها .

— ٤ —

لما صارت ليلي في بيتها على شاطئ البحر في الرمل قالت للشيخ على في أولى زيارته لها :

— لقد تهوت ولما أكّد ، كان هذا الخطاب قسوة شنيعة — عليه وعلى أيضا ، فلما رأيته حيث وضعته لم تمسه يد حدث الله وتشهدت .

فقال الشيخ على :

— وماذا كتبت في خطابك هذا ؟

فقرأت ، منه حتى بلغت قولها « ولو أن حبك لم يحجب نظرك الخ » فاندلعت النار في وجهها الأسمر وطوت الخطاب وهي تقول :

— كلا . لا أستطيع .. ولست أدري كيف اجترأت أن أكتب هذا الكلام ؟

فزام الشيخ على ولم يقل شيئا واضطجع على ظهر كرسيه وجعل يفرك

جبينه العريض بأطراف أصابعه ثم التفت إليها فجاءة وسألها :

— أوائية أنت أنه لم يقرأ هذا الخطاب ؟

فأزعجها سؤاله ونفى الدم من وجهها وقالت تعلمتن نفسها :

— كيف يمكن أن يكون قد قرأه وقد وجدت الخطاب كما تركته ؟

ثم أنه لم يشر إليه قط !

فهز الشيخ على رأسه وقال :

— لا أدري فما كنت معه . ولكنى واثق أنه اطلع عليه .

فأقبلت عليه تسأله : « هل كتب إليك ؟ هل فى خطاباتنه إشارة ولو خفية ؟ »

فقهقه الشيخ على ثم قال :

— يا فتاتى البلهاء لقد عاشرت إبراهيم كم شهرا ؟ ومع ذلك لا تعرفينه

كتب إلى حقا ؟ هو يكتب ؟؟ بل أجزم أنه قرأه . . وأن صداقه

كان تسمية .

ثم نهض وهو يقول :

— أخشى . . .

فسأله بلهفة « ماذا ؟ »

قال : « أخشى أن أكون قد جلبت عليك اجتقار ابراهيم ، لا أبالى أن

يكرهك ولكن الاجتقار ! الاجتقار ! »

القسم الرابع

« فعلت ورايت تحت الشمس
ان السعي ليس الخفيف ، ولا
الحرب للاقوياء ، ولا الخير للحكام
ولا الفنى للفهماء ، ولا النعمة
للوى المـسـرفـة ، لانه الوقت
والعرض يلاقيانهم كافة » .

الفصل الأول

لأنه في الباطل يجيء ، وفي الظلام يذهب ، واسمه يغطي بالظلام

— ١ —

الأيام فيما يزعم الناس ، كقيلة بأن تعنى على كل شيء ، ولكن إبراهيم يقول — مغرباً ملغزاً — إنها قلما تستطيع أن تعنى على كل شيء سوى عجزها عن حل المشاكل الحقيقية للحياة . ولاندرى ماذا يعنى على التحقيق ، ولكن الذى ندرى أنه بعد عام ونصف عام من أوبته من الأقصر ، تلقى كتاباً طويلاً من ليلي — هو الأول والآخر فيما نعلم — ولم يتلقه ، بل وجده على مكتبه في منتصف ليلة من ليالى أكتوبر ، وكان قد عاد متأخراً . فخلع ثيابه وأكل تفاحة ثم أوى إلى مكتبته على عادته قبل النوم ، ففضى بضع دقائق يتأمل طابعه السورى ويعجب للمخط — خط من يكون ؟ فإن الخط السورى على العموم أشبه بالفارسي — ولعل ذلك أثر من حكم الأتراك — وهذا أشبه بأن يكون خط امرأة ، ثم إن عليه المسحة المصرية وكأنه يعرفه وإن كانت ذاكرته الخوانة لا تسعفه فن عساها تكون هذه الكاتبة ؟

ولم يشأ أن يترسل في الخلدس والتخمين لأن ذلك لا يوائم طبيعته النزاعة إلى الخضم ، فقعد وفض الكتاب فإذا هو ورقات عديدة مزيلة باسم « ليلي » .

فقال يحدث نفسه بصوت مسموع :

— نعم هو خط ليلي . فما أسرع مانسيئاه ! فإذا عساها تصنع في سورية وماذا تراها تقول ؟ ولم يقرأ الكتاب من أوله بل تناوله من ختامه وهو يتسم فقرأ فيه :

« . . . ولا تكتب إلى من فضلك . فإني أستطيع أن أتصورك على أوضح مما نصف عبارتك وإن تكن الكاتب الذى يتلقف الناس آثاره ١ على أنى أظنك مشغولا بالتأليف — أو هذا ما أرجوه ، فإنه أحلى فى نفسى من أن أعرف أنك لاتصنع شيئاً . وهذا محتمل وإن لم يكن مرجحاً .
« . . . لقد كان فهمى للحياة مغلوطاً وسلوكى فيها مضطرباً . وإني الآن لا أدرك أن ضبط النفس — كبح القاب — هذا بمجرد أتم وأكل ما يبلغه الإنسان ويقوى عليه .. » .

ووضع الكتاب وأطل من زجاج النافذة على الليل الموحش والصحراء المحيطة التى أقام بيته فوق رمالها الخائنة . وأحس بالبرد فزرز المعطف وقال لنفسه وهو يعود إلى الجلوس :
لقد سهرت ليلي النوم من جفونى لأول مرة فلنقرأ كتابها من أوله .
فقرأ بعد سطور :

« إن ذلك الفرع الشريد قد وجد مقرسه واهتدى إلى منبته — نعم وجدت ليل التى ينبغى أن يتقرر عودها فى ثراها . وإنه لحلم ولا كالأحلام . وإن الأحلام فى عيني جميلة ساحرة . بل أجل من أن أظن أنى أقدر على إحياها وأنت بعيد عني لا تشاطرنى التمتع بها ، فأنت ترى أنك مازلت حيث أحلتك من نفسى فى الأقصر . ولكنك لاتستطيع أن تقدر سعادتي أو تجاريبى غلصاً فى أحلامها ، فإن كثرة التفكير قد أشابت نفسك . ثم أنك طماع ! وأظنك توافقنى على أن الطماع مضمّن للنفس . تعب للعقل وسواء أكان أم لم يكن كما أعتقد فإني أشعر أن الطماع لا محل له فى هذه البلاد الجميلة . فأرجو أن تكتب فى مذكرتك — إن كنت تفعل شيئاً من ذلك فى العادة — إني أمنعك ، أحرم عليك ، أن تلحق بى هنا ! فيا للغرور ! كأنك لم تنسنى ! كأنى لا أخشى — بل لا أعلم — أن سخطك على قد يحا صورتي من صدرك .. » .
وهنا مز إبراهيم رأسه وقال لنفسه :

« كلا ! لن تبرح ذهني صورتك ، فإنك أقدر من نكدعني وغشني .

لا . لن أتم هذا الخطاب . وما الفائدة ؟ ؟ أما لو أنى عرفت خطتها قبل أن أفتحها ! ولماذا تكتب إلى ؟ ألتقول إنها سعيدة منعمة ؟ ومالى أنا ؟ لا أراى أشعر بفرح لها ولا أنا يسوءنى أن تكون كما تصف فلنطو كتابها ولنلق به .. أين .. ؟ أوه ! هنا فى الدرج - فى أى مكان .

وطوى الكتاب ورعى به فى الدرج ، ولكنه لم يتم بل قعد يدخن سيجارة بعد أخرى وقد أحس أنه هرم جداً كالجبال . وجعل يقول لنفسه فى تعليل هذا الشعور ، إن كتاب ليلي ليس سوى صدى فاطر لتجربة قديمة ... تجربة ميتة . والتجارب القديمة الميتة هى ذخير الشيخوخة وإحدى خصائصها .

ثم قال لنفسه : « إن كتاب ليلي هذا لا يحرك نفسى لأنى ما عرفتها قط تحرك ذلك الجانب الشرقى من نفسى . وإنما كانت دائماً فى نظرى رمزاً لذلك الظرف والرقعة الشيطانية ... وغير ذلك مما يزيد الصقل الغربى ، وما أظنها كما تصف نفسها سعيدة أوراضية ، فإن رضاها الذى تحدثنى عنه أشبه بأن يكون عاطفة فهو زائل » .

وظل يفكر على هذا النحو حتى مطلع الفجر وحتى شك فى حقيقة ما حوله من أثاث وكتب وراح يتوهمها بعض ما يترامى له فى حلم سينسخه النهار ثم أخذه النوم وهو قاعد وجاءت الخادمة فى الصباح تكنس الحجرة ولكنها لم تكنسها ولم تجاوز عتبة الباب ، لأنها رآته ، ولعلها ظنته سكر البارحة فنام حيثما اتفق .

- ٢ -

بعد أن عادت ليلي من الأقصر إلى الاسكندرية اشتدت عليها متاعب الحمل المألوفة فى الشهور الأولى فكرها ذلك وأزعجها مشكله ، وأفرغتها فضيحتها ولم تجرؤ أن تستشير أحداً من أهلها حتى ولا أختها وهى أصغر منها وتقيم معها ، وكان لابد من حل ، فإن القىء وحده كفى بأن يفضح سرها ، وهبه لم يفضحه لأنه شئء كان يحدث لها فى الصباح أو الليل وهى بعيدة عن

أعين الرقباء فإن السر سينفل يبرز على الأيام حتى لا يبقى سبيل إلى إخفائه ،
وحدثها نفسها في بعض ساعات ضعفها وألمها وخوفها أن تكتب إلى إبراهيم
بالحقيقة فإنه أولى من تكاشفه بها وأحق الناس بالحرص على مستواها ولكنها
عجلت وأحست أن هذه خليقة أن تعد إكراهاً أدبياً منها له على الزواج
منها ، وهي قد هجرته عامدة على فرط حبها له ، وخطرها أن تستشير
الشيخ على فإنه أمين ناصح ، وقد توثقت بينهما الصداقة بعد عودتها إلى
الاسكندرية ، ولكنها قدرت أن الشيخ على سيرى من واجبه - ومن
حقها هي - أن يبلغ إبراهيم وأن يدعوها إلى واجبه - وهذا ماتكره
وتأنف نفسه .

ولما أعيتها الحيل وسدت في وجهها المسالك مضت إلى طبيب تعرفه
وكانت تذهب إليه أو تدعوه كلما أصابها برد أو زكام أو نحو ذلك مما
لا يصبر عليه المترفون . وكان الوقت مساء ووقت العيادة قد أوشك أن
يتنى . فلم يطل انتظارها . وكان رجلاً كبيراً ظريفاً يشمرك مظهره أن
في وسعك أن تعتمد عليه فقاجاته بقولها :
... لاني حامل ولا بد من الإجهاض .

فلم يبد عليه أنه دهش . وعجبت هي من اجترأها ، فأشار إليها أن
تجلس وقال كأنما يتحدث عن الجو .

- هل لك أن تخبرني لماذا ترين الإجهاض أمرا لا بد منه إذا كنت
حاملا ؟ .

فقالت : « هذا سهل . لأن أباه ليس زوجا لي ولا يمكن أن يكون
زوجا لي » .

فقال : « إني آسف جدا . فلست أستطيع أن أجرى هذه العملية .
لم أحاولها قط في السنوات التسع التي اشتغلت فيها طبيا . ثم إن أصول
الهيئة المرحية ... » .

فقاطعته. قائلة : « إنى أعرف أصول هذه المهنة فقد كان أبى طبيباً كما تعلم . لا بأس . إذن دلتى على رجل آخر موثوق به يستطيع أن يفعل ذلك ، واذكر أنى لا أريد أن أقضى بحبى الآن وفى نحال هذا العلاج أو العملية » .

فقال باسم :

— اهتدى . فما أظن من المحتمل أن تموتى بذلك . إن الخطر إنما يكون من العدوى أو من الطبيب إذا كان من ذلك الطراز الذى يعيش من هذه العمليات ، وهذا الطراز يتفق غالباً أن يكون متكبراً وأن تكون يده غير متزنة على كل حال لا تفزعى . كم عمرك الآن ؟

قالت : « ستة وعشرون عاماً » .

قال : « إنك تبدين أصغر بكثير . على كل حال أظن الأطباء اللذين يجرون أمثال هذه العمليات يقولون فى العادة أنها ضرورية سواء أكانت كذلك أم لم تكن . فهل تسمحين لى بالكشف ؟ »

ثم قال : « لا أرى أن تتكأى . إن الحمل منذ ثلاثة شهور على الأرجح . وأعرف رجلاً كان زميلاً لى فى الدراسة ، وقد سمعت أن طريقته علمية مضبوطة وقديماً يعجبك ولكنك تستطيعين أن تتصورى حال رجل لا يعالج إلا كل امرأة هستيرية — وهذا طبيعى فى مثل هذه الأحوال ، فإذا شئت فلانى مستعد أن أصحبك . موافقة ؟ حسن إذن دق لى التليفون هذا مساء لعلنى أكون تمكنت من الاتفاق معه » .

وكان يوم العملية السبت — صباحاً . فعنيت بارتداء أبهى ثيابها وكانت تقول لنفسها :

— من يدرى ؟ ربما صرت جثة بعد الظهر . فلاكن فى أحسن حالة . وتعطرت وانتقت من المناديل ما يوائم ثوبها فلما دخل عليها الطبيب قال :

— إنك بارعة الشكل فلعلك غير خائفة .

وكانت تحس أنها ميتة ولكنها قالت :

— كلا يا دكتور هل نمضى ؟

وقال لها وهما فى سيارته :

— لا تخشى أن تموتى فلن تموتى . فلأنك من ذلك الطراز السليم الذى
يحتمل أكثر من هذا بلا تأثير سيء . وسأكون قريباً منك ألاحظك وأعنى
بك — وليس هذا من أصول المهنة فى شيء ولكنى فى سبيلك أصنعه .

فشكرته وقالت :

— قل لى يا دكتور هل يطول الأمر ؟ هل تستغرق المسألة زمناً طويلاً ؟

فقال : « على الأكثر عشرين دقيقة . وأنصح كطبيب بعدم التخدير
إذا كنت تعرفين أنك تحملين » .

فقالت : « كما تشاء يا دكتور » .

ثم قال : « لقد وصلنا . والآن فاذكرى أفى بجانبك . وأن المسألة كلها
ستنتهى بعد نصف ساعة .

ودخلا حجرة ليس فيها بعد الكراسى شيء بصرف المرء عن خواطره .
وكان الطبيب ممسكاً يدها فى حنوليشجتها ، ودخل فتى وفتاة كلاهما
صغير جميل لا يتجاوز أحدهما السادسة عشرة فنظرت إلى الفتى كأنه
منقذها وكان يهودياً مشرق صفحة الوجه أزرق العينين وقالت للدكتور :

— يا دكتور . إن هذه الفتاة طفلة !

فقال : « نعم . لاحظت ذلك . آه هذا هو الدكتور افرايم — الانسة
لىلى » .

ولم يرفها جمود وجه الدكتور افرايم ، ولكنها اطمأنت إلى يديه
النظفتين وقال الدكتور افرايم :
— تفضللى .

وبدأ كل شيء يعوم في نظرها ، ولكنها استطاعت مع ذلك أن تذكر
أن غرفة العملية نظيفة وأن المريضة جميلة ، وأنها أعطتها جنيها وأن
وجهها نضج بشرا لهذه العطية ، وقال الدكتور أفرايم :

— لا تخافى يا سيدتى ، لقد نصح طبيبك بعدم التبنيح وله الحق .

فقالت ليلى للمريضة : « أتسمحين لى أن أمسك يدك » .

فقالت المريضة : « بكل تأكيد ، وهل أنا هنا إلا فى خدمتك ؟ »

وقالت لنفسها إن هذه الفتاة طيبة فسأنفحها بعطية أخرى .



وقال الدكتور نبيه : « هذا أنت ، قد انتهى كل شيء على مايرام وسأحققك
الآن ، فنامى واستريحى ، وسأعود إليك بعد بضعة ساعات لأرجعك إلى
بيتك لقد كنت شجاعة . فأهنتك » .

فابتسمت له ليلى شاكرة ، وقالت لنفسها « ليس بى ذرة من الشجاعة
وإنما أنفت أن أصرخ أمام ذلك الدكتور الثقيل الذى لم يترفع عن سماجة
التنكيت على ثمن اللذة ! » .

وبعد برهة دخلت الفتاة — مساعدة المريضة — بوجهها الصابح
وقالت :

— أتخمين بألم ؟ سيزول كل شيء حالا .

وشرعت تخلع المربلة وتلبس صدرية صفراء جميلة ، ولىلى تنظر إليها
وتعجب بحسن قوامها ، قالت الفتاة مباهية :

— لقد أهدانيها حاييم .

فسألها ليلى : « ذلك الفتى الصغير ؟ » .

قالت « نعم ، كم تظنين عمره ؟ » .

ففكرت ليلى ثم قالت : « هو طفل » .

فقلت الفتاة ضاحكة : « تسعة عشر عاما . وأنا أحبه ، وهو أيضا يحبني ، ولكن أمه . . . أوه ، إنها من اليهود القرائين . فلولاها لتزوجنا وهو لا يعبأ بفقرى . لكن . . . أمه . . . صعب » .

ولم يكن على وجهها ألم ، وهي تقص هذا ولا في عينها أسف ، فلم تر ليلي أن من واجبها أن تحاول الترفيه عنها ، وأخذها النوم وهي تفكر في إبراهيم وتساءل نفسها أتراها يذكرها الآن ؟ وماذا يصنع لو علم ؟

— ٣ —

قال إبراهيم لنفسه في الصباح وهو ينهض عن المائدة ويقصد إلى غرفة المكتب حيث اعتاد أن يشرب القهوة :

— إن الليل عون للضعيف . لأنه يغير وجه الأشياء . ولكن النهار يجلوها ويبيدها على حقيقتها ، فلا بأس الآن من العود إلى رسالة ليلي فما أظن أنها بعد عام ونصف عام تكتب إلى لتقول فقط أنها سعيدة ولتأمرني بعدم اللحاق بها .

وكانت المرارة التي في نفس إبراهيم من ذلك الضرب الأخرس الذي تعمي الإنسان العبارة عنه ، لاكتلك المرارة المضبوطة الحدود المحبوكية الأطراف ، الوضاعة كالماس ، وكان إبراهيم رجلا ينقصه التواضع وإن كان ينقصه الكبر أن يكون به كبر ، على حد تعبير أبي فراس الحمداني ، وكانت لغته صورة من روحه ، وألفاظه كأنما تدرك أنها درر ولا إلىء تلقى تحت عيون الحنازير وكان يرص العبارة فوق العبارة الأخرى ويكظها جيماً بشخصيته حتى لتحس أن الفاظه ملأى بمعانيه هو ، ومثقله بخوالجه هو ، وأنه لا سبيل لك إلى رأى أو إحساس فيما وراء هذا الكوم المكس من الآراء والإحساسات وأن عليك أن تبتلع بلا تردد ولا مضغ .

وبهذه الروح انتهى إلى رساله ليلي ، ولم يخطئ ظنه ، ولو أخطأ لا عتد

ذلك من ذنوب ليلى ، وكانت الرسالة طويلة وفيها خلاصة تاريخها منذ
توفى والدها إلى أن رفعت عنها وعن أختها الوصاية وفيها تشرح كيف أغواها
الوصى وعيبت بعفتها ثم حاول أن يتزوجها ليستولى على مالها بعد أن بدد
منه جانبها ليس بالقليل ، ولكنها لم تشر إلى الجنين الذى أحانها الدكتور نبيهة
على انتزاعه من بين أحشائها قبل مواعده ، وما الداعى إلى ذلك وقد تزوجها
الدكتور نبيهة آخر الأمر . إنه سر لا يعلمه سواه فيحسن ألا يتجاوز إلى غيره وما
دام أنه هو قد دفنه ولم يصفله بعد ذلك ! فما أولاهما هي بأن تناساه .

وقال إبراهيم لنفسه : « يالها من فاجرة تتزوج رجلا ثم تكتب إلى
بلا مناسبة تقول أنها تحبني ! ولكن هذا غير عجيب ممن علمتها السيارات تصنع
الحرارة في القبل والعناق » .
وزادت مرارته قطرة ... إذا كان إلى هذا سبيل .

الفصل الثانى

فليسمع ختام الامر كله

هى مقدمة الربيع ، وكل شيء هادىء والشجر كأنه مستريح أن يظل متعربيا وحوله الخضرة مهتزة زائبة ، وكأنما هو يبذل أقصى ما فى وسعه ليكتسب ويخرج أوراقه النضيرة التى ستحجب أشعة الشمس التى أعانتها على الوجود وغذتها وأتمتها ، وقد خيل لابراهيم وهو يحيل عينه فى خضرة الارض ورونق السماء وصفاء الجو ، كأن بالازهار دهشة لهذا الدفء الجديد فى الدنيا ، فهى لا تزال تبدو كالمترددة المشفقة أن تبرز فى حفل من زينة جمالها مخافة أن يكون الشتاء انما يخادعها ويقالطها فى حقيقة الزمن ، حتى إذا اطمانت عاد فحمل عليها بقره وصره .

وكان ابراهيم قد عاد إلى ماري بقلب مثقل وعين نقاذة ونفوس غير مرتاحة إلى اعتياض الذى هو أدنى من الذى هو أعلى وكانت شوشو قد زوجت الدكتور محمود ونقل هذا عيادته إلى الاسكندرية واستطاع أن يوطد مركزه فيها ، وأن يوسع دائرة عمله ، وعلم ابراهيم أن شوشو راضية شاكرة وأنها وامقة موموقة كذلك حدثته أمه فى صبيحة ذلك اليوم فى مستهل الربيع وزادت على هذا بعد أن قصت عليه ما اتصل بها :

« لقد كنت أفكر فيها لك » .

فلولا خلو ذهنها من الحكاية كلها للاحظت سهومه وتحجر نظرتة وكفه بعد ذلك عن الكلام ، ولكنها لم تكن تعلم شيئا مما عانى ابنها ، ولم ترموجبا للاحاح فى أمر لا جدوى فيه ولا طائل تحته : وأوهمها

صمت ابراهيم أنه لا يزال يكره أن يقترح عليه الزواج ، كمهله مذ ماتت زوجته .

ولم يستغرب ابراهيم أن يتزوج الدكتور من شوشو ، ولم يخطر له أن يسأل كيف رضيت نجيبة أن يتخطى الدكتور أختها سميحة ، وإن كان هذا كله قد حز في نفسه ، ولم يدهشه ما سمعه عن حب شوشو للدكتور ، وقال لنفسه لعل هذا الحب الذي يصفون أكذوبة أراضت شوشو نفسها على مقتضياتها . أو لعله حب صادق جاء كرد الفعل . أو لعله كان كامنا في زاوية من زوايا نفسها وهي لا تدرى ، وقد كان هو - ابراهيم - يحب ثلاثا من النساء في وقت معا وهو مدرك لهذا الثلاث ، فلا عجب أن تحب شوشو اثنين وهي غير مدركة لذلك . فيكون أحد حبيها طافيا على اللجة ويكون الآخر راسبا في قاعها . وعسى أن يكون الراسب أرسخ وأقوى .

على أن ابراهيم رجح عنده أن حب شوشو له هو ، لم يكن حبا لشخصه وإنما كان عاطفة جنسية قائمة بذاتها ومستقلة عن كل شخص معين ، ومتعلقة بالرجولة بمعناها الواسع ، ومدلولها الأشمل ، فمن السهل أن تتحول من شخص معين إلى شخص آخر معين ما دام كل منهما موافقا صالحا ، لأن العاطفة في هذه الحالة لا تكون حبا لفلان بالذات ، بل فورة نضج أنثوى تبغى الرجولة والسلام ، وبدا لابراهيم أن هذا التعليل أصبح وأسد ، فإن الحياة المصرية وتقاليدها تعين على هذا النوع من الحب القابل للتحول - إذا صح هذا التعبير - والفتاة المصرية - في الأغلب والأعم - تذهب إلى الزوج وهي لا تحمل له حبا ، وإنما تحمل له نضجا جنسيا قابلا لأن يتعلق بشخصه إذا ساعفته الظروف وأحسن هو سياسته واستطاع أن يوجهه الى نفسه وما أكثر ما يبدأ الزواج في مصر بلا حب . وليس بالتأخر أن يبدأ بمقدار من الكره الخفيف . ثم لا تلبث المعاشرة والاحساس بالواجب - احساسا درج كل

من الزوجين على توطين النفس عليه - أن يفضيا إلى ما يشبه الحب المتبادل وإن كان من العسير أن يسمى حباً لاتقاء امتحان الوسط واغرائه . وذلك أن المرأة الغربية يقبل عليها الرجال ويهجمون عليها وفي مرجو كل واحد أن يفوز بها . وهذا امتحان لها وإغراء . ثم ينتهي الأمر بإيثارها أحدهم بعد أن تتخل عواطفها وخواجها ، وتعرف أن هذا الاحد الذى تؤثره هو الذى تصبو إليه وتتمثل فيه معانى الرجولة التى تطلبها أنوثتها .

وقد تخطىء في الغربة أو يدفعها ظرف غير الحب الى التحيز ، ولكنها تجوز الامتحان على كل حال ، وكان حبها لاشك في أنه لشخص معين ، أما أختها المصرية فقلما تتاح لها فرصة هذا الامتحان ، والاختبار عندها في أضيق دائرة وقد لا يكون ثم اختيار بتاتا ، فحبها للرجل شبيه بالحب الذى صهر الامتحان ومركزه الإغراء ، ولكنه ليس به ، ومن هنا كان إيمان إبراهيم بحب ليلي قويا وبخية أمله فيه عظيمة .

على أنه ما عزم أن أنصرف عن ماري أيضا - - - أنصرف عنها بسبب لا يصرف سواه لفرط ما أنطوى عليه من الشدود ، ذلك أنه قصد إلى دارها عصر يوم - - - بعد أن اتصل به زوج شوشو بأيام ، فقالت له الخادمة إنها مستلقية على سريرها فليدخل عليها إذا شاء ، فألفاها نائمة . هذا هو السبب ، والقارىء معذور إذا استغفر به ولكن أعصاب إبراهيم كانت مضطربة مرتبكة ، فخرج وهو يقول لنفسه :

- - - إنه ليس ثم أبشع من منظر الانسان وهو نائم نيام النوم حالة ذهول ينبغي أن لا يطلع عليها أحد ، ذهول عن الدنيا القائمة القاعدة ، وبلاذة حيان حركتها الدائمة ، ولقد حاولت أن لا أنظر الى ماري ولكنى كنت أسمع أنفاسها ولا أستطيع أن أحول عيني عن وجهها المتعب المكبود ، وقد كان هذا حقيقا أن يدفعني الى العطف عليها . ولكنى أحسست بعد برهة أن معين عظمى قد نصب ، وأنى لم أعد أعبا أناثمة هي أم ميتة .

ولم يخبرها إبراهيم ولا حاول أن يلقاها ليشرح لها هذا ، لأنه خشى أن لا تفهم فيمنعها ، وهو يكره أن يضطر أن يكره الناس .

— ٢ —

وقالت له أمه ليلة بعد أن ظلت برهة مطرقة تنظر الى سبحتها وتخالسه النظر :

— يا بني ألم تفكر في الاستقرار ؟

ولم ترد . كأنما كان هذا سؤالاً أخطره بيها . منظر حبات السبحة وهي تتداولها بأصابعها : فنهض إبراهيم وقال وهو يتمشى وكأنه يناجي نفسه :

— الاستقرار ؟ إن البيوت الثابتة إنما اخترعت لان الانسان اشتى السلامة وطلب الأمن ، وأراد أن يكون مطمئنا الى ما يتوقع ، فان الخيال لعنة — أو هو كذلك في اعتبار أكثر الناس أو في تجاربهم ، وقل من يشعر بالراحة مع الخيال لانه مزيج مقلقل ، والحياة تظل تجربة حتى يكون للانسان بيت ، ويشعر أنه له ويصنبح ملكا لهذا البيت مشدودا اليه مقيدا به ، والناس في العادة يرتاحون الى هذا الشعور ويحبون أن يكونوا على يقين من أن هناك وسادة يضعون عليها رؤوسهم كل ليلة . وأن هناك امرأة يسمونها الزوجة تترقد الى جانبهم . نعم فإن الانسان إنما يطلب البيت لانه يطلب الزوجة ، وهو يطلب الزوجة لأنه يريد أن يريح نفسه من متاعب الإحساس الجفسي : كأنما يريد أن يفرغ من الأمر مرة واحدة وفي لحظة . . هذا هو الاستقرار . . وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون أو يساعد على التقدم .

فنهضت وهي تتبسم بالدعاء له . .

وكتب إبراهيم بعد ذلك يصف ليلته تلك :

« هي ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفي الصدر ضيق ، فأبى عن صحرائي أهدى ؟ صحرائي التي لا يلتقط الطير فيها حبا ولا يجابو في خرابها قلب قلبا . ولا يغيرها صيف أو شتاء ، ولا يدوم عليها إلا العفاء ؟

كذلك كانت قديما وكذلك أبقاها الله . . . لي ! ولكم توهبتها وأنا أضرب
فيها ، وأطوف في قياها وجها مستعارا يبدو فيه « الوجه الأعظم » متقنعا !
ولكم وقفت أدق رملها بقدمي وأفحص فيه بعصاي وأدمدم كاللدى يريد
أن يرقبها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذي ضرب عليها وألزمها المحل .
واقعد أعجب في الليالي القمرء كيف لا نحسر وتنفض عنها هذه الرمال وتبرز
للقمر الذي ينجبها ضوءه وينام على صدرها المتموج — في مثل وشي الرياض
تنفخ روحا وريحانا ، ويتداعى الطير على أيكها اصلانا ، وتهطل أغصانها
فتمسو « وتمس الأرض أحيانا »

وقالت الرمال لي وأنا أقتلع منها رجلى اقتلاعا إذ أنهبط في الصحراء
والرياح تجذب أطراف الرداء !

« بودى لو تماسكت حياتي . وثبتت ذراقي . ولانت مواطئي
لقدميك ، ولكني مثلك لا حيلة لي فيما قضى به . . »

وهتف بي هاتف من جانب سائها التي عفت الظلمة آي الهدى منها :
« ليتني أستطيع أن أسدد خطاك ، وأبذل لك الطريق الذي تغوص فيه
قدماك وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا لانملك خلافه . وقانوننا
لنستطيع تأويله واعتسافه . وما نحن وأنت الا سواء . وهل تراك نملك
من أمرك كثيرا أو قليلا ؟ »



« وهبت الريح بي كالحنونة . فعدت وكأني أمشي على ماء لجي يعلو
ويهبط . وسفت الرمال في وجهي حيثما أدركته كأنما أرادت الحياة أن
ترجمني ، وتسابقت زمامها إلى أذني فوقفت مكاني لا أريه . وقلت لنفسى
« ماذا يصنع العود النابت في المخلام هبت به مثل هذه الرياح الموحاء ؟ يلين
أو يتقصف ! »

« قلت الى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت القوورة . وجعلت أفكر في هذه الحياة الغريبة التي يمتزج فيها الصراخ بالقناء . ويختلط به الألم والطرب . وأقول لاشك أن الحياة عياء صماء فليتها توهب البصر هنيئة لترى هذا الخليط من الحسن والقبح والخير والشر ! ويا ليت من يندى ماذا تصنع إذن ؟ أترى يشور بها الخجل فتعصف بكل شيء وتمحوه ؟ أم تأخذ في إصلاحه وعلاجه في صبر وأناة ؟ أما لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاي من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمت ثم ذررت لهذه الرياح ! » .
فهمست في أذني الرياح :

« ما الحسن وما القبح ؟ وما الحزن وما السرور ؟ وما الخير والشر وما الاحساس والعقل ؟ والحبس والجذب . والصحة والسقم . واليأس والأمل ؟ والبكاء والضحك ؟ »

« رفعت رأسي حائرا . وأدبرت عيني واجبا . ثم أطرقت منعا ثم نهضت أمشي »

« ودلفت بي رجلاي إلى المقابر فتخللتها إلى جيلث فيه شطر من ماضي وقعدت واستندت ظهري إلى حجارتها ، وأنا أقول لنفسي :

« الموت على الأقل راحة . فليت الحادي يمجلى بنا ! فقد سئمت الحياة ومللت النظر إلى وجهها الملطخ وثوبها المرقع . واشتقت أن أرقد هنا إلى جانب . . . »

« فخلص إلى صوت من جانب القبر أن « لا » .

« قلت « كيف لا ؟ »

« واستندرت حتى واجهت أضواء القبر .

« قال الصوت : « لا » على التحقيق . أن لي هنا سنوات لا أعلم عددها ولعلها أقل مما توهمني وحشة الوحدة التي تطيل أيامي التي صارت كلها ليالي . أولعلها

كثيرة فما أدرى وقد حجبني عن الدنيا ، ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت ؟ ولكنة يموت مرة كلما نسيه واحد من الأحياء ويشتمل عليه الفناء شيئا فشيئا ، وأنت على الأقل تذكرني فأبقى بذكراك . فلا تسلمني إلى العناء بموتك ! ولسنا نألم الرقاد هنا ، وإن كانت ظهورنا توجبنا أحيانا من طوله . ولكنما نألم فتور الذكرى عنا واشفائنا على التلف الأخير . وههنا في قبري — في حجرة أخرى — جد أعلى لي مسكين ، مسكين قد استوفى ميته جميعا ولم يبق منه شيء وليت ادكاريه ينفعه ! إذن لرددت إليه بعض الوجود . ولكن هيهات ! إنما يجدي الذكر من فوقها دون من هم في جوفها مثلي .

قلت « ولكن إذا تعلقت بالحياة فلا معدى عن إجابة دواعيها أفلا يسوءك ذلك ؟ »

قال الصوت « كلا ! سيان عندي أن تنى لي أو لا تنى ، ومن العبث أن تتكلف لي الحفاظ فأننى بعد أن مت ، لا يسعني أن أوليك الشكر الذي تستحقه أو تنتظره . ولا التفت إلى وفائك أو غدرك ، وإنى لأدرى فوق هذا أنك لا تذكرني لذاتي بل لما طابت به نفسك فافعل ما بدا لك . ولا تمن نفسك في من هذه الناحية . ولكن ابقى لي رقعة صغيرة زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبة البقاء . »

قلت « فاذا نسيته كغيري ؟ »

قال الصوت « إذا نسيته ؟ آه ! ولكن ما لنا وما لم يقع ؟ دع هذا إلى أوائه ، وحسى أن يكون بعيدا . »

قلت « حسن . سأحيا من أجلك . وأتقى المهالك اكراما لك وضنا بك أن تلحقى الاموات جدا ! »

قال الصوت : « اتفقنا . فالى الملتقى ! »

فسرت في بدني رعدة خفيفة ولم يسرنى أن تقول « الى الملتقى » ونهضت

عن القبر ممتلئاً رغبة في الحياة . وضئنا بها وحرصنا عليها ، وعدت
أدراجي إلى داري خفيفاً كأنما حططت عن كاهلي وقرا . جعلت أقول
في الطريق :

— نعم سألها من أجلها !

ولما أدركت المفتاح في الباب همس في أذني الشيطان اللعين :

— تقول من أجل من ؟

وقهقه !

فناظني ذلك وأخرجني ابضاً . فأشحت بوجهي وأسرعت فدخلت
وأغلقت الباب في وجهه !

• سرر من السلسلة •

- ١- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الأول)
- ٢- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الثاني)
- ٣- القمصن الذهبي (الجزء الأول)
- ٤- القمصن الذهبي (الجزء الثاني)
- ٥- كليله ودمنه
- ٦- ابن جبير
- ٧- في موكب الشمس
- ٨- هاملت
- ٩- قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور
- ١٠- الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا)
- ١١- رمز الأفعى في التراث العربي
- ١٢- التراث القصصى عند العرب
- ١٣- تاريخ العرب قبل الاسلام
- ١٤- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى
- ١٥- جماعة أبوالو (الجزء الأول)
- ١٦- جماعة أبوالو (الجزء الثاني)
- ١٧- الأساطير
- ١٨- ابراهيم الكاتب

رقم الإيداع : ٨٠١٦ / ٢٠٠٠

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورالينس سابقاً) *

قسمة اشتراك
إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

الاسم :

العنوان :

رقم التليفون :

حالة بريدية رقم : باسم الهيئة العامة لقصور الثقافة بمبلغ :

التوقيع :

م	اسم السلسلة	نوع الإصدار	قيمة الاشتراك ٦ أشهر	قيمة الاشتراك سنة كاملة
١	أصوات أدبية	نصف شهرية	١٢	٢٤
٢	إبداعات	نصف شهرية	٦	١٢
٣	كتابات أدبية	شهرية	١٢	٢٤
٤	أفاق التسوية	شهرية	١٢	٢٤
٥	أفاق الكتابة	شهرية	٦	١٢
٦	التغصنات	شهرية	٣٠	٦٠
٧	ذاكرة الكتابة	شهرية	١٨	٣٦
٨	مطبوعات الهيئة	شهرية	١٢	٢٤
٩	الدراسات الشعبية	شهرية	١٢	٢٤
١٠	صين صناعية	شهرية	٦	١٢
١١	مجلة الثقافة الجديدة	شهرية	٦	١٢
١٢	مجلة قطر الندى	نصف شهرية	١٦	٣٢
١٣	مجلة أفاق المسرح	فصلية	٤	٨
١٤	أفاق الفن التشكيلى	شهرية	٢٤	٤٨
١٥	الجوائز	شهرية	٦	١٢
١٦	أفاق السنين	فصلية	١٨	٣٦

ضع علامة (✓) أمام السلسلة التي تريد الاشتراك فيها في المربع الخاص بمدة ستة أشهر أو سنة كاملة

ترسل على عنوان الهيئة العامة : ١٦ ش أمين سامى - قصر العيني - القاهرة

ت : ٢٥٦٤٨٤١ - ٢٥٦٤٨٤٢ - فاكس : ٢٥٦٤٢٠٢

الرقم البريدى : ١١٥٦٢

شوشو فتاه يقول لك جسمها أنها ناهزت التاسعة عشرة ويشهد عينيها
وحركاتها أنها لم تتجاوز السابعة عشرة . وهي ذات قامة معتدلة وجسم غض
ووجه صبيح متألق : ترتاح العين إلى النظر إلا . معارفه جملة ، ونشغل برقعها
مجتمعة عن التعلق بواحد منها على الخصوص . وقد قضت هذا انشطر الأول
من عمرها في عزلة ، قلما أتيج لها فيها أن تخالط الرجال إلا أن يكونوا من ذوي
قرايبها الأدين ، فلم تألف أذن عبارات الإعجاب بحسنها ، وبقيت نفسها
مرسلة على سجيئتها ، وخلا كل ما فيها ولما من ذلك العمل الذي يدرّب الفتاة
عليه تنبه الشعور بنفسها وثوقها من الجاس أن تأخذها عينه من فرعها إلى
قدمها وأن تجس بحاسنها وتنقدها . وقد انشردت عينها بمزية : هي أن من
يراهما لا يحتاج أن يعدوها أو ينقل لحظه إلى سواهما . ففنيهما يحنل نفسها
وروحها وطبيعتها وجمالها . مركزا . وهما سوداوان غير أنه سواد فيه من العمق
أكثر مما فيه من الالتماع . تحديق « فيه » تحديقك « في » بئر ، ولا ترونو « إليه »
كما ترون « إلى » رسم .



To: www.al-mostafa.com